

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

قسم الدراسات العليا

كلية اللغة العربية، وآدابها

الاغتراب في حياة ابن درَّاج وشعره

رسالة مقدّمة إلى كلية اللغة العربية ، وآدابها

ضمن متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية

تخصص (الأدب)

إعداد

روضة بنت بلال بن عمر المولد

إشراف

أ. د/ مصطفى عبدالواحد

أستاذ بقسم الأدب

١٤٢٨ - هـ - ٢٠٠٧ م

المقدمة

الاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره

(٣٤٧هـ / ٩٥٨م ، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)

ابن درّاج شاعر أندلسي فحل، شاعر قضى معظم حياته مغترباً عن وطنه وأهله، منتقلاً من مدينة إلى مدينة، ومن حاكم إلى آخر، هكذا ببساطة عاش شاعرنا هذه الحياة التي تجرع فيها ألم البعد والفراق عن أهله وذويه .

فابن درّاج هو : أحمد بن محمد بن العاصي ابن درّاج، ويُلقب أبو عمر بالقسطلّي نسبة إلى بلدة قسطلة مسقط رأسه، وكانت ولادته سنة (٣٤٧هـ - ٩٥٨م) وشاعرنا هذا من أسرة ذات مكانة مرموقة، فقد نسبت مدينة قسطلة إلى جده، فقد كان يُقال : (قسطلة ابن درّاج)^(١) « فقد كان جده عظيم الشأن؛ إذ كان هو وأولاده يتولون رئاسة هذه المدينة، وبنو دراج ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة وهم من البربر الذين دخلوا الأندلس في فترة الفتح حينما دخل طارق بن زياد الأندلس، وبالرغم من هذا إلا أننا نلاحظ في شعر ابن درّاج روح الأندلس، فقد كان أندلسياً خالصاً ولا توجد أي إشارة عن نسبه البربري، بل إنه لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري (زيزي) »^(٢) .

« والملاحظ أن نشأة ابن درّاج الأولى لم تتعرض لها التراجم، وأول خبر ذكرته تلك التراجم اتصاله بالمنصور ابن أبي عامر، الذي مدحه بقصيدة أثارت الحساد والحاquدين حوله، فوشوا بوشاية للمنصور، فاتهموه بالسرقة والانتحال، واستطاع شاعرنا أن يتخلص من تلك التهمة، إذ طلب منه

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د.أحمد هيكمل ، ص ٣٠٣ .

(٢) انظر : ديوان ابن درّاج ، تحقيق : محمود مكي ، ص ٢٥ .

المنصور أن ينظم شعراً بموضوع اقترحه المنصور، فقال ابن درّاج شعراً مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه، وبذلك زالت تهمة السرقة عنه . وأكد شاعريته أيضاً بالقصائد التي مدح بها المنصور، وبعد أن مات المنصور عمل مع الحاجب عبد الملك المظفر، ثم بعد ذلك بدأت رحلات ابن درّاج، فاتجه إلى عدة مناطق وعدة أقاليم مادحاً رؤساءها، ومن تلك المدن : قرطبة، وسبته، وسرقسطة، وبلنسية، وألمرية، وغيرها من المدن «^(١) وقد تميز ابن درّاج بكثرة شعره، فديوانه ضخم ويغلب غرض المديح على معظم قصائده، وقد لاحظت أن هذه الأبيات أو القصائد التي اشتمل عليها الديوان يغلب عليها الحديث عن الغربة والاعتراب وألم الفراق والبعد عن الأحبة وعن الأولاد والزوجة، والحنين إلى الوطن، فلا نكاد نعثر على قصيدة قالها في المديح إلا وفيها ذكر لألم الاعتراب والحنين، ولكل غربة أسبابها، وسبب معاناة ابن درّاج هذه الغربة على حد ما ذكره شوقي ضيف^(٢) أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطة وحكامها، أي أنه ألف العيش الرغد والحياة الناعمة، فلعل سلطان قومه قد زال، ولعل رئاستهم قد انتقلت إلى غيرهم، ولكن ابن درّاج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء .

فلم يجد ابن درّاج بعد أن ضاق به الحال إلا أن يضرب في مناكب الأرض، وفي ذلك يقول^(٣) :

فإن غربت أرض المغارب موئلي

وأنكرني فيها خليط وخلان

(١) في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكمل ، ص ٣٠٧، بتصرف .

(٢) في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكمل ، ص ٣٠٩ .

(٣) ديوان ابن درّاج القسطلبي ، ص ٧٥ ، رقم ٣٣ .

فكم رحبت أرض العراق بمقدمي

وأجزلت البشري علي خراسان

ومعروف أيضاً أنه كان ذا عيال كثيرين وأسرة كبيرة، فلعل ذلك كان من دوافع إكثاره من المدح حتى ينال ما يسد به حاجة العيال، وقد صرح بذلك في قوله^(١) :

وَتَحْتَ جَنَاحِي مَقْدَمِي وَتَعَطُّفِي

ثَمَانٍ وَعَالَتْ بِالْبَنِينَ إِلَى الشَّطْرِ

إلى أن قال :

فَمَا جَهْدُوا فَلَكَا كَمَا جَهْدُوا يَدِي

وَلَا أَنْقَضُوا رَحْلاً كَمَا أَنْقَضُوا ظَهْرِي

وَلَوْلَاهُمْ لَمْ أَبْدِ صَفْحَةَ مُعْدِمٍ

وَلَمْ أَسْمِعِ الْأَعْدَاءَ دَعْوَةَ مَضْطَرٍّ

ولهذا كان ابن درّاج يتنقل بين بلدان كثيرة، ولكنه لم يستطع نسيان موطنه وأهله، فيتضاعف حنينه ويشتد الشوق عليه، فقد كان الحنين شغله الشاغل بالرغم أن القصائد موضوعها الرئيس المدح، فهاجسه الذي لا يفتروا أو ينقطع هو الحنين، فقد كان يشعر بأن كبده ستنمزق شوقاً ولهفة على تلك الأيام الغابرة التي قد لا تعود، فيتذكر الحوار الذي دار بينه وبين زوجته مبرراً لها سبب سفره وفراقه لها ولولده، فيصف موقف الوداع بينه وبين الزوجة

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٧ ، ص ١٦٠ .

والولد، فيقول^(١) :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا

بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ

تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى

وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ

ابن درّاج هذا الشاعر الذي سيطرت عليه الكآبة وفارقتة ابتسامته، وخيم عليه الحزن والأسى، فهو دائماً يبكي فراق أهله وبعده عن وطنه ودياره، فصور ذلك كله في شعره بأفكار ملونة وأساليب متنوعة، وبطرق مختلفة تتفاوت فيها قوة العاطفة ورنّة الأسى ولهفة اللقاء .

ويقول في هذه القصيدة التي يمدح بها (ليب العامري) التي افتتحها بحديثه عن الغربة وعتاب زوجته له ؛ وذلك لكثرة اغترابه يقول^(٢) :

هَلْ تَتْنَيْنُ غُرُوبَ دَمْعِ سَاكِبِ

مَنْ شَامَ بَارِقَةَ الْغَمَامِ الصَّائِبِ

أَبَتْ الْعَزِيمَةَ مِنْ فُؤَادِ جَامِدِ

أَنْ تَسْتَقِيدَ لِمَاءِ جَفْنِ ذَائِبِ

مِنْ تَرْمَةِ حَدَقِ الْمَكَارِمِ تُصْبِهِ

عَنْ مُصْبِيَاتِ أَحِبَّةٍ وَحَبَائِبِ

(١) ديوان ابن درّاج القسطلبي ، ص ٢٥٠ ، رقم ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٠ ، رقم ٣٦ .

فَفِرَاقُ رَبَّاتِ الحُدُورِ مُكَفَّرٌ
بِلِقَاءِ نَجْمِ المَكْرُمَاتِ الثَّاقِبِ
قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الودَاعُ مَدَامِعًا
بِمَدَامِعِ وَثَرَائِبِهَا بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟
وَكَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةً نَاهِبِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَنُتَوِيٍّ مُتَبَاعِدٍ
يَرْمِي حُشَاشَةً شَمَلْنَا الْمُتَقَارِبِ
وله أبيات أخرى يتحدث فيها عن كثرة أسفاره واغترابه، فيقول^(١):

وَرَمَيْتُ آفَاقَ العِرَاقِ بِشُرْدٍ
لَيْسَ العَجَائِبِ عِنْدَهَا بِعَجَائِبِ
مِنْ كُلِّ سَاحِرَةٍ كَأَنَّ رَوِيَّهَا
فِي أَلْسُنِ الرَّأْوِينَ رِيقَةً كَاعِبِ
وَلَكُمْ وَصَلْتُ تَنَائِفًا بِتَنَائِفِ
حَتَّى وَصَلْتُ مَشَارِقًا بِمَغَارِبِ

ويقول أيضًا^(٢):

غَرِيبٌ وَكَمْ غَرَبْتَ رَاحَتَا
هـ فِي الأَرْضِ مِنْ وَجْهِ بَكْرٍ بِتَوَلِّ

(١) ديوان ابن درّاج القسطلي ، ص ٩١ ، القصيدة رقم ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ ، القصيدة رقم ٣١ .

هكذا كان شاعرنا. فهو في غربة دائمة وفي شوق دائم ودموع غالبية، فلا نبالغ حينما نقول إنه لا تخلو قصيدة من قصائده إلا وقد وردت فيها كلمة (غريب، وغربة، ومغترب)، فمن خلال هذه القصائد يرتفع صوت ابن درّاج المرتبط بالأهل والشعور بقيمة الوطن، إضافة إلى المعاني التي تثور في نفس المغترب وإن كانت البلاد التي ارتحل إليها في أحسن أحوالها، فهو دائماً يذكر ما يصيبه من خير وشر في تلك البلاد، يقول ابن درّاج متشوقاً لوطنه^(١) :

بَعِيدٌ مِنَ الْأَوْطَانِ مُسْتَشْعِرُ الْعَدَى

غَرِيبٌ عَلَى الْأَمْوَاهِ مَتَّهَمُ الصَّحَبِ

وفي الأبيات التالية يمدح أحد الكتاب بأنه أوى غربته وتشرده، يقول^(٢) :

دَعَاؤُ فَلَائِي وَآوَى تَغْرُبِي

إِلَى كَرَمٍ لِلْعِزِّ ذِي مُرْتَقَى صَعْبِ

وَجَلَى هُمُومِي مِنْ سَنَاهُ بَبَارِقِ

أَضَاءَ بِهِ مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبِ

وَأَسْبَلَ لِي مِنْ سِتْرِهِ فَوْقَ سِتَّةِ

أَهِيمٍ بِهِمْ فِي الْأَرْضِ مِثْلَ الْقَطَا

(١) ديوان ابن درّاج القسطلي ، ص ٨٢ ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، القصيدة رقم ٣٤ .

« ولم يكتف شاعرنا بتصوير اغترابه فقط، بل صوّر أيضًا اغتراب
أبنائه وتشردهم عنه، وشدة حاجتهم إليه، يقول^(١) :

فِي سِتَّةِ ضَعْفُوا وَضُعْفَ عَدُّهُمْ
حَمَلًا لِمَبْهُورِ الْفُؤَادِ مُبَلَّدِ
شَدَّ الْجَلَا رِحَالَهُمْ فَتَحَمَّلَتْ
أَفْلاذَ قَلْبٍ بِالْهَمُومِ مُبَدَّدِ
وَحَدَّتْ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ
أَوْطَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّ مُشَرَّدِ

وقد صور قسوة غربتهم وشدة حنينهم إلى دارهم حتى إنهم ليحزنون
كلما تخيلوا دارًا لساكنين، ويتألمون كلما رأوا حيوانًا أو طائرًا يستمتع بعشه
على حين هم مشردون هائمون^(٢)، نكتفي بهذا القدر من شعره الذي يبرز
غربته.

أسباب اختيار الموضوع:

- ١ - غربة الشاعر وسفره وتنقله لم يدرس دراسة مستقلة.
- ٢ - تأثير الغربة على الشاعر وعلى شعره.
- أما الصعاب التي واجهتني في أثناء البحث:
- ١ - الاعتماد على مصدر واحد وهو ديوان الشاعر وبتحقيق واحد.
- ٢ - وجود بعض المراجع التي تحمل بعضها موضوع الاغتراب والغربة،
وهي نادرة في المكتبات.

المصادر التي أفدت منها في هذا البحث :

- ١ - مصدري الرئيس هو الديوان: ديوان ابن درّاج القسطلّي، حققه
وعلق عليه وقدم له الدكتور: محمد علي مكي، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ .

(١) ديوان ابن درّاج القسطلّي ، ص ٦٣ ، القصيدة رقم ٣٠ .

(٢) في الأدب الأندلسي ، ص ٣١٨ .

- ٢ - كتاب أدب الغرباء، لأبي الفرج الأصبهاني، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٢ م .
- ٣ - الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، تأليف عزيز السيد جاسم .
- ٤ - جمهرة أنساب العرب، لابن حزم .
- ٥ - جذوة المقتبس، للحميري .
- ٦ - الذخيرة، لابن بسام .
- ٧ - منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني .
- ٨ - المطرب، لابن دحية .
- ٩ - أعمال الأعلام، لابن الخطيب .
- ١٠ - نفح الطيب، للمقري .
- ١١ - يتيمة الدهر، للثعالبي .
- ١٢ - الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، د. ماهر حسن فهمي .
- ١٣ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة .
- ١٤ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي، لشوقي ضيف .
- ١٥ - الاغتراب في القصيدة الجاهلية (دراسة نصية)، تأليف: محمود سليم هياجنة، دار الكتاب الثقافي، الأردن .
- ١٦ - الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، تأليف: أشرف علي دغرور .

وقد قسّمت البحث كما يلي :

المقدمة:

- الحديث عن الموضوع .
- الأسباب التي دفعتني لاختيار الموضوع .

- الصعاب التي واجهتني في أثناء البحث .
- المصادر التي أفدت منها في هذا البحث .

التمهيد : ويشمل الآتي :

- ١ - توضيح معنى الاغتراب والغربة .
- ٢ - علاقة الاغتراب بالذات المبدعة .
- ٣ - الغربة والاعتراب قبل ابن درّاج .

الفصل الأول : ألوان الغربة والاعتراب في حياة ابن درّاج وشعره -

دراسة موضوعية :

- ١ - الاغتراب النفسي في حياة ابن درّاج وشعره .
- ٢ - الغربة السياسية .
- ٣ - الغربة المكانية .
- ٤ - الغربة الاجتماعية، وتشمل الآتي :
- أ - غربة الناس .
- ب - الغربة عند الأسرة والأقرباء .
- ج - غربة الأصدقاء .

الفصل الثاني : ألوان الغربة والاعتراب في حياة ابن درّاج وشعره -

دراسة فنية :

- ١ - البناء الفني لشعر الغربة والاعتراب .
- ٢ - المعجم الشعري في شعر الغربة والاعتراب .
- ٣ - الصورة الشعرية .
- ٤ - الموسيقى .

الخاتمة.

- المصادر والمراجع .
- قائمة المحتويات .

a

أولاً – توضيح معنى الغربة والاعتراب .

ثانياً – علاقة الاعتراب بالذات المبدعة .

ثالثاً – الاعتراب قبل ابن درّاج.

أولاً- توضيح معنى الغربة والاعتراب:

توضيح معنى الغربة والاعتراب :

عند تصفح بعض كتب المعاجم مادة الغربة والاعتراب المشتقة من الجذر (غرب) بمعنى البعد والنزوح عن الوطن، وهذا المعنى اللُّغوي حَصَرَ في دائرة ضيقة ذات معان محدودة، فالخليل الفراهيدي في كتابه (العين) يشير إلى هذا المفهوم بقوله^(١) :

الغربة : الاعتراب عن الوطن، وغرب فلان عنا، يغرب غرباً، أي : تنحى، وأغربته وغربته، أي : نحيته .

والغربة : النوى البعيد، يُقال : شقت بهم غربة النوى، وأغرب القوم : انتووا، وغاية مغربة أي : بعيدة الشأو، والغربة - أيضاً - التماذي، وهي اللجاجة في الشيء .

ويشير ابن فارس في (مقاييس اللغة) إلى أن الغربة هي: البُعد عن الوطن. يُقال^(٢) : غرب الدار، ومن هذا الباب : غروب الشمس، كأنه بعدها عن وجه الأرض، وشأو مغرب، أي : بعيد، ويقولون : هل من مغربة خبراً ؟ يريدون خبراً أتى من بعد .

وكذلك يشير ابن منظور صاحب (لسان العرب) بقوله^(٣) :

لفظ (العُرب) بمعنى الذهاب والتخفي عن الناس، أما العُربة والعُرب فتُرد بمعنى النوى، والبعد، ويُقال : غُرب في الأرض إذا أمعن فيها، ولفظ الاعتراب افتعال من الغرب، ورجل غريب ليس من القوم، والغريب الغامض من الكلام .

(١) كتاب العين ، للخليل الفراهيدي ، م ٤ ، ص ٤١ .

(٢) مقاييس اللغة ، لابن فارس ، م ٤ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٣) لسان العرب ، لابن منظور ، م ١٠ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

وأما لفظ (اغتراب) في قولهم : اغترب فلان؛ فهو إذا تزوج إلى غير
أقاربه، وفي الحديث : « اغتربوا ولا تضوا »، أي : لا يتزوج القراة، فيجيء
ولده ضاويًا ضعيفًا وهزيلًا .

والجوهري في (الصاح) يقول^(١) : « التغريب : النفي عن البلاد،
وأيضًا غرب بعد، وأغرب عني أي : تباعد » .

وكذلك الأزهري في (تهذيب اللغة) يقول^(٢) : « التغرب بمعنى النفي
والإبعاد عن البلد الذي وقعت فيه الجناية، ففي الحديث النبوي الذي أمر
بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن » .

ونجد عند الزبيدي في (تاج العروس)^(٣) : « التغرب الذهاب، والغرب :
النوى والبعد، وأيضًا الغرب والغربة : النزوح عن البلد » .

وفي (المعجم الوجيز) ورد معنى غُرْبَة : البعد عن وطنه، وغُرْبَ عن
وطنه غُرْبَة : ابتعد عنه فهو غريب .

غُرْبَ في الأرض : أمعن فيها، فسافر سفرًا بعيدًا، والقوم ذهبوا ناحية
المغرب، وفلانًا أبعده ونحاه .

واغتراب : نزوح عن الوطن، وتَغَرَّبَ : نزح عن الوطن^(٤) .

وهكذا نجد أن الاغتراب والغربة في المعاجم العربية استخدمت بمعنى
الغربة المكانية، وهي الابتعاد عن الوطن .

فقد أخذت الدلالة المكانية سمة بارزة في السديم المعجمي .

(١) الصاح ، للجوهري ، م ١ ، ص ٤٠٤ .

(٢) تهذيب اللغة ، للأزهري ، م ٧ ، ص ١١٢ .

(٣) تاج العروس ، للزبيدي ، م ١ ، ص ٤٠٤ .

(٤) المعجم الوجيز ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان .

و يجدر الإشارة هنا إلى أن هناك معاني أخرى نستطيع أن نطلبها من خلال تعريف معنى الغربة والاعتراب، وهي بروز معنى الغربة الاجتماعية التي تتمثل في غربة الناس، وهذا المدلول يظهر في قول ابن منظور: الغرب بمعنى الذهاب والتخفي عن الناس .

وأيضاً الغربة عن الأهل والأقرباء في قوله: اغترب فلان؛ إذا تزوج إلى غير أقاربه .

وأيضاً تتراءى دلالة أخرى وهي الاعتراب النفسي، حينما يجد الإنسان نفسه غريباً عن القوم، غريباً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويظهر ذلك فيما أشار إليه صاحب لسان العرب حينما قال: «الاعتراب افتعال من الغرب، ورجل غريب: ليس من القوم» .

وسنحاول تجلية هذه الأنواع أو المعاني عند حديثنا عن أقسام الغربة، كما وردت في شعر ابن درّاج.

وعند الانتقال إلى البحث عن معنى الغربة والاعتراب في بعض المراجع التراثية والحديثة، أن معنى الغربة والاعتراب لا يبعد عن المعنى المعجمي، فأبو الفرج الأصفهاني في كتابه (أدب الغرباء) يرى أن الغريب هو كل مشرد عن وطنه، ونازح عن داره وإخوانه، يقول: «وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ وعرفته، وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعراً في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح عن إخوانه»^(١) .

ويقول في موضوع آخر: «من شأن الغرباء في الأسفار ومن نزلت به الدار عن إخوانه وأترابه، إذا دخل موضعاً مذكوراً، ومشهداً مشهوراً أن يجعل لنفسه فيه أثراً تبركاً ذوي الغربة»^(٢) .

(١) أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصفهاني ، ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

ويقول أيضاً : « فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت
الغربة وفقد الأحبة »^(١) .

ويقول التوحيدي في كتابه (الإشارات) : « بأن الغربة غربة نأى عن
وطن » إلى أن قال : « فأين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه، وقلَّ
حظه ونصيبه وسكنه ؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان،
ولا طاقة به على الاستيطان »^(٢) ؟

وقال : « بل الغريب من هو في غربته غريب »^(٣)، ويقول : « الغريب
من نطق وصفه بالحنة بعد الحنة »^(٤) .

والدكتور ماهر فهمي في كتابه (الحنين والغربة في الشعر العربي)^(٥)
يقول : « الغربة هي النزوح عن الوطن، والابتعاد عن الأهل والديار، يعني
أن يشعر المرء بابتعاده عن مكان نشأته وفراقه لذويه الذين يرتبط معهم نفسياً
وعاطفياً واجتماعياً، ويبدو أن الإنسان منذ بدأ يضرب في الأغراض قد حمل
بين جوانحه ضروباً من الإحساس بالغربة، حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من
أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس » .

فمن خلال عرض معنى الغربة والاعتراب في السديم المعجمي وكتب
التراث العربية، يضيء بريقاً ذا دلالتين يوضح فيه أسباب الاعتراب ودواعيه.

(١) أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصبهاني ، ص ٣٢ .

(٢) الإشارات، للتوحيدي ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) الحنين والغربة في الشعر العربي ، ماهر فهمي ، ص ٧ .

أولها : أن الاغتراب والغربة التي يعيشها المرء قد يكون مجبوراً عليها
كاغتراب المنفى، أو بسبب الحروب، والفتن، أو الأسر .

ثانياً : اغتراب ليس بإجباري، وإنما من اختيار الفرد، إمّا أن يكون حبّاً
في الانتقال من بلد إلى آخر، أو بحثاً عن المال والثروة .

ومن مقتضيات البحث الوقوف على معنى الاغتراب في مفهوم علم
النفس، فالاغتراب النفسي هو أكبر اغتراب يعيشه الإنسان ؛ لأنه قد يصل إلى
درجة إحساسه بغربته عن نفسه وذاته، فيلجأ إلى تصوير غربته هذه وعذبات
نفسه في أي شيء يلحظه أمامه .

فعبد اللطيف خليفة يقول : « وينظر الباحثون إلى اغتراب الذات
باعتباره اضطراباً نفسياً يتمثل في اضطراب الشخصية العصابية، حيث يتسم
الشخص العصامي بالعجز عن إقامة علاقات اجتماعية، والافتقار إلى مشاعر
الدفء واللين أو الرقة مع الآخرين فهناك تشابه بين اغتراب الذات،
واضطراب الشخصية العصابية في أنهما يشيران إلى صعوبة استمرارية العلاقات
الاجتماعية مع الآخرين من أفراد المجتمع » (١) .

ويقول الدكتور محمود رجب : « إلا أن (الاغتراب) في سياق علم
النفس متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعر من
غربة في العالم وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين » (٢) .

الاغتراب في الدراسات النفسية يعني الاضطرابات والارتباك وعدم
قدرة الفرد على إقامة علاقات إنسانية، فيشعر المرء بعزلة نفسية، غريب عن
الآخرين . ولعل خير مثال يبين هذه الشخصية العصابية المنعزلة في العصر
العباسي ابن الرومي شاعر الغربة النفسية، كما أطلق عليه الدكتور فوزي

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، لعبد اللطيف خليفة ، ص ٨٠ .

(٢) الاغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب ، ص ٣٥ .

عطوي في كتابه (ابن الرومي، شاعر الغربة النفسية)، فقال : « من هنا أن ابن الرومي هو شاعر الغربة النفسية، وأنه أيضاً الطائر المغرد خارج سربه، غير أن غربته النفسية هذه لم تجعل صوته نشاراً، بل حملته على التجديد الفني، وعلى الخوض في مواضيع لم يكن يألّفها الشعر العربي من قبل »^(١).

وعند البحث عن مصطلح (الغربة والاعتراب) في المفهوم الإسلامي استوقفنا دلالات تشير إلى الغربة والاعتراب سواء في القرآن أو الحديث الشريف .

أولاً : القرآن الكريم :

هناك دلالات تحمل معنى الغربة والاعتراب وبذل المشقة، منها :

١ - الخروج من الدار : قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(٢).

يقول الشوكاني^(٣) : « الدار : المنزل الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ﴾ : تخرجونهم من ديارهم معهم ».

٢ - ابن السبيل : قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) ابن الرومي ، شاعر الغربة النفسية ، لفوزي عطوي ، ص ٦ .

(٢) سورة البقرة : الآيتان (٨٤ - ٨٥) .

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف/ محمد الشوكاني ، ص ١٣٩ - ١٤١ .

الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ . يقول الشوكاني : « ابن السبيل :
المسافر المنقطع » ، وقال ابن عباس : « هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين » ،
وإخراج ابن جرير ، عن مجاهد ، قال : « هو الذي يمر بك وهو مسافر » ﴿٢﴾ .

٣ - الهجرة في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ﴿٣﴾ .

٤ - النفي ، قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ
الْأَرْضِ ﴾ ﴿٤﴾ .

يقول الشوكاني ﴿٥﴾ : « أن يخرج من دار الإسلام هرباً ، وهو محكي عن
ابن عباس وأنس وغيره » ، والشافعي قال : « أنهم يُخرجون من بلد إلى بلد ،
ويُطلبون لتقام عليهم الحدود » ووردت هذه الآية في سياق تعداد الجنايات التي
يقتربها الإنسان .

وغيرها من الدلالات التي تحمل هذا المعنى (الاغتراب) مثل السير في
الأرض والضرب في الأرض والسفر .

ثانياً : الحديث النبوي الشريف :

وردت المصطلحات التالية :

١ - الغربة - الغريب ، ففي الحديث : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ

(١) سورة البقرة ، آية (١٧٧) .

(٢) فتح القدير ، للشوكاني ، ص ٦٢١ .

(٣) سورة النساء ، آية (١٠٠) .

(٤) سورة المائدة ، آية (٣٣) .

(٥) فتح القدير ، للشوكاني ، ص ٤٧ .

أو عابر سبيل»، يقول ابن حجر: «شبه الناسل السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة»^(١).

وقال النووي: «لا تتعلق منها (الدنيا) بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه»^(٢)، وفي صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: «إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»^(٣).

٢ - الهجرة: قال الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٤).

كما وردت بعض المصطلحات التي تحمل في طياتها معاني الغربة والاعتراب كالنفى وغيره، إلا أن لهذه الغربة التي وردت في المفهوم الإسلامي عدة أسباب منها الجهاد في سبيل الله، وطلب العلم الشرعي، وليس لأسباب دنيوية، ولعل خير شاهد على ذلك ما قاله مالك بن الرب التميمي، وقد خرج من أجل الجهاد، فشرع بدنو أجله في خراسان، بعيداً عن أهله وذويه، فيتذكر غربته، ويذكر سبب غربته فيقول^(٥):

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للعسقلاني، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، ج ١١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي، المجلد ١ - ٢، ص ٣٢٥.

(٤) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للعسقلاني، ص ٢٢، المجلد (٩).

(٥) كتاب الأمالي، لأبي علي القالي، ص ٦٨١ - ٦٨٢.

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَ لَيْلَةً
بِجَنْبِ الْغَضَى أَرْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا
فَلَيْتَ الْغَضَى لَمْ يَقْطَعْ الرَّكْبَ عَرْضَهُ
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرَّكَّابَ لَيَالِيَا
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الْغَضَى لَوْ دَنَا الْغَضَى
مَزَارٌ وَلَكِنَّ الْغَضَى لَيْسَ دَانِيَا
أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
دَعَانِي الْهُوَى مِنْ أَهْلِ أَوْدُو صُحْبَتِي
بِذِي الطَّبَّسِينِ فَالْتَفَتُ وَرَائِيَا

إلى أن قال :

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيًا
وَأَشْقَرَ مَحْبُوكًا يَجُرُّ عَنَانَهُ
إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا

إلى أن قال :

غَرِيبٌ بَعِيدُ الدَّارِ ثَاوٍ بِقَفْرَةٍ
يَدُ الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِأَنْ لَا تَدَانِيَا

ثانياً : علاقة الاغتراب بالذات المبدعة:

قبل الخوض في الحديث عن الاغتراب قبل عهد ابن درّاج، يجدر الإشارة إلى قضية تمسُّ الاغتراب، وهي : هل للاغتراب علاقة بالذات المبدعة؟

هذا السؤال الذي أثار الجدل بين الباحثين وأهل الاختصاص، فانقسموا إلى طائفتين، فمنهم من يرى أن الاغتراب هو الدافع إلى نبوغ بعض الشعراء، فيعبّروا عما يجول في أنفسهم بكل صدق وانفعال، ومنهم من يرى أن الاغتراب يقف حاجزاً قوياً مانعاً للإبداع، وسنستعرض أقوالهم، وسنحاول الاستنارة بانعكاس معطيات هذا التأثير (الاغتراب) في الذات المبدعة، مستشهدين بنماذج شعرية من العصر الجاهلي والعباسي .

وقد استشهدنا لنماذج شعرية من العصرين السابقين باعتبار الأول رمز الأصالة والجودة، والثاني كان فترة انتعاش الشعر وتجديده .

بداية سنعرض آراء العلماء والباحثين وذوي الاختصاص في هذا الموضوع، وهذه الدراسات جمعها الدكتور عبد اللطيف محمد خليفة في كتابه (دراسات في سيكولوجية الاغتراب).

أولاً : الرأي القائل بأن الاغتراب حائل مانع للإبداع « فهذا أندرسون يرى بأن الاغتراب حجر عثرة أمام إبداع الفرد ومعرفته لذاته، فالشخص المغترب لا ينقطع فقط عن الآخرين، ولكن - أيضاً - عن ذاته وفقدانه لهويته الذاتية والاجتماعية، وهي مقومات أساسية تقوم عليها إبداعية الفرد وخياله، وتشكل السياق النفسي الذي يتحرك الفرد في إطاره، وتساعد على الإنجاز والتقدم »، وهذا (ويت) يقول : « إن الأفراد تحكمهم قواعد وضوابط لا ينبغي تجاوزها، وهذه القواعد والضوابط تجعل الفرد يشعر بالاغتراب، وهذا الشعور يقلل من إبداعه »^(١).

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، تأليف : محمود هياجنة ، ص ٣٢ .

«أما (ستيرن) فإنه يرى أن الحرية هي المحرك الأول لإبداع الشاعر،
فالقوانين والأنظمة تحول دون إبداعه، وتخلق لديه نوعاً من العزلة»^(١).

و أن رأي (ستيرن) مطابق وموافق لرأي (ويت)، فكلاهما يتحدثان عن
القوانين التي يعتبرانها المثبط الأول للعملية الإبداعية .

« وأشار (سارنوف و كول) إلى تأثير التقدم الصناعي والتكنولوجي
على الجوانب العقلية والنفسية للفرد حيث - غالباً - ما يصنع الأفراد منتجات
هذا التقدم ووسائله كجزء من ذواتهم ومشكلاتهم الحياتية؛ ولذلك فإن تنمية
الإبداع يجب أن تأخذ في الحسبان كلاً من النمو الشخصي والروحي والتكامل
بينهما»^(٢).

« أما (كوان) فيرى أن الطلاب المتفوقين والموهوبين هم الطلاب الذين
لم يغتربوا ولم يتركوا مواطنهم، على العكس من ذلك فإن الطلاب المغتربين
أقل موهبة»^(٣).

ويتفق رأي محمد إبراهيم عيد مع ما توصل إليه (كوان) فيقول : « إن
الأفراد ذوي المستويات المنخفضة من القدرة على الإنتاج الابتكاري هم أشد
المجموعات إحساساً بالاغتراب، وتبين أن الابتكارية ترتبط بقدرة الفرد على
قهر مشاعر الاغتراب وعودته إلى نفسه وواقعه، حيث يرفض المبتكر الواقع
أحياناً، ويتمرد عليه باسم الواقع الجديد الذي يسعى إلى بلوغه، وهذا ما
كشف عنه (محيي الدين حسين) من وقوف الإصلاح كقيمة أساسية في
المبدعين من منطلق إحساسهم بوطأة المشكلات التي يزرعها العالم، وضرورة
أن يتحمل كل فرد مسؤولياته في خلق صورة أفضل لهذا العالم»^(٤).

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، تأليف : محمود هياجنة ، ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

أما أصحاب الفكر الآخر، وهم الذين يرون أن الاغتراب هو المحفز نحو الإبداع والابتكار، «فها هو (ولبرج) الذي يرى أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، إلا أننا لا ينبغي أن نجعل الاغتراب عنصراً أساساً للعملية الإبداعية. ويؤيد هذا القول ما توصل إليه (بورناهم) الذي شعر في فترة من الفترات بالألم والضيق، وبالتالي شعر بالاغتراب النفسي، فاستطاع الاستفادة من هذه الحالة، فاتجه إلى الكتابة، فانعكست هذه التجربة على نتاجه الأدبي»^(١).

«ودرس (موهان) و(توانا) العلاقة بين سمات الشخصية والاغتراب لدى عينة مكونة من (١٠٠) كاتب هندي تتراوح أعمارهم بين ٢٣-٨٢ سنة من كتاب الرواية والقصة القصيرة، وتوصلا إلى أن هؤلاء المبدعين قد حصلوا على درجات عالية في الاغتراب مقارنة بالجمهور العام، وأن العديد من المبدعين يظهرون العديد من سمات الشخصية المغترية»^(٢).

«ويحدد (مصطفى سويف) العملية الإبداعية في شعور المبدع بالاحتلال بين الـ (أنا) والآخرين، إذ يفقد الفرد إحساسه بالتوافق والتكامل مع الـ (نحن)، مما يدفعه إلى حالة من التوتر العام، يحاول التغلب عليها من خلال استعادة الـ (نحن) المفقودة، وذلك من خلال جذب الآخرين إلى عالمه، لا لأن ينتظم في عالمهم، ولكن كمحاولة هادفة يتحقق من خلالها التكامل بين المبدع والآخرين في إطار جديد، وافترض (سويف) أن الصراع تتعرض له الشخصية بين أهدافها الخاصة، والهدف المشترك للجماعة يمكن أن يكون منشأ العبقرية»^(٣).

«وذهب أحمد النكلاوي إلى أن الاغتراب لازم الإنسان منذ القدم»^(٤).

و نرى أن القول الثاني هو الأرجح والأصح، وسنحاول معالجة هذه

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

القضية بذكر بعض الشواهد الشعرية لشعراء فُحُولٍ اغتربوا وعانوا من الغربة، فالإنسان منذ قديم الزمان ينتقل من مكان إلى آخر باحثاً عن موارد الحياة، ولهذا نجد أن الشاعر قد وصف اغتربه في قصيدته، وهذا ما نجده في المقدمات الطللية، ففي أثناء انتقاله المستمر لا بد له أن يقف على ديار الأحبة، فيتذكر تلك الرسوم والديار فيقف باكياً عليها .

فالشعراء في العصر الجاهلي الذين عاشوا حياة الغربة والاعتراب صوروا ذلك في أشعارهم، من بينهم امرؤ القيس، وعنترة بن شداد، وعروة بن الورد، والشنفري، والنابغة الذبياني، وغيرهم من الشعراء الجاهليين الذين ظهوروا في تلك الفترة .

و حينما نشير إلى هذا القول لا نريد أن نجعل الاعتراب الوسيلة الوحيدة لنبوغ الشاعر، ولكننا نقول أن الشاعر الجيد هو الذي يستطيع أن يستفيد من تجارب اغتربه، فيكون هذا الاعتراب بمثابة الجمرة التي تزيد شعره قوةً . وسنقف قليلاً عند قصيدة لعنترة يقول فيها :

طَالَ الشَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ
بَيْنَ اللَّكِيكِ وَبَيْنِ ذَاتِ الْحَرَمَلِ
فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّراً
أَسْأَلُ الدِّيَّارَ كَفَعَلَ مَنْ لَمْ يُذْهِلِ
لَعِبَتْ بِهَا الْأَنْوَاءُ بَعْدَ أَنْيْسِهَا
وَالرَّامِسَاتُ وَكُلُّ جَوْنٍ مُسْبِلِ
أَفَمِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ فِي أَيْكَةٍ
ذَرَفَتْ دُمُوعُكَ فَوْقَ ظَهْرِ الْمَحْمَلِ^(١)

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د/ محمد عنابي ، ص ١٥٨ .

فهذه الغربة التي يعيشها الشاعر، وهذا الحنين الذي يصف فيه عنترة الديار والمنازل ويحدد مواقعها، ويقول أنه وقف وقفه المتجرد في معرفتها الغريب عنها، فيسأل عنها وعن مكافئها، ثم ما تلبث دموعه بالانهمار والسيلان، إنها ثورة الإحساس بالاغتراب، وهذه الدموع التي انفجرت منه أثارتها بكاء حمامة من أكلة .

فبعنترة الفارس البطل الذي قاد معارك عدة تندفع دموعه وتنفجر فيه العاطفة، إنها عاطفة الحنين التي أثارها الاغتراب، فذلك المكان الذي عهده وعرفه عاد الآن وكأنه غريب عنه .

فهل وقف الاغتراب حاجزاً مانعاً في إبداع هذا الشاعر الفحل ؟

وامرؤ القيس يترك أبياتاً كثيرة تعالج قضية اغترابه، إذا علمنا أنه ترك قومه الذين غصبوه ملك أبيه، ولكن الشاعر حين ابتعد عنهم شعر بالاغتراب والحنين إلى دياره، فيتمنى أن يموت بين أيديهم. ومما يتصل بموضوعنا قصيدته المشهورة الذائعة الصيت (ألا أبلغ بني حجر بن عمرو) تلك القصيدة التي ينبثق منها صدق الشعور والعاطفة، التي تصور نزوح الشاعر عن أهله ووطنه، فيموت بعيداً عنهم، يقول (١) :

وَلَكِنِّي هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ

بَعِيدٍ مِنْ دِيَارِكُمْ بَعِيدًا

(بعيد من دياركم بعيداً) نلاحظ في هذا البيت شدة الحسرة والندم، تلك الحسرة، وذلك الندم الذي ينبعث من أعماق قلب يكابد ألم الاغتراب والفراق، فهذا التكرار الذي وقع فيه الشاعر، فكأنه يريد أن يلفت الانتباه إلى ما يملأ قلبه من ألم وعذاب، وأي ألم ذلك ؟ إنه ألم البعد عن الأهل والوطن، وألم الاغتراب في لحظة الاحتضار، ولذلك قال :

(١) ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح : مصطفى الشافعي ، ص ٢١٣ .

بأَرْضِ الرُّومِ لَا نَسَبٌ قَرِيبٌ

وَلَا شَافٍ فَيَسْنَدُ أَوْ يَعُودَا

لا نسب ولا قريب ولا وطن، هذه هي نهاية حياة الشاعر، نهاية هذه الحياة التي قضاها في غربة دائمة، وفي حنين دائم، وفي شوق دائم ودموع غالبة، هذه الدموع التي تذرف من هذه الأبيات، فتصور حال الشاعر وهو يئن في لحظة الاحتضار بلا نسب ولا قريب .

هكذا نرى قوة هذه الأبيات التي قالها امرؤ القيس في غربته واغترابه والتي تفيض بكل العواطف الإنسانية، وتعكس تجربة صادقة عاشها الشاعر، وتجزع كل ما فيها من معاناة، فكان هذا الاغتراب بمثابة المادة الخام التي استطاع الشاعر أن يشكلها ويستخرج منها أشكالاً ونماذج جديدة تصور آهاته وأناته.

والسؤال يتكرر، فهل وقف الاغتراب حاجزاً لنبوغ هذا الشاعر، وأي شاعر ؟ إنه امرؤ القيس ؟

والأمر يتكرر عند المتنبي الذي ألف حياة الاغتراب، يقول^(١) :

أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُمَا أَعْهَدُ

هُوَ تَوَأْمِي لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا يُولَدُ

مَنْ خَصَّ بِالذَّمِّ الْفِرَاقَ فَإِنِّي

مَنْ لَا يَرَى فِي الدَّهْرِ شَيْئًا يُحْمَدُ

(١) ديوان المتنبي ، ص ٢٠ .

ويقول أيضاً^(١) :

يَشْتَاقُ كُلُّ غَرِيبٍ عِنْدَ غُرْبَتِهِ
وَيَذْكُرُ الْأَهْلَ وَالْجِيرَانَ وَالْوَطَنَ

فلان المتنبي شاعر فحلُّ فأن الغربة لم تقف حاجزاً مانعاً لإبداعه وتفننه
في شعره .

وهذا أبو تمام ، الشاعر العباسي الشهير، على الرغم من اتصاله بالخلفاء
والوزراء، فقد كان كثير الترحال والاعتراب، ففرقته الغربة وأبعدته عن أهله
وإخوانه، يقول^(٢) :

مَا الْيَوْمُ أَوَّلُ تَوْدِيعِي وَلَا الثَّانِي
الْبَيْنُ أَكْثَرُ مِنْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي
دَعِ الْفِرَاقَ فَإِنَّ الدَّهْرَ سَاعِدُهُ
فَصَارَ أَمْلَكَ مِنْ رُوحِي بِجُثْمَانِي
خَلِيفَةُ الْخِضْرِ مَنْ يَرْبَعُ عَلَى وَطَنِ
فِي بَلَدَةٍ فَظُهُورُ الْعِيسِ أَوْطَانِي
بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَعْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ
حَتَّى تَشَافَهُ بِي أَقْصَى خُرَاسَانَ

ليس هذا أول توديع له، ولا الثاني، وإنما ارتحاله وبعده شيء عظيم،
شيء أكبر وأكثر من شوقه وحزنه، وهذا الحزن وهذا الفراق لم يكن يرتضيه

(١) ديوان المتنبي ، ص ٤٦٨ .

(٢) ديوان أبي تمام ، تحقيق : محيي الدين الخياط ، ص ٣٢٣ .

لنفسه، ولكن الظروف والدهر كانوا أقوى منه، حتى عادت ظهور العيس
وطنه الوحيد. هكذا كان شعر الاغتراب الذي يجسد فيه الشاعر غربته،
فيتقلب بين الحزن والألم، ذلك الألم الذي يتفجر من نفس جريحة تئن من هم
الهجرة والتشرد، وتتشوق إلى العودة والاستقرار.

ويمكن القول هنا بعد أن استشهدنا بأشعار بعض المبدعين الذين أبدعوا
في قصائدهم على الرغم من اغترابهم أن الاغتراب لم يقف حاجزاً مانعاً
للإبداع كما ذهب بعض الباحثين، وإنما كان الاغتراب عندهم بمثابة الوقود
الذي يثير الحركة الوجدانية، والقوة العاطفية فيهم، فيثير بذلك القوى الهاجعة
في نفسية الشاعر، فيظهر لنا جوهره المكنون في صور من الإبداع الفني. كما
أشار إلى ذلك الدكتور/ محمود هياجنة^(١).

ولذلك نرى أن أكثر المبدعين عمقاً وأصاله كالمثني وغيره، هم الذين
أوغلوا في الاغتراب، فكانت الغربة بالنسبة لهم كالبراكين العنيفة في حياتهم.

تلك الغربة التي تثير العواطف في الشاعر، فتتعمق تلك التجربة في ظل
الصراع النفسي والإحساس بالاغتراب، ثم تتجلى تلك الصورة في نتاجه
الشعري الذي يزداد قوة ووضاءة في ظل اغترابه، فيتعرف الشاعر على مكان
القوة والضعف، فيلجأ إلى فرز تلك المعاني التي تزيد مع الاغتراب قوةً ولهيئاً
وبريقاً. وأخيراً: فإن الاغتراب بهذا المفهوم كان حافزاً ودافعاً لهؤلاء الشعراء
المبدعين نحو الإبداع، فلم يكن الاغتراب في يوم من الأيام مانعاً للإبداع، وإلا
لما كان امرؤ القيس، ولا المثني، وغيرهم من الشعراء الذين لم نستعرض
شواهد لشعرهم، شعراء مبدعين استطاعوا أن يتركوا دواوين ضخمة تذر
بقصائد متنوعة صاغوها بأساليب مختلفة ومعاني مختلفة.

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية - دراسة نصية، د. محمود هياجنة، ص ٣٤.

ثالثاً - الغربة قبل ابن درّاج:

عند حديثنا عن الغربة قبل ابن درّاج سنركز في تجلية هذه الغربة على ثلاثة عصور وهي : العصر الجاهلي، وسنحاول إبراز هذه الغربة عند عنترة العبسي، والنابعة الذبياني، ثم يتلوّه العصر الأموي، وسنقف قليلاً عند جميل معمر . وفي العصر العباسي اخترنا لمعالجة هذه القضية الشاعر الأسير أبي فراس الحمداني، والشريف الرضي، وعند شعراء مجهولين ذكرهم صاحب الأمالي في كتابه، وقد قصرنا الحديث على هؤلاء الشعراء لضيق المقام هنا، كما أننا أردنا أن نوضح كيف أن هذه الغربة قد تأثر بها الشعراء قبل ابن درّاج، فاختلقت بذلك المعاني وتلونت الأساليب إلا أن المعاناة واحدة، والجرح واحد، فكلاً من الشعراء السابق ذكرهم ممن لم نتطرق للحديث عنهم قد وقعوا في طريق الاغتراب، فهم بمثابة الريشة التي تقع في مهب الريح، فتتحرك في كل الاتجاهات هنا وهناك، إذا هم شعروا بالغربة وأحسوا بها، فتحولت الحياة عندهم إلى اغتراب دائم ورحيل مستمر . فحينما نريد أن نلقي الضوء على الاغتراب والغربة عند بعض الشعراء في العصر الجاهلي تتراءى أمامنا هذه الغربة عند عنترة العبسي، الذي تتمثل الغربة عنده في عدم التجاوب والتكيف الاجتماعي، فنطق بهذه الغربة، فهو قد عاش بين أهله وأقاربه، ولكنه لم يجد منهم إلا الازدراء بغير جريرة له، ولا ذنب، فدائماً يذكر أقاربه الذين لم يعرفوا قدره بالرغم مما قدمه لهم من بطولات وانتصارات، فوصف الغربة والاغتراب في شعر غزير رقيق مؤثر بصدق عاطفته وجماله الغني الذي يترك بصمات واضحة في النفس، وكيف لا وهو يعاني غربة الأهل والأقرباء؟! يقول^(١) :

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د. محمد عناني ، ص ١٠٢ .

إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ مِنْ رَبِّي الْعَلَمَ
طَفَا بَرْدُهَا حَرَّ الصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ
وَذَكَرَنِي قَوْمًا حَفَظْتُ عُهُودَهُمْ
فَمَا عَرَفُوا قَدْرِي وَلَا حَفِظُوا عَهْدِي
وتفويض دموعه، وتسيل على خده كلما تذكر جور قومه وظلمهم له،
فيقول :

إِذَا فَاضَ دَمْعِي وَاسْتَهَلَ عَلَى خَدِّي
وَجَاذَبَنِي شَوْقِي إِلَى الْعَلَمِ السَّعْدِي
أَذْكُرُ قَوْمِي ظَلَمَهُمْ لِي وَبَغِيَهُمْ
وَقَلَّةَ إِنْصَافِي عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
بَنَيْتُ لَهُمْ بِالسَّيْفِ مَجْدًا مُشِيدًا
فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُمْ هَدَمُوا مَجْدِي

ويشعر الشاعر بالألم والحرقه كلما تذكر أن أقاربه لا يكونون له أدنى
محبة أو مودة، وكل من كان يعتقد أنهم أصدقاء له سقطت أفئنتهم وظهروا
على حقيقتهم، تلك الحقيقة المرة حينما يشعر المرء بأن له صديقاً يواسيه في
أحزانه، ويشاركه أفراحه وأتراحه، ثم ما يلبث أن تنكشف له الأمور، فهو
ليس بصديق إنما حاقد، إذا الشاعر هنا يعاني - أيضاً - غربة الأصدقاء،
يقول (١) :

وَكُلُّ قَرِيبٍ لِي بَعِيدٌ مَوْدَّةٍ
وَكُلُّ صَدِيقٍ بَيْنَ أَضْلَعِهِ حَقْدٌ

(١) ديوان عنتره بن شداد، تحرير: د. محمد عناني، ص ٩٠.

وفي هذه المقطوعة الشعرية التي تفيض رقة وحنينًا يقف الشاعر وحيداً في هذه البلاد النائية يعاني الألم والغربة، فيلفت نظره طائر قد أَلَمَّ به ما وقع للشاعر فكلاهما يشعران بالوحدة والوحشة، فالشاعر يعاني غربة نفسية فيقول (١) :

وَلَقَدْ نَاحَ فِي الْغُصُونِ حَمَامٌ
فَشَجَانِي حَيْنُهُ وَالنَّحِيبُ
بَاتَ يَشْكُو فِرَاقَ إِلْفٍ بَعِيدٍ
وَيُنَادِي أَنَا الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ

ويصل الشاعر بدوره هنا إلى ذروة إبداعه حقاً في التصوير والتعبير عن غربته حينما يتحدث إلى غراب البين فيعاتبه، ويعقد مقارنة بين حاله، وحال الغراب فتتهادى، وتتسابق الكلمات على لسان الشاعر، حاملة هذه المعاني الرائعة، يقول (٢) : الوافر

أَمِنْ طَلَلِ بَوَادِي الرَّمْلِ بَالِي
مَحَتْ أَثَارَهُ رِيحُ الشَّمَالِ
وَقَفْتُ بِهِ وَدَمَعِي مِنْ جُفُونِي
يَفِضُ عَلَى مَغَانِيهِ الْخَوَالِي
أَسْأَلُ عَنْ فَتَاةٍ بَنِي فَرَادٍ
وَعَنْ أَثَرِهَا ذَاتِ الْجَمَالِ
وَكَيْفَ يُجِيبُنِي رَسْمٌ مُحِيلُ
بُعِيدٌ لَا يَرُدُّ عَلَى سُؤَالِي

(١) ديوان عنتره بن شداد ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

وفي الأبيات التالية يعيش عنثرة غربة سياسية، فنراه ينتقل من بلده إلى
مُلك كسرى أنوشروان، ويمدحه، فيصفه بأنه قبلة القصاد والمغتربين، ومفرج
هموم المهمومين، وأنه وجد عنده من الإحسان ما لم يجده في ديار عبس،
يقول (١) :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي رَاحَتْهُ
قَامَتْ مَقَامَ الْغَيْثِ فِي أَرْمَانِهِ
يَا قِبْلَةَ الْقَصَادِ يَا تَاجَ الْعُلَا
يَا بَذَرَ هَذَا الْعَصْرِ فِي كَيَوَانِهِ
يَا مُخْجَلًا نَوَى السَّمَاءِ بِجُودِهِ
يَا مُنْقَذَ الْمَحْزُونِ مِنْ أَحْزَانِهِ
يَا سَاكِنِينَ دِيَارَ عَبْسٍ إِنَّنِي
لَأَقِيْتُ مِنْ كِسْرَى وَمِنْ إِحْسَانِهِ
مَا لَيْسَ يُوصَفُ أَوْ يُقَدَّرُ أَوْ يَفِي
أَوْصَافُهُ أَحَدٌ بِوَصْفِ لِسَانِهِ

والسؤال الذي قد يرد على ذهن القارئ : هل استطاع هذا الشاعر
المغترب نسيان غربته ودياره ومحبوبته بعد أن غادره ووجد وطنًا وملكا آخر ؟
الإجابة بالطبع لا، وإنما كان حديثه ذلك محاولة ينشد من ورائها
السلوان فقط مادام الدهر قد حكم عليه بهذا الفراق والاعتراب .

(١) ديوان عنثرة بن شداد ، تحرير : د/ محمد عناني ، ص ٢٢٣ .

وعندما نستعرض الغربة والاعتراب عند شاعر جاهلي آخر، تتسابق الحروف مع مداد القلم لتسطر عنواناً لشاعر كبير، ولشخصية متميزة، أجادت في الشعر وكيف لا، وهو شاعر فحل قد نبغ في شعره، وتفوق فيه، إنه النابغة الذبياني .

يقول (١) :

أزف التَّرحُلُ، غير أن رِكابنا
لَمَّا تَزَلْ بِرِحالنا، وكان قد
زَعَمَ الغُدا فُ بأن رحلتنا غدا
وبذاك خَبَرنا الغرابُ الأسودِ
لا مَرَحَباً بغدٍ، ولا أهلاً به
إن كان تفريقُ الأحبةِ في غدٍ
حَانَ الرَّحِيلُ، ولم تُودَّعْ مَهْدَدًا
والصبحُ والإمساءُ منها مَوْعِدِي

فالنابغة لا يحبذ الاعتراب والرحيل، فلا مرحباً ولا أهلاً به . فلماذا هذا البغض؟

لأنه يعلم علماً يقيناً ما في الاعتراب والرحيل من تفريق بين الأحبة، فيتولد بذلك الحزن والأسى . ومما يؤكد بغضه للغربة قوله يعيّر بني عبس اغترابهم في بني عامر، حينما قال (٢) :

(١) ديوان النابغة الذبياني ، جمعة وشرحه : محمد عاشور ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧ .

جَزَى اللَّهُ عَبَسًا آلَ بَغِيضٍ

جَزَاءَ الْكَلَابِ الْعَاوِيَاتِ، وَقَدْ فَعَلَ

فَأَصَابَحْتُمْ وَاللَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكُمْ

يُعَزِّزُكُمْ مَوْلَى مَوَالِكُمْ حَجَلُ

ونأتي إلى العصر الأموي لنرى الاغتراب ما يزال مؤثراً فعلاً على حياة بعض الشعراء وعلى نتاجهم الشعري، ولنقف قليلاً عند جميل معمر الذي يعاني الغربة والاغتراب بعد أن رحلت عنه بثينة حينما قام والدها بتزويجها من رجل آخر، ورحلت معه يقول (١) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً

بِوَادِي الْقَرْيِ إِنِّي إِذْنُ لَسَعِيدُ

وَهَلْ أَلْقَيْنَ سُعْدَى مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً

وَمَا رَثَ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ

وَقَدْ تَلْتَقِي الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسِهِ

وَقَدْ تُطْلَبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ

ويرى أنه غريب ووحيد، والناس من حوله ما هم إلا أعداء له، يقول (٢) :

غَرِيبٌ إِذَا مَا جِئْتُ طَالِبَ حَاجَةٍ

وَحَوْلِي أَعْدَاءٌ وَأَنْتَ مُشْهَرٌ

(١) ديوان جميل بثينة ، دار الكتاب العربي ، جمعه : إميل يعقوب ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩ .

وحينما هرب إلى اليمن بعد أن أهدر السلطان دمه فأقام بها، فشعر
بالغربة والحنين إلى بثينة، يقول^(١) :

أَلَمْ خَيَالٌ مِنْ بُثَيْنَةَ طَارِقُ
عَلَى النَّأْيِ مُشْتَاقٌ إِلَيَّ وَشَائِقُ
سَرَتْ مِنْ تِلَاعِ الْحِجْرِ حَتَّى تَخَلَّصَتْ
إِلَيَّ وَدُنَى الْأَشْعَرُونَ وَغَافِقُ

ونقف قليلاً عند بعض الشعراء العباسيين الذين عانوا هذه الغربة،
فتركوا شعراً خالداً في هذا المجال يكشف عن مدى تغلغل الحزن في أعماقهم،
فهذا أبو فراس الحمداني الذي وقع أسيراً في أيدي الروم، فمأطله سيف الدولة
بالفداء مما أثار وجد الشاعر، واشتد حنينه إلى أهله وأصدقائه، فعانى من الغربة
والاغتراب ما عاناه، يقول في غربته عن أهله وذويه^(٢) :

أَرَانِي وَقَوْمِي فَرَّقْتَنَا مَزَاهِبُ
وَإِنْ جَمَعْتَنَا فِي الْأَصُولِ الْمُنَاسِبُ
فَأَقْصَاهُمْ مِنْ مَسَاءِ أَتِي
وَأَقْرَبُهُمْ مِمَّا كَرِهْتُ الْأَقَارِبُ
غَرِيبٌ وَأَهْلِي حَيْثُ مَا كَرَّ نَاطِرِي
وَحِيدٌ وَحَوْلِي مِنْ رِجَالِي عَصَائِبُ

(١) ديوان جميل بثينة ، دار الكتاب العربي ، جمعه : إميل يعقوب ، ص ٢٧٧ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ، دار الكتاب العربي ، شرح: خليل الدويهي ، ص ٤٤ .

ويصف أسرّه ويذكر أهله ويتشوق إلى أحبائه، يقول (١) :

لَا يَكُـمُ أَذْكَـرُ
وَفِي أَيَّكُـمُ أَفْكَـرُ
وَكُـمُ لِي عَلَـى بَلَدَتِي
بُكَاءٌ وَمُسْتَعْبَرُ
فَفِي (حَلَب) عُـدَّتِي
وَعـزِّي، وَالْمَفْخَرُ
وَفِي مَنْبَجِ مَنْ رَضَا
هُ، أَنْفَسُ مَا أَدْخَرُ

وقد عانى - أيضاً - غربة الأصدقاء، فلم يجد صديقاً وفيّاً في كربته
هذه، يقول (٢) :

وَلَمَّا تَخَيَّرْتُ الْأَخِلَاءَ لَمْ أَجِدْ
صَبُورًا عَلَى حِفْظِ الْمَوَدَّةِ وَالْعَهْدِ
سَلِيمًا عَلَى طَيِّ الزَّمَانِ وَنَشْرِهِ
أَمِينًا عَلَى التَّجَوُّى صَاحِبًا عَلَى الْبُعْدِ
وَلَمَّا أَسَاءَ الظَّنَّ بِي مَنْ جَعَلْتُهُ
وَأَيَّايَ مِثْلَ الْكَفِّ نِيطَ إِلَى الزَّئِدِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

حَمَلْتُ إِلَى ضَنِّي بِهِ سُوءَ ظَنِّهِ
وَأَيَقَنْتُ أَنِّي بِالْوَفَا أَمَّةٌ وَحَدِي

وها هو الشريف الرضي يفقد اتزانه ويقع فريسة للاغتراب فهو مغترب
كبير إذا نزل بأرض، فهو ضيف^(١) :

وَرَمَى بِشَخْصِي حَرًّا كُلَّ مَفَاةٍ
لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا مَطِيَّ جَبَانٍ
مُتَغَرِّبًا لَا أَسْتَجِيرُ بِمَنْزِلٍ
فَإِذَا نَزَلْتُ، فَعَقَلَةَ الضَّيْفَانِ
سِيفِي رَفِيقِي فِي الْبِلَادِ، وَهَمَّتِي
مَتَعَلِّلِي، وَجَوَانِحِي خِلَانِي

وكتب إلى إسحق إبراهيم، يصف فيه غربته وشدة حنينه إلى الوطن،
يقول^(٢) : البسيط

فَالْمَرْءُ يَسْرَحُ فِي الْآفَاقِ مُضْطَرَّبًا
وَنَفْسُهُ أَبَدًا تَهْفُو إِلَى الْوَطَنِ
وَالْبُعْدُ عَنْكَ بَلَانِي بِاسْتِكَانِهِمْ
إِنَّ الْغَرِيبَ لَمُضْطَرٌّ إِلَى السَّكَنِ

(١) ديوان الشريف الرضي ، دار صادر ، بيروت ، ص ٥١٦ ، م ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٥ .

ويتحدث الشاعر عن غدر الأصدقاء وقلة وفائهم، فيقول^(١) :

يا دارُ قَلِّ الصَّدِيقُ فيكَ، فَمَا
أَحْسُّ وَدًّا وَلَا أَرَى سَكَنًا
ويرجع سبب عدم وفاء الأصدقاء للدهر، يقول^(٢) :

أَلَا قَطَعَ النَّاسُ حَبْلَ الْوَفَاءِ
وَأَوَّلَعَ بِالْغَدْرِ خِلَانِيَهُ
وَصِرْتُ أَعْدَدُّ فِي ذَا الزَّمَانِ
صَدِيقِي أَوَّلَ أَعْدَائِيهِ
أَضَرُّ الْأَنْثَامِ لِي الْأَقْرَبُونَ
وَأَعْدَى الْوَرَى لِي جِيرَانِيَهُ

ولذلك يقول عزيز السيد جاسم عنه : « انعدام وفاء الأصدقاء كان ينقله فوراً إلى مخاطبة الدهر الخائن ؛ لأن الصداقة حلّت في قلبه وعقله محلاً لا أعلى منه ولا أرقى، فإن قلّ الصديق وكان الدهر مسؤولاً عن ذلك »^(٣) .

وهذا أعرابي يغترب عن وطنه ويشتاق له حينما سمع غناء حمائم بيستان إبراهيم المهدي، يقول^(٤) : الوافر

وَمِنْ بَسْتَانِ إِبْرَاهِيمَ غَنَّتْ
حَمَائِمُ بَيْنَهَا فَنَنْ رَطِيبُ
فَقُلْتُ لَهَا وَقِيتِ سِهَامَ رَامِ
وَرُقُطِ الرِّيشِ مَطْمَعُهَا الْجُنُوبُ

(١) ديوان الشريف الرضي ، ص ٥٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨٣ .

(٣) الاغتراب في شعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص ١٠٤ .

(٤) كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ، تحقيق : صلاح هلال وسيد الجليري ، ص ٦٣ ، ف ١٤٩ .

كَمَا هَيَّجَتْ ذَا حَزَنٍ غَرِيبًا
عَلَى أَشْجَانِهِ فَبَكَى الْغَرِيبُ
وأعرابي آخر يبين حقيقة الغريب، فيقول (١) :

فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى
وَلَكِنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبٌ

وأخيرًا : هؤلاء المغتربون الذين عانوا في غربتهم ألوانًا كثيرة من المشاق
والألم استطاعوا أن يرسموا لنا لوحات تعبر عن هذه المعاناة .

(١) كتاب الأمالي ، ص ١٨٢ ، ف ٥٣٤ .

الفصل الأول

ألوان الغربة والاعتراب في حياة ابن درّاج وشعره

- دراسة موضوعية -

أولاً - الاعتراب النفسي في حياة ابن درّاج وشعره .

ثانياً - الغربة السياسية .

ثالثاً - الغربة المكانية .

رابعاً - الغربة الاجتماعية .

أولاً - الاغتراب النفسي في حياة ابن دراج وشعره

رُبَّ متسائل يطرح على نفسه سؤالاً : هل نستطيع تخصيص نوع من الاغتراب فنطلق عليه اغتراباً نفسياً ؟

والحقيقة أن العلماء وجدوا صعوبة في ذلك لتداخل الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذا المفهوم، وهذا ما أشار إليه عبد اللطيف خليفة، حينما قال : « إلا أنه من الصعب تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي، وذلك لتداخل الجانب النفسي للاغتراب، وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى: الثقافي والاقتصادي والسياسي »^(١).

ومن هذا المنطلق نشير إلى أن الاغتراب النفسي، والذي نحن بصدد الحديث عنه إنما هو عبارة عن انفعالات الشاعر، هذه الانفعالات التي تثير وجدده فتجعله يغوص في عالم الذكريات علّه يخفف من وجدده وقلقه وشوقه، فيتذكر ديار الأحبة فيقف عليها باكياً .

وهذا ما نجده في المقدمات الطليّة التي تفيض بالانفعالات النفسية والعاطفية . فذكر ديار الأحبة شيء أوجبه الحياة القاسية، فسار الشعراء على هذا المنوال، إلا إن هذا الإحساس العميق يحمل بين طياته اغتراباً نفسياً يكابده الشاعر ؛ لأن من يعاني هذا الاغتراب (النفسي) يعجز عن إقامة علاقات مع الآخرين، مما يجعله يشعر بالعزلة والتفرد والقلق، يقول الدكتور محمود رجب : « إلا أن (الاغتراب) في سياق علم النفس متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية وما يستشعر من غربة في العالم، وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين »^(٢).

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، عبد اللطيف خليفة ، ص ٨٠ .

(٢) الاغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب ، ص ٣٥ .

فشعراء الغربة النفسية عانوا القلق، فانعزلوا عن الناس، فكانت عزلتهم تلك هروباً من واقع أليم لا يستطيعون التكيف معه، فيلجأون إلى الماضي والذكريات، والوقوف على الأطلال، والحديث عن أشواقهم وحنينهم وقلقهم الذي ينتابهم في رحيلهم الدائم، فوصفوا أسفارهم، وما يواجهون من صعاب ومتاعب، وفي هذه الأثناء قد يسترعى انتباه الشاعر طائراً مغرداً أو أي شيء من مظاهر الطبيعة فيصفه وصفاً نفسياً مجسداً فيه ألمه وإحساسه بالغربة، مدعياً أن ذلك الطائر قد أصابه ما أصاب الشاعر، فيبحر في عالم الذكريات والأحلام فيتذكر موطنه .

وهذا الاغتراب النفسي نجده عند عبد الرحمن الداخل في الحديث عن نخلة رآها بالرصافة فيعقد بينه وبينها مشاركة نفسية في الاغتراب والبعد يقول (١) :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ
تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ وَطَنِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغْرُبِ وَالنَّوَى
وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتِ فِيهَا غَرِيْبَةٌ
فَمِثْلِكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي
سَقَتِكَ غَوَادِي الْمَزْنِ فِي الْمُنْتَأَى
يَصِحُّ وَيَسْتَمْرِي السَّمَائِينَ بِالْوَبْلِ

(١) نفح الطيب ، للمقري ، ج ٢ ، ص ٧١٦ .

ويقول المتنبي (١) :

مَا لَاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَّمَ طَائِرٌ
إِلَّا انْشَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَقِيقٌ

المتنبي يشواق إلى أحبته، والذي هيح ذلك الشوق فيه هو لمعان البرق وترنم الطائر .

يقول الدكتور أشرف نجا : « وأولع الأندلسيون - كما أولع المشارقة العباسيون من قبل - بوصف الحمايم والطيور التي تعلو الأفنان وسط الرياض والأنهار ؛ لأنها بصياحها وهتافها تهيج ذكرياتهم وأشجانهم، وتشير فيهم كوامن الشوق والحنين، فشخصوها وخلعوا عليها من مشاعرهم وأحاسيسهم وحالاتهم النفسية، وامتزجوا بها، فجعلوها تفرح لفرحهم وتقلق لحزنهم » (٢) .

وهذه الدراسة ستحاول جاهدة إبراز الاغتراب النفسي في حياة ابن درّاج وشعره، والجدير بالذكر أن هذا الشاعر قد عاش في فترة ملوك الطوائف تلك الحقبة الزمنية المليئة بالأحداث السياسية والاجتماعية المضطربة، والتي دفعت القسطلی ورمته في مهب الاغتراب النفسي، وغيرها من ألوان الغربة. فقد انتشر الظلم والفساد في تلك الفترة، فظهرت العصبية القبلية، وتعصبت كل طائفة لأمرها، وهذا ما أشار إليه الخطيب في قوله : « ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار » (٣) .

تلك الفتن والدسائس والجور والعدوان الذي شاع في البلاد في تلك

(١) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٢) قصيدة المديح في الأندلس ، د. أشرف نجا ، ص ١٥٣ .

(٣) أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، ص ١٤٤ .

الفترة دفعت ابن درّاج نحو الاغتراب النفسي، إذ إن كل شخص في تلك الحقبة كان يسعى لتحقيق طموحاته وأطماعه في جو مفعم بالقلق والخوف، فترك كل ذلك أثراً سيئاً على الحياة الاجتماعية، وعلى حياة ابن درّاج خاصة. وسبب آخر وهو أن ابن درّاج كان من بيت عزّ وسيادة؛ إذ كان جده حاكم قسطلّة إلا أن هذه الرياسة لم تدم لهم طويلاً، فذهاب السيادة عنهم جعلته يشعر باغتراب نفسي إذ سيطر عليه القلق والخوف من شبح الفقر، وضياح أسرته .

إذاً نحن بإزاء شاعر من أسرة عريقة النسب، إذ يذكر المؤرخون أنه من قبيلة صنهاجة البربرية، إذ يقول صاحب جمهرة أنساب العرب (صنهاجة منهم بنو درّاج رهط الشاعر أبي عمر وأحمد بن محمد بن درّاج القسطلّي)^(١) .

(وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نرى أثراً واضحاً لهذه البربرية في حياة ابن درّاج ولا شعره، وهو لا يتحدث عن نسبه على الإطلاق)^(٢) .

ولكن لا بد لهذا التحول الذي أصاب مُلك أجداده أن ينعكس على شاعرنا ويولد فيه الشعور بالخوف والضياع، فرحل ليبحث عن حياة المجد والاستقرار، وكثرة الرحيل من بلد إلى بلد جعله أيضاً يعيش حياة قلق مضطربة، وهذا القلق جعله يكثر الحديث عن وصف الأسفار برّاً وبحراً، ولم يكتف بالوصف الخارجي من ذكره لصعاب، بل تعمق في الوصف النفسي لقلقه وهمومه، وما يتركه هذا الرحيل من أثر سيئٍ لدى المغترب، ولذلك نجد في حديث لرسول الله ﷺ يصف السفر بالعذاب، فيقول: « السفر قطعة من

(١) جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٦ ، دار المعارف ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٤ .

العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»^(١).

فالمغترب قد يتعرض للأذى أو الخطر، وقد يحدث له مكروه، أو أنه قد يعود إلى أهله دون أن يحقق غرضه من الرحيل والاعتراب، فتزداد حسرته، وهذا ما جعل ابن درّاج يعيش حياة قلق، فوصف أسفاره وأكثر الحديث عنها، فمن ذلك قوله^(٢): الطويل

وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالصَّوَاخِدُ^(٣) تَلْتَظِي^(٤)

عَلَيَّ وَرَقْرَاقُ^(٥) السَّرَابِ يَمُورُ^(٦)

أَسْلَطُ حَرَّ الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا^(٧)

عَلَى حُرٍّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ

وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ^(٨) وَهِيَ بَوَارِحُ^(٩)

وَأَسْتَوِطِي الرَّمْضَاءَ^(١٠) وَهِيَ تَفُورُ

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لأبي حجر العسقلاني ، ك: العمرة ، باب: السفر ، ص ٨٩٥ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٥١ .

(٣) الصواخذ: من أحرقت الشمس .

(٤) تلتظي: تلتهب .

(٥) رقرق: تالّل (السراب) .

(٦) يمور: يتحرك .

(٧) سطا: كثر .

(٨) النكباء: الريح الشديدة .

(٩) بوارح: الحارة .

(١٠) الرمضاء: الرملة الشديدة الحرارة .

وللمّوتِ في عيشِ الجَبانِ تَلَوْنُ
وللذُّعْرِ في سَمْعِ الجَرِي صَفِيرُ^(١)
لَبانَ لها أُنِّي مِنَ الضَّيْمِ جَارِعُ
وَأُنِّي على مَضِّ الخُطوبِ صَبُورُ
أَمِيرُ على غَوْلِ التَّنَائِفِ^(٢) مَالُهُ
إذا رِيعَ إلاَّ المَشْرِقي وَزِيرُ
ولو بَصُرْتُ بي والسُّرَى جُلَّ عَزَمَتِي
وجَرَسِي لِجَنّانِ^(٣) الفَلَاةِ سَمِيرُ^(٤)
وأَعْتَسَفُ^(٥) المومّة^(٦) في غسقِ الدُّجَى
وللأسَدِ في غِيلِ الغِيَاضِ^(٧) زَنْيَرُ
وقَدْ حَوَمْتُ^(٨) زُهْرُ النجومِ كَأَنَّهَا
كواعِبُ في خُضْرِ الحَدَائِقِ حُورُ

(١) صفير : الصوت بالفم والشفيتين .

(٢) التنايف : القفر من الأرض .

(٣) الجنان : جمع جن .

(٤) سمير : ليلة لا قمر فيها .

(٥) أعتسف : ركب الأمر بلا تدبير ولا رواية .

(٦) المومّة : المفازة الواسعة لا ماء بها ولا أنيس .

(٧) الغياض : الشجر المتنف .

(٨) حومت : دارت .

ودارتْ نجومُ القطبِ حتى كأنَّها
كُؤُوسٌ مَهَّاءٌ^(١) واني بهنَّ مُديرٌ
وقد خَيَّلَتْ طُرُقُ المَجَرَّةِ أَنَّها
على مَفَرِّقِ الليلِ البهيمِ قَتِيرٌ^(٢)
وثاقِبَ عَزَمِي، والظَّلامُ مُرَوِّعٌ
وقد غَضَّ أَجفانَ النجومِ فَتُورٌ

هذه اللوحة التي رسمها ابن درَّاج، وصور فيها كل معاني القلق، وأبرز فيها الأهوال والصعاب التي واجهها في رحيله تنبئ عن شدة إحساس الشاعر، وشدة انفعاله النفسي.

« فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق وأهواله التي يعانيها المسافر بالنهار ثم بالليل، فيذكر اشتداد الحر الذي يتلظى، والسراب الرقراق الذي يمور، والقيظ الذي يتسلط لhibه على الوجه في النهار الذي أصيله هجير، ويذكر الرياح النكباء التي تُستنشَق، والرمضاء الفائرة التي توطأ، وهو لا يغفل الوصف النفسي، فيذكر مخاوف المسافر وإحساسه بالموت إحساساً يصوره في عينه ألواناً مختلفة وأشكالاً متعددة، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر في تلك الظروف بحيث يخدع حواسه فيسمع له صفيراً حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد .

وحيث تتراقص زهر الكواكب في السماء كحسان كواعب في حديقة خضراء، وحيث تدور نجوم القطب مثل كؤوس بلور يدور بها ساقٍ، وحيث

(١) المها : البلور .

(٢) قتير : الشيب .

يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود، وحيث يروع
الظلام حين تفتت جفون النجوم، فتغمض منها العيون»^(١).

ولم يقتصر ابن درّاج على وصف رحلاته البرية فقط، بل تحدث أيضاً
عن رحلاته البحرية. يقول^(٢):

إِلَيْكَ شَحَنَّا الْفَلَكَ تَهْوِي كَأَنَّهَا
وقد ذُعِرَتْ^(٣) عَنْ مَغْرِبِ^(٤) الشَّمْسِ غَرْبَانُ^(٥)
عَلَى لُجَجٍ^(٦) خُضِرٍ^(٧) إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
ترامى بنا فيها ثَبِيرٌ وَثُهْلَانُ^(٨)
مَوَائِلَ تَرْعَى فِي ذُرَاهَا مَوَائِلًا
كَمَا عُبِدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْثَانُ

فالفلك تهوى في زمن غروب الشمس، وهي مثل الغراب الخائف من
الليل. ثم يصف سرعة تلك الفلك، فسرعتها كسرعة الرياح التي تهب على
لجج الماء، وتقذف شيئاً عظيماً يشبه جبلي ثبير وথেلان، فتظهر السفن موائل،
فيصير فيها الركاب وقد غلب عليهم الخوف والهلع، فثبتوا في أماكنهم
كالأوثان الثابتة الصامدة التي لا حراك لها .

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط، د. أحمد هيكمل، ص ٣١٥.

(٢) ديوان ابن دراج، تحقيق محمود مكّي، ص ٧٤.

(٣) الذعر : الخوف .

(٤) مغرب : ساعة الغروب .

(٥) غربان : جمع غراب .

(٦) لجج : الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه .

(٧) خُضِر : اسم البحر ، وسمي بذلك لخضرة مائه .

(٨) ثبير وথেلان : جبلان .

وهناك أيضاً سبب آخر يدفع ابن درّاج نحو الاغتراب النفسي والذي يتجسد هنا في حدة القلق، وهو أن ابن درّاج ذو أسرة كبيرة ذات مطالب واحتياجات ضخمة يعجز ابن درّاج عنها، فاغترب من مكان إلى آخر حاملاً معه همه وقلقه، فعبر عن ألم الغربة والإحساس العميق بالضيق.

أما السبب الآخر في - رأينا - الذي دفع ابن درّاج نحو الاغتراب النفسي فهو تفوقه الشعري، وكثرة حُسّاده والحاقدين عليه. فقد قال عنه الثعالبي: (١)

«كان بصقع الأندلس كالمتني بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول، وكان يجيد ما ينظم».

وحين وطئت قدماه بلاط المنصور تألب عليه النقاد واتهموه بأنه لا يستطيع المعارضة، ولا يجيد نظم الشعر، فطلب منه المنصور أن يعارض قصيدة لأبي نُوَاسٍ، فعارضها وأحسن. كما اتهموه بالانتحال والسرقة، فعقد له مجلساً يمتحنه فيه «واقترح عليه، فبرز وسبق، وقد أشار ابن درّاج في قصيدته إلى الامتحان الذي عقد له، وافتخر بظفره فيه وأنه لم يقصر في مجال الارتجال» (٢).

ويقول ابن درّاج عن تلك التهمة الباطلة التي ألصقتها به حساده: (٣)

من بعد ما أضرم الواشونَ جاحمةً
كانت ضلوعي وأحشائي لها حطبا
ودسّسوا لي في مَثْنَى حبائِلِهِمْ
شنعاءَ بتُّ بها حرَّانَ مُكْتَبَا

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي، ص ١١٩.

(٢) ديوان ابن دراج، ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٩.

حتى هُزِرْتُ، فَلَا زَنْدُ^(١) القريض كَبَا^(٢)

فِيمَا لَدِيَّ، وَلَا سَيْفُ الْبَدِيهِ نَبَا

وَأَشْرَقَتْ شَاهِدَاتُ الْحَقِّ تَنْشُرُ لِي

نُورًا غَدَتَ فِيهِ أَقْوَالُ الْوَشَاةِ هَبَا

هِيَهَاتَ أَعْجَزَ أَهْلَ الْأَرْضِ أَنْ يَجِدُوا

لِلدُّرِّ عِبْرَ عُبابِ الْبَحْرِ مُنْتَسِبَا

وَحَاشَ لِلْوَرْدِ أَنْ يُعْزَى إِلَى رَمَضٍ^(٣)

وَأَنْ يَكُونَ لَهُ غَيْرُ الرِّبْعِ أَبَا

ويحاول ابن درّاج أن يقلل من حدة قلقه واكتئابيه الذي يسيطر عليه،
ويسلي نفسه ويهدئ من روعها قائلاً لها : إنه ليس أول شاعر يجتمع عليه
الحساد والوشاة فيتآمرون عليه، وإنما قد سبقه لذلك شعراء كثيرون، منهم
امرؤ القيس، والأعشى.

يقول : (٤)

وَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَعْيَتْ بِدَائِعُهُ

فَاسْتَدْعَتْ الْقَوْلَ مِمَّنْ ظَنَّ أَوْ حَسِبَا

إِنَّ (امْرَأَ الْقَيْسِ) فِي بَعْضِ لُمَتِّهِمْ

وَفِي يَدِيهِ لَوَاءُ الشَّعْرِ (إِنْ رَكَبَا)

وَالشَّعْرُ قَدْ أَسَرَ (الْأَعْشَى) وَقَيْدَهُ

خَيْرًا، وَقَدْ قِيلَ : (وَالْأَعْشَى إِذَا شَرَبَا)

(١) زند : العود الذي تقتدح به النار .

(٢) كبا : لم يخرج ناره .

(٣) رمض : شدة وقع الشمس على الرمل .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٠٩ .

وكيف أظما - وبحري زاهر فطنًا
إلى خيال من الضحضاح^(١) قد نصبا
فإن نأى الشك عيني أو فهانذا
مهيأ لجلي الخبر مرتقبا
عبد لنعماك في كفيه نجم هدى
سار بمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئت أملى بديع الشعر أو كتب
أو شئت خاطب بالمشور أو خطبا

هذه الأوضاع وهذه الأسباب دفعت شاعرنا إلى الاغتراب النفسي والاعتراب عن وجوده في عالم لم يعد عالمه ؛ إذ أصبح عالمه دنيا الذكريات والأحلام، أما الواقع الحي الذي يعيشه فكان واقعا قلقا مكتئبا.

ولذلك تأهب ابن دراج للموقف بكل شجاعة، فوقف باكيا واصفا رحيله ووقوفه ذلك لم يكن إلا فترة استرخاء ؛ لأخذ نفس عميق ؛ للسيطرة على ذلك الموقف، فيكون أكثر وعيا ويقظة وتركيزا للواقع الصعب القلق الذي يتعايش معه من خلال تغير المواقف والعودة إلى ذكريات الماضي، فقد كان واعيا بالأفكار التي تحول في مخيلته.

يقول الدكتور (جاري ماكاي) والدكتور (دون دينكماير) للتخلص من الاكتئاب : « تخيل أو تذكر وقتا شعرت فيه بالرضا عن نفسك، وبنهج مثل هذه الطريقة التي تشعر فيها بالاسترخاء والإيجابية^(٢) » .

فالقلق والاكتئاب الذي يعاني منه الشاعر مجموعة من الأفكار والمشاعر

(١) الضحضاح : الماء القليل .

(٢) الشعور اختيار ينبع من الذات ، للدكتور جاري ماكاي ، والدكتور دون دينكماير ، ص ١٢٤ .

التي تدفعه إلى الانهزامية، إذ يصبح الشاعر محاصراً بتلك المشاعر .

ولكن ابن درّاج لا يريد أن يشعر بالانهزامية، ولذلك يرفض أن يفكر في حاضره المرير، فلجأ إلى تغيير طريقة تفكيره باللجوء إلى الماضي وذكرياته، يقول الدكتور (جاري) والدكتور (دون) : « إذا جأهتك مشكلة إزاء استحضر إحدى التجارب الفعلية التي تحوي الشعور الذي تريد أن تتصرف بناءً عليه استحضر موقفاً من وحي خيالك»^(١) .

(استحضر عددًا غير قليل من التجارب التي تبعث على الهدوء، واستمر في استحضار هذه التجارب)^(٢) .

فالوقوف على الأطلال ووصف الأسفار عبارة عن انفعالات نفسية، وتلك الانفعالات تشمل الخوف والقلق والاكتئاب والعزلة وغيرها من مؤثرات الاغتراب النفسي . يقول الدكتور محمود هياجنة : «إن في استرجاع الذكريات ما يعيد للنفس توازنها بعد معاناة للقلق والغربة والبعد عن الأهل والوطن»^(٣) .

وسنحاول إبراز الاغتراب النفسي، وتتبع حدة القلق في قصائد ابن درّاج التي تنبض بالاغتراب والقلق الحاد.

يقول عنه الدكتور أحمد هيكل: «وابن درّاج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله، وغني عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر؛ فظروف الرجل الخاصة وظروف الأندلس العامة كانت من دوافع ذلك، وخاصة إذا كانت تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن درّاج

(١) الشعور اختيار ينبع من الذات ، للدكتور جاري ماكاي ، والدكتور دون دينكماير ، ص ٢٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٣) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، دراسة نصية لمحمود هياجنة ، ص ١٠٠ .

الذي لم ينس أنه قد أذل من بعد عز، واحتاج بعد غنى، واضطر وهو الشاعر الكبير وسليل السادة من حكام قسطلة إلى أن يقصد الناس لبيع شعره بقوته وقوت أولاده»^(١).

وقال عنه في موضع آخر: إنه برز في الوصف النفسي الذي تجاوز به الجانب الحسي الخارجي وتغلغل إلى الجانب النفسي الداخلي، ومن نماذج ذلك الحديث عن القلق والضياح قوله: (٢)(٣)

قلِّقًا تنَاهَى فِي الْبِلَادِ فِرَارُهُ
وَهَمَى ضَمِيرِ النَّفْسِ أَنْ يَتَمَثَّلَكَ
يقول ابن درَّاج: (٤)

لَكَ اللَّهُ بِالْأَصْرِ الْعَزِيزِ كَفِيلُ
أَجَدَّ مُقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ

في بداية هذه القصيدة نجد القلق الذي يسيطر على نفسية الشاعر وخاصة في الشطر الثاني حيث يقول: «أجدَّ مُقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ». هذا السؤال الذي يطرحه شاعرنا سؤال يجسد ضخامة معاناته، فهو تائه حيران، جاهل تمامًا مصيره، فهو قلق إزاء هذا الموقف. وكما أن استخدام الشاعر لدلالة التضاد في قوله (مقام - رحيل) تبرز حالة القلق والحيرة، ويصور ابن درَّاج الاغتراب النفسي في الحيوان والطير، ويبرز سيطرة القلق عليها. يقول: (٥)

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكمل، ص ٣١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٨.

(٣) ديوان ابن درَّاج، ص ٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٤.

سحائبُ تزجِيها الرياحُ، فإنْ وَفَتْ^(١)
أنافَتْ بأجْيَاد^(٢) النعام^(٣) فيُولُ^(٤)
ظباءُ سِمَامٍ^(٥) ما لهنَّ مَفاحِصٌ^(٦)
وَزُرُقٌ^(٧) حمامٍ ما لهنَّ هَدِيلُ
سواكن في أوطانهن كأن سما^(٨)
بها الموجُ حيث الرّاسيات^(٩) تَزُولُ

مجموعة من السحاب المحملة بالرياح تسوق مجموعة من النعام وصفها فقال: إن لها رقابًا طويلة طال بها بقاؤها في موطنها، ولكن لضعفها استطاعت تلك الرياح سوقها وتشتيت شملها، وهناك ظباء اتصفت بالسرعة وليس لها موضع معين تستقر فيه، وهناك حمام عطش حتى بلغت حدة العطش فيه عدم قدرته على الهديل والتغريد.

تلك الجماعات كانت تسكن في أوطانها، ولكن هل الحال بقي على ما هو عليه؟

والجواب: «كأنَّ سما بها الموج حيث الراسيات تزول» فالجبال الراسخة الثابتة قد أزيلت من مكانها، فما ظنك بهذه الحيوانات التي هجرت موطنها،

(١) وفّت : طالت وتمت .

(٢) أجْيَاد : جمع جيد .

(٣) النعام : جنس أو مفرد النعامة .

(٤) فيُول : ضعيفة .

(٥) سِمام : سريعة .

(٦) مَفاحِص : موضع .

(٧) زُرُق : عطش .

(٨) سما : علا .

(٩) الراسيات : الجبال الثابتة الرواسخ .

وكأنَّ الرياح هي التي تقودها إلى هذا الرحيل والاعتراب.

وهذه الظاهرة موجودة في كل مكان وزمان، ولكن كل ظاهرة مرئية تحت بصر ابن درّاج كانت تثير وتهيج في نفسه الذكريات.

فالشاعر يعاني اغتراباً نفسياً، ولذا لجأ إلى تصوير هذا الاعتراب والقلق الذي يشعر به في الحيوان والطير. فابن درّاج قد قادته الفتنة وجعلته يترك وطنه، وهنا الرياح تقود الظباء والحمام. ولم يقتصر على تأثره بالحمام والظباء فقط، بل شمل تأثره بالشمس أيضاً. يقول: (١)

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ

شَجِيتَ لَشَجْوِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلِ

فها هو ذا يجعل الشمس تشاركه مشاركة وجدانية، فهي تحزن لحزنه، فتحمر عينها عند الأصيل بكاءً! وكيف لا؟ وهي ستغرب وقت الأصيل وتشجو مثله، فهو غريب ذليل قلق قد اكتوى بنار الاعتراب. فلماذا حصَّ الشمس بالذكر هنا عن غيرها من الكواكب الأخرى؟ ولماذا وقت الأصيل بالذات؟ ربما أراد أن يجسد شدة وعظم الاعتراب في نفسه. فالشمس بعظمتها وهيمتها على الكواكب الأخرى كون أنها تدهم بالطاقة تزول وتغرب، فكأنَّ وقت الأصيل كان سبباً في غروبها، كما كانت الفتنة سبباً في تشرده وتغربه بالرغم من عظمة مكانته ومكانة أجداده.

ولم يكتف الشاعر بوصف نفسه بالغريب، بل اتبعه بصفة «الذليل» تأكيداً وتصويراً لشدة المعاناة النفسية، وأنه لم يجن من الاعتراب غير الذلة والحسرة. وتكراره لكلمة «شجيت - لشجو» جاء تحسيداً لعمق القلق

(١) ديوان ابن درّاج، ص ٦٤

والاكتئاب الذي يعاني منه الشاعر. وفي هذه الأبيات يجسد ابن درّاج حقاً
شدة اغترابه النفسي إذ يقول: (١)

وفي طيّ أسْمال الغريبِ غرائبُ^(٢)

سَكَنَ شِعَافَ القلبِ شيبٌ وولدانُ^(٣)

يُرَدِّدْنَ في الأحشاءِ حرَّ مَصَائِبِ^(٤)

تزيدُ ظلاماً ليلها وهي نيرانُ

إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ

بِدمْعِ غُيُونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ

وإنْ سَكَنْتْ عَنَّا الرِّيحُ جَرَى بنا

زفيرٌ إلى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنَّانُ

يَقْلَنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالْهَمُّ والدُّجَى

تَمُوجُ بنا فيها عُيُونٌ وآذَانُ

يتحدث الشاعر عن ملابسه الخَلَقَةَ التي سكن بداخلها وسكنت معها
أخلاق وعادات عجيبة، فغلب عليه الهم والحزن . فما هي تلك العادة ؟ إنها
عادة الرحيل والاغتراب، فهذه الغرائب كما وصفها ابن درّاج تردد في أحشاه
اشتداد مصائبه التي تشتد ويقوى لهيبتها حتى تصبح أقوى في الليلة النيرة، ولهذا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٤

(٢) أسْمال : الأسْمال الملابس الخَلَقَةُ .

(٣) شيب : بياض الشعر دليلاً على الحزن .

(٤) حر : بمعنى اشتداد .

يصف ابن درّاج قوة هذه الأهوال في إحدى رحلاته البحرية ومدى التعب والقلق الذي شعر به. فغيض ماء البحر وتحرك الأمواج بقوة وانهمار الدموع كلها دلالات نفسية توضح الاضطراب النفسي. يقول الدكتور أشرف نجا: «ولعله يقصد بذلك رحلة الحياة الشاقة التي خاض غمارها وبخاصة أثناء الفتنة في ظل مجتمع متقلب يفتلك فيه القوي بالضعيف»^(١).

ولكن بالرغم من هذه الأهوال إلا أن الحنين وذكر الأحبة ماثل أمام بصر شاعرنا، فيطلق زفرة قوية تثير أشجانه، وأي أشجان تلك؟!!

وفي قوله: «جرى بنا» وما تنضح به هذه الكلمة من انفعال واضطراب، وحركة قوية وسريعة، وهذه الألفاظ الدالة «غريب - مصائب - نيران - دمع - أشجان - زفير» لا شك أن المتأمل فيها سيشعر بأن دقات ونبضات قوية حية لمشاعر إنسانية تتدفق جياشة لتصور معالم الاغتراب والتألم والأسى، وشدة الشعور بالقلق الذي انتابه هو وأسرته، فالشاعر لم يصور قلقه فقط، بل تجاوز به الإحساسُ فوصف قلق أسرته. ويصف أيضاً ابن درّاج اغترابه النفسي في مجموعة من الطعائن حيث يقول:^(٢) المتقارب

خطيباتِ خطبِ النوى والمهور^(٣)

مَهَارَى عَلَيْهَا رَحَالُ الرَّحِيلِ^(٤)

فَمِنْ حُرَّةٍ جَلِيَتْ بِالْجَلَاءِ

وَعَذْرَاءُ نُصَّتْ بِنَصِّ الذَّمِيلِ^(٥)

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، د. أشرف نجا .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

(٣) خطيبات : النساء اللاتي خطبن أي تزوجن. والخطب : الأمر العظيم .

(٤) مهاري : نوع من الإبل .

(٥) الذميل : السير اللين .

ولا حلي إلا جمان الدموع
يسيل على كل خد أسيل
فبدلن من بعد خفض النعيم
بشق الحزون ووعث السهول
ومن قصر الليل تحت الحجال
بهول السرى تحت ليل طويل
ومن علل الماء تحت الظلال
صلاء القلوب بحر الغليل
ومن طيب نفح بُنُورِ الرياضِ
تلظي لفح بنار المقيـلِ
ومن أنسها بين ظئر وترب
سرى ليلها بين ذيب وغول
ومن كل مرأى محيا جميل
تلقي الخطوب بصبر جميل
لعل عواقبه أن تتم
فيهدى الغريب سَواء السبيل^(١)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

هنا يتحدث عن عروس مخطوبة للخطوب و الشدايد و مهرها نوق مرتحلة،
وجلاؤها الجلاء والتروح ونصتها منصة على راحلة تسير سير لين .
فهذه الصورة القلقة التي رسمها ابن درّاج تبرز جانباً من عذابات الشاعر
وانفعاله، واستخدامه للألفاظ التي تتسم بالتضاد دليل على القلق والتوتر، مثل «خفض
- وعث - قصر - طويل - نور - نار - غول - لفح» والدول التي استخدمها مثل
: «الجلاء - الدموع - الحزون - الغليل - ذيب - غول - الغريب» تقتفي في
نظمها آثار المعاني كما قال عبد القاهر الجرجاني^(١) في الدلائل، فهي توضح اضطراب
الشاعر ومعاناته القلق والذي هو سمة بارزة للاغتراب النفسي.
وتزداد حدة التوتر والقلق في هذه الأبيات . يقول: ^(٢)

أنضيت^(٣) خيلي في الهوى وركابي
وعمرت كأس صبي بكأس نصاب^(٤)
وعنيت مغرى بالغواني والصبا

واللهو واللذات قد تغرى بي

في غمرة لا تنقضي نشواتها
من صرف كأسٍ أو جُفونٍ كعابٍ
أيام لا نرتاغ من صرف النوى^(٥)

أمنّا، ولا نُصغي لنُعَبِ غرابٍ

(١) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ، ص ٤٩ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) أنضيت : أتعبت وأعييت .

(٤) نصاب : تعب .

(٥) الروع : الفزع .

أَيَّامَ وَجْهِ الدَّهْرِ نَحْوِي مُشْرِقَ

وَمَحَاسِنُ الدُّنْيَا بَغَيْرِ نِقَابٍ^(١)

وَلَقَدْ أَضَاءَ الشَّيْبُ لِي سَنَنَ الْهُدَى

فَفَتَنِي سِنِي دَدَنِي^(٢) عَلَى الْأَعْقَابِ^(٣)

وَرَأَيْتُ أَرْدِيَةَ النَّهْيِ مَنْشُورَةً^(٤)

تَسْعَى بِجِدَّتِهَا إِلَى أَثَرَايِ^(٥)

وَرَأَيْتُ دَارَ اللَّهِوَ أَقْوَى رُبْعُهَا

وَخَلَّتْ مَعَاهِدُهَا مِنَ الْأَحْبَابِ

وَخَلَّتْ بِي التَّكَبَّاتُ تَرْمِي نَاطِرِي

وَحَوَاطِرِي بِنَوَافِدِ النَّشَابِ

وَلَكَمْ أَصَابَتْنِي الْخُطُوبُ بِشَكَّةٍ^(٦)

تُعْيِي التَّجَلُّدَ، وَاحْتَسَبْتُ مُصَابِي^(٧)

(١) نقاب : ما يبدو منه العيان .

(٢) ددني : حزني .

(٣) الأعقاب : تراجعت على أعقابها سنين اللهو .

(٤) الرد : اللهو و العبث .

(٥) أتراب : جمع تراب وهو اللدة أي نظير الصبا .

(٦) شكة : سلاح .

(٧) ديوان ابن دراج ، ص ٨ : ٩ .

يتذكر الشاعر تلك الأيام التي قضاها في السير وراء أهوائه وملذاتها.
فقد اهتم بالغواني، ولم يكن يفرغ من البعد والفراق، ولا يصغي لنعب غراب
البين؛ فقد كان الدهر مشرقاً له، وكانت تلك المحاسن تظهر له كاملة بغير
نقاب، ولكن ما يلبث أن يعود الشاعر إلى رشده، ويستفيق من ذكرياته
وأحلامه، ورأى تلك المعاهد قد خلت من الأحباب، فتعلو نبرة القلق بتكراره
لكلمة (رأيت). إذاً لقد نعب غراب البين، واختلت به النكبات والفتن، وكان
تلك النكبات بمثابة الفارس الجيد الذي يصيب برمحه الصميم.

فتلك الخطوب قد أتعبته وأصابته بسلاح التعب والخوف، ولكنه أحس
بمصابه، فهو يريد معالجة اغترابه النفسي، فيدعو نفسه إلى التجلد والصبر.

ولكن استخدامه للمطابقة في قوله: «أنضيت - عمرت» والمجانسة بين
«أصاب - مصاب» وقوله: «النوى - نعب - خلت - النكبات -
الخطوب - مصاب» هذه الدوال التي تجهر بها هذه الأبيات تشير وتكشف عن
صورة الاغتراب النفسي والقلق الذي يختلج في نفس ابن درّاج. ويقول هنا في
ذكر الرسوم وديار الأحبة^(١):

أضاءَ لها فجرُ النهى^(٢) فنهاها^(٣)

عن الدنفِ المضنى بحرّ هواها^(٤)

وضللّها صبّحُ جلا ليلة الدّجى^(٥)

وقد كان يهديها إلى دُجّها

(١) ديوان ابن درّاج، ص ٨ .

(٢) النهى : العقل .

(٣) نهاها : منعها .

(٤) الدنف : المرض الملازم .

(٥) الدجى : سواد الليل .

ويشفع لي منها إلى الوصل مَفْرَقٌ
يُهْلُ إِلَيْهِ حَلْيُهَا وَحُلَاهَا
ويتحدث الشاعر هنا عن الاغتراب والموت . يقول: (١)

وَدَنَا بِهِ أَجَلُ الرَّحِيلِ كَأَنَّهُ
أَجَلُ الْمَمَاتِ دَنَا بِهِ الْمَقْدَارُ
عَامٌ كَعُمُرِ الْوَصْلِ لَيْلَةٌ زَائِرٌ
وَأَسَى تَقَاصِرُ دُونَهُ الْأَعْمَارُ
طَالَتْ لِيَالِيهِ الزَّمَانُ بِهَمَّةٍ
وَكَأَنَّهُنَّ مِنَ السُّرُورِ قِصَارُ
بِمُشَرَّدٍ قَلِقٍ الثَّوَاءِ بِمَنْزِلِ
لَا يَنْشِي فِيهِ لَهُ الزُّوَارُ
مُثَوَايَ فِيهِ تَقَلُّقٌ وَتَأَهُبٌ
وَقِرَايَ فِيهِ ذِلَّةٌ وَصَغَارُ
وِطْلَابُ مَأْوَى قَبْلَ حِينِ أَوَانِهِ
فَالدَّهْرُ أَجْمَعُهُ لِي اسْتِنْفَارُ
لِلَّهِ مِنْ عَامٍ جَرَى عَنِّي بِهِ
جَرِي الْأَهْلَةِ فِيهِ وَالْأَقْمَارُ

(١) ديوان ابن درّاج، ص ١٢٩ .

فالشاعر حينما يتذكر الرحيل فكأنه يتذكر الموت، ولذلك فهو كثير القلق، كثير التشرد؛ لأن رحيله دائم كرحيل الأهل والأقمار. فالشاعر لا يشعر بالأمان والاستقرار، وهذا الشعور جعله يعيش حياة قلق، ولذلك جعل الاغتراب بمثابة الموت . يقول عزيز جاسم : «ومثلما رأى الشعراء بقاء الله أزليته، فقد رأوا أيضاً بقاء البلاد بجلالها ووديانها وأنهارها بأرضها وبسمائها، فأدخلوا الحس الوطني في شعرهم من خلال حكمة الموت ودلالته في الفناء والبقاء»^(١).

كقول المتنبي: ^(٢)

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ
لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

إذاً لولا الفراق لما كان للمنية سبيل إلى الروح؛ فالفراق والبعد عن الأحباب سبب لدنو الأجل، ولهذا كان الفراق أكبر شيء يؤرق هاجس الشاعر، فيفجر القلق المكتظ في نفسه، فترى ابن درّاج يكرر «قلق - تقلقل - دنا - عمر - أعمار» يجسد شدة القلق، كما في تكراره لكلمة «الليل» وما تجسده هذه اللفظة من صورة سوداوية قلقة.

ويقف القسطل على أشواك الاغتراب النفسي ^(٣) :

وَفِي كِبْدِي حَرٌّ مِّنَ الشَّوْقِ لَا عِجْ

وَفِي عَضْدِي غَضٌّ مِّنَ الْبَانِ نَاعِمٌ

(١) الاغتراب في حياة الشريف الرضي ، لعبد العزيز السيد جاسم ، ص ٤٢ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٢ .

يُقِرُّ هَوَاهُ أَنَّهُ لِي قَاتِلٌ

وَقَلْبِي لَهُ مِنْ جَفْوَةِ الشَّوْقِ رَاحِمٌ

فها هو ذا يحترق كبده، ويتحمل لواعج الشوق والحنين، وهو موقن أن ما به قاتلاً له لا محالة.

فما الذي أوقد الحنين والذكريات؟

إنه القلق من الحاضر، والرغبة في استمرار الماضي بكل ما فيه، ولذلك نراه في الأبيات التالية يصف رحيله، ولكن هذا الوصف لم يكن تقليدياً، بل نشعر فيه بعمق التجربة وقوة الحزن والأسى.
يقول : (١)

من كُلِّ مَفْجُوعٍ^(٢) بَتْرَحَةٍ^(٣) راحِلٍ

لَمْ يُسَلِّهِ طَمَعٌ بِفَرْحَةٍ آيِبٍ^(٤)

كَذَبَتْهُ بَارِقَةُ الْمَنَى^(٥) عَنْ صَادِقٍ

مَنْ ظَنَّهُ، وَصَدَقَهُ عَنْ كَاذِبٍ

ظَعَنُ سَرَيْنَ اللَّيْلِ ضَرْبَةً لَازِمٍ^(٦)

وَسَرَى إِلَيْهَا اِهْمُ ضَرْبَةً لَازِبٍ^(٧)

(١) ديوان ابن دراج ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) مفجوع : موجد .

(٣) ترحة : الهلاك وهو ضد الفرح .

(٤) آيب : عائد .

(٥) المنى : الأمانى .

(٦) لازم : إجبار .

(٧) لازب : ملاصق .

جَمَدَتْ عَلَيْهِنَّ الْقُلُوبُ فَأَسْبَلَتْ
فَوْقَ الْحَاجِرِ كُلَّ قَلْبٍ ذَائِبٍ
وَتَخَاذَرَتْ عَنْهَا الْعُيُونُ فَأَبْرَزَتْ
عَنْ أَغْيُنٍ بِدِمَائِهِنَّ سَوَاكِبٍ
وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهُنَّ لِطِيَّةٍ
وَصَلَتْ بِهِنَّ سَبَاسِبًا بِسَبَاسِبٍ^(١)
يَطْلُبْنَ شَأْوَ غَرَائِبٍ لِي كُلَّمَا
نَأَتْ الْبِلَادُ حَلَلْنَ غَيْرَ غَرَائِبٍ

يخاطب كل مفجوع برحيل عزيز عليه ولم يفرح بقدومه، وكل من كذبت له الأمان والأحلام، فالخطاب خاص بطائفة متفردة، وهي الطائفة المفجوعة برحيل عزيز عليها، ثم عدل عن هذا الخطاب إلى سرد قصة رحيل واغتراب تلك الطائفة، فذكر أنهم قد ساروا في الليل وما فيه من ظلمة وسواد، فسرى معهم الهم والحزن، وتجمدت قلوبهم من الخوف، وسكبوا الدموع بغزارة، وساروا في مطايا الأرض فتقطعت بهم الأسباب.

هذا الانتقال السريع هو «أسلوب الالتفات وهو أحد المعالم البارزة في لغة المغتربين يتفننون به لذكر موطنهم القديم وموقعهم الجديد الحاضر، وهو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر»^(٢). هذه المعاناة النفسية التي وصفها الشاعر من خوف وقلق تصور اغترابه النفسي، وكذلك استخدامه التضاد في قوله:

(١) سباسب : المفازة و الأرض البعيدة .

(٢) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، دراسة نصية للدكتور محمود هياجنة ، ص ٩٤ .

«راحل - آيب - ترحة - فرحة - كذبتة - صدقته - صادق - كاذب -
تقطعت - وصلت». دليل على القلق والاكتئاب .

وأبيات أخرى تنبض بالقلق والفرح من الرحيل . يقول : (١)

فما راع المشوق إلى غريبٍ

ولا أصغى المحبُّ إلى ملام

فيا عَجَبَ الخطوبِ يَبْحُنْ سَتري

وقد أَيْقَنَ أَنَّ به اعتصامي

وحَتَّامَ النوى تمهوي برحلي

وقد عَقَدَتْ بذمَّتِهِ ذِمَّامي

فما فَكَّتْ حُدَاءً عن ركابي

ولا كَفَّتْ يَمِينًا من زمامي

فليس لنا وَطَنٌ مَرْدُّ

ولا في دار قومٍ من مُقَامِ

ولا حَلَّتْ بنا دارٌ فزادتْ

على ذاتِ الحوافزِ والسَّنامِ

مخاضٌ ما لمولده رِضَاعُ

وترَحَّالٌ أَمَرٌ من الفِطَامِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

وَعَامٌ مُّقَامِنَا عَامٌ كِيَوْمٍ
وَيَوْمٍ رَحِيلِنَا يَوْمٌ كَعَامٍ
كِيَوْمِ الْهَمِّ لَيْسَ بِذِي انْتِفَاضٍ
وَيَوْمِ الْلَهُو لَيْسَ بِذِي تَمَامٍ
كَأَنَّكَ فِي الْمَنَازِلِ طَلَعُ نَخْلٍ
يَوَافِي أَهْلَهُ أَمَدُ الصَّرَامِ
وَمَا يُغْنِي خَرَجٌ مِنْ خُرُوجٍ (١)
وَلَيْسَ يُجِيرُ غُرْمٌ مِنْ غَرَامٍ
نَرَوِّعُ بِالنَّوَى، وَالذُّعْرُ بَاقٍ
وَنُفَجَأُ بِالْأَسَى، وَالْجُرْحُ دَامٍ
وَمَا سَكَنْتَ جُنُوبًا فِي مِهَادٍ
وَلَا مُلِئْتَ عَيُونٌ مِنْ مَنَامٍ
كَمَا حُدِّثَتْ عَنْ لَسَنِ الْأَفَاعِي
يُعَاوِدُ سُمُّهَا عَامًّا بَعَامٍ
فَهَلْ حَوْلٌ يَحُولُ بِلا رَحِيلٍ
وَلَوْ شَيْئًا نَرَاهُ فِي الْمَنَامِ

(١) خراج : ما يستخرج من الأرض .

وأفجِعْ بالَنوى في دارِ سَفَرٍ

فكيفَ نَوَى على دارِ المُقامِ

يقول بأن الشوق لا يميز بين غريب وغيره، وأن الحب لا يصغي إلى من يلومه ويعاتبه، ويتعجب من تلك الخطوب والحن التي كشفت ستره، فهو مغترب عن وطنه ليس له وطن يستقر فيه، وليس له بين القوم دارٌ يستقر فيها.

فهو مثل المولود الذي فطم من الرضاع قبل أوانه ؛ لأنه كثير الترحال، فالعام عنده كيوم، واليوم عنده كعام، فالיום الذي شبه العام هو يوم الهم والقلق الذي لا ينتقص، والعام الذي هو كيوم هو يوم اللهو والنعيم والاستقرار الذي هو في نقصٍ دائم .

ويشبه إقامتهم في تلك الديار بطلع النخل، فرحيله دائم متكرر كهبوب رياح الجنوب، وكلسع الأفاعي التي يعاود سمها من تلسعه عامًا بعام، فما علاقة المشبه بالمشبه به في تلك التشبيهات؟

نجد أن العلاقة واحدة تنبثق من شدة المعاناة والاضطراب والأسى. إذاً هذه التشبيهات تتمازج وتتداخل فيما بينها لتشكل لنا نسيجاً واحداً تبرز من خلاله انفعالات الشاعر التي تختلج بها نفسه.

ويتساءل ابن درّاج قائلاً : فهل حول يحول بلا رحيل ؟

وهو استفهام ليس القصد منه طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، ولكنه استفهام تَضَمَّنَ معنى التوجع والقلق.

وهذا يعني أن الشاعر لم يستطع بعد تجاوز حدة القلق والتوتر، ويتمنى أن يستقر في دياره، ولو في المنام ؛ لكي يتخلص من دياجير الغربة والوحشة .

ويظهر قلق الشاعر واضطرابه في استخدامه للتضاد في قوله : «رحيلنا - مقامنا - الهم - اللهو - سفر - مقام».

وهذه المفردات التي يشع منها شعاع الحزن : « غريب - نروع -
الذعر - الأسى - الجرح - الفجع » ثم تكراره لكلمة رحيل خمس مرات
دليل على ازدحام صورة الاغتراب النفسي في هذه الأبيات، وتكرار كلمة
«دار» ست مرات يوضح رغبة الشاعر في الاستقرار. وتعلو زفرة الشاعر في
قوله : (١)

وقلتُ لمغني الدَّارِ : ربَّكَ والبلَى
وللمُّورِ (٢) والإعصار : شأنك بالربَّع
لعلكم ما أن تُخلفا في معاهدي
زوافِرَ صدري ، والسَّواكِبَ من دَمْعِي
وأن تؤنِّسا ما أَوْحِشْتَ مِنِّي النُّوى
وأن ترفعا ما مَزَّقَ الدهرُ من جَمْعِي
ولا زادَ من دار الغنى غَيْرُ حَسْرَةٍ
تَجَرَّعَها حسي وكَظَمِي لها شَرْعِي (٣)
بلاغاً لأقصى ما لِعُمري من مَدَى
ومَبْلَغُ أنأى ما على الأرض من صُقْع (٤)
طوارقُ لم أغمضْ لَهُنَّ على القذى

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) المور هي الرياح الشديدة الحملة بالغبار .

(٣) شرع : الجرأة والشجاعة .

(٤) صقع : عدل عن الطريق.

جفوني ، ولم أرْبَعْ لَهُنَّ عَلَى ضِلَعٍ
 مَدَدْتُ بِهَا فِي الْيَدِ صَنْبَعِي شِمْلَةً^(١)
 تُبَارِي زَمَانًا لَا أُمِدُّ بِهِ صَنْبَعِي^(٢)
 وَلَا مِثْلَهَا فِي مِثْلِ هَمِّي رَكُوبَةً
 رَدَعْتُ الْمَنِيَا إِذْ رَكِبْتُ بِهَا رَدْعِي^(٣)
 سَمَامَةً^(٤) لَيْلٍ بَاتَ مُرْتَبِكٌ الْخَطَى
 وَنَكَبَاءُ يَوْمٍ ظَلَّ مُنْقَطِعَ الشَّسْعِ
 وَمُدْرَجَتِي فِي طَيِّ كُلِّ صَحِيفَةٍ
 مِنَ الْمُوثَقَاتِ الْفَجْرِ فِي خَاتَمِ الطَّبَعِ
 إِذَا الْعَقْرَبُ^(٥) الْعَوْجَاءُ أُمَسَتْ كَأَنَّمَا
 أَثَارَتْ عَلَيْهَا ثَارَ عَادِيَةِ اللَّسْعِ
 وَرَاقِبَهَا نَجْمُ الثُّرَيَّا بِمَطْلَعِ
 كَمَا انْفَرَقَتْ فِي الْعِذْقِ نَاجِمَةُ الطَّلَعِ
 وَأَبْرَزَتْ الْجُوزَاءُ صَدْرَ زُمُرْدٍ
 مُحَلَّى بِأَفْذَازٍ مِنَ الدُّرِّ وَالْوَدَعِ^(٦)

(١) شِمْلَةٌ : الناقة السريعة .

(٢) صَنْبَعٌ : عضد .

(٣) رَدَعٌ : العنق .

(٤) سَمَامَةٌ : وسط .

(٥) الْعَقْرَبُ : البرج المعروف من بروج السماء ، أو العقرب الحشرة المعروفة .

(٦) الْوَدَعُ : خرز أبيض .

يُشَاكُهُ زَهْرُ الرُّوضِ فِي مَاتِعِ الصُّحَى
عَلَى بَوْنٍ مَا بَيْنَ التَّرْفَعِ وَالْوَضْعِ
سَرَيْتُ دُجَى هَذِي وَجُبْتُ هَجِيرَ ذَا
بَأْغُولَ مِنْ غُولٍ ، وَأَسْمَعَ مِنْ سِمْعِي^(١)
نَجِيَّةَ هَوْلِ الْقَفْرِ فِي مُطْبِقِ الدُّجَى
وَصَفْوَةَ لَمَعِ الْآلِ فِي الْقَنَنِ الصُّلَعِ
فَلَأْيَا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْ مِثْلِ جَفْنِهِ
وَأَطَلَقْتُ عَقْدَ النَّسْعِ عَنْ شَبَةِ النَّسْعِ^(٢)
هنا الغيث اخلف الوعد بعد أن اطمع في التزول ثم نكص عنه
ويقول في قصيدة أخرى^(٣) :

فَنَحْنُ دُيُونُ النَّوَى كُلِّ يَوْمٍ
عَلَى حَكْمِهِ يَقْتَضِينَا الْغَرِيمُ^(٤)
وَتِلْكَ الْمَعَاهِدُ مِّنَّا رُسُومًا
عَفَاهَا الذَّمِيلُ^(٥) بَنَا وَالرَّسِيمُ
بَسِيرٍ يَقُولُ الصِّفَا الصُّمُّ مِنْهُ

(١) سمع : ولد الذئب .

(٢) النسع : اليد العريضة و المفصل بين الكف و الساعد، و اسم ريح .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٤) الغريم : الذي يطلب حقه .

(٥) الذميل : السير اللين السريع .

أما للحَوَادِثِ قَلْبٌ رَحِيمٌ ؟
أما يُسْتَقَالُ الزَّمَانُ الْكَنُودُ ؟
أَيُسْتَكْفُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ؟
عَنِ الْأَوْجُهِ الْمُتَوَالِي عَلَيْهَا
لَيَالٍ وَأَيَّامٌ جَهْدِ جُسُومٍ
جُسُومٌ تَطِيرُ بِهِنَّ الْقُلُوبُ
بِأَجْنَحَةٍ رِيَشُهُنَّ الْهُمُومُ
بِكُلِّ هَجِيرٍ لَوِ النَّارُ تُصَلِّي
جَحِيمًا لِأَصْبَحَ وَهُوَ الْجَحِيمُ
كَأَنَّ رَوَاحِلَنَا فِي ضُحَاهُ
صَوَادِي (١) سَمَام (٢) حَادَاهَا السَّمُومُ
وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ تَغَشَّى دُجَاهُ
فَنَامَ وَلَكِنَّهُ لَا يُنِيمُ
كَأَنَّا - وَقَدْ سَدَّ بَايئِهِ عَنَّا
وَهَام (٣) بِنَا الذَّعْرُ - هَامٌ وَبَوْمُ
وَفِي كُلِّ بَحْرٍ - كَمَا قِيلَ - خَلَقَ

(١) صوادي : العطاش .

(٢) سمَام : ضرب من الطير وهو السماني .

(٣) هام : كل حيوان ضار .

صَغِيرٌ يُهَاوِيهِ خَلْقٌ عَظِيمٌ
كَأَنَّا عَلَيْهِ نَجُومٌ أَثَرِيَّا
تَسِيرُ وَقَدْ أَفْرَدَتْهَا التُّجُومُ
نَجَاءٌ^(١) تَمَنَّى ثَمَارَ النِّجَاءِ
وَمِنْ دُونِهِنَّ رَجَاءٌ عَقِيمٌ
فَذَاكَ مَدَى صَبْرٍ حُرٍّ يُضَامُ
وَذَاكَ مَدَى صَرْفٍ دَهْرٍ يَضِيمُ

يقول الشاعر : إنهم هم المغتربون ديون النوى مثل الدائن والمدين الذي يطارد
المدين في كل حين ، وكذلك المغترب يلزمه الفراق .

وينتقل الشاعر إلى وصف تلك الرحلة ، فيشتد به الألم ويبلغ ذروته ويخترق
إشعاعه حتى توهجت لديه ذكريات تلك الرحلة ، ولكن تلك الذكريات حارقة يشوبها
الكدر والقلق الذي يبرز في الاستفهام في قوله :

أَمَّا لِلْحَوَادِثِ قَلْبٌ رَحِيمٌ؟

أَمَّا يَسْتَكْفُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ؟

وكذلك قوله : «عذاب - أليم - هموم - نار - هجير - جحيم - سموم -
ذعر». وكلها دلالات توحى باغترابه النفسي وما يعانيه من عذاب وألم، ولهذا قال:
«فنام ولكنه لا ينام» فعدم النوم دليل على الأرق والقلق الذي يحتضنه.
ويبلغ الحزن من الشاعر مبلغه حيث يقول^(٢) :

(١) نجاء : ما ارتفع من الأرض ، فلم يعله السيل وظننته نجاءك .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

بِكُلِّ حَزِينٍ بَعَالِي الْحُزُونِ

وَمُقَوِّ بِكُلِّ بِلَادٍ قَوَاءٍ^(١)

وَمُسْتَوَهْلٍ حُمٍّ مِنْهُ الْحَمَامُ^(٢)

لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ذَاكَ التَّسَائِي

كَأَنَّ تَجَاوُبَ خُضِرِ الْحَمَامِ

نَشِيجُهُمْ لِيَتَغْنِيَ الْحَدَاءِ

وَقَدْ أَوْطَنُوا أَرْبَعًا لِلْبَلَى

وَقَدْ وَطَنُوا أَنْفُسًا لِلْبَلَاءِ

فهو يخاطب كل حزين مغترب عن وطنه ، ، كل حزين استمع إلى هديل الحمام وأشجانها فأثارت فيه الحنين ، فالخطاب خاص أيضاً.

هذه الأبيات تمثل لنا تفرد الذات القلقة ، فهو هنا لا يخاطب جميع الناس ، وإنما خصص مجموعة متفردة هي تلك التي تجرعت الحزن والاعتراب .

ونجد تشتت ذهن الشاعر وقلقه يبرز في قوله «حزين - حزون - مقو - قواء - حمام - حُمٍّ - حمام - أوطنوا - وطنوا».

(١) قواء : المقفرة الخالية ، والمقوي : المعدم .

(٢) الحمام : الموت .

ويتابع ابن درّاج حديثه عن ألم اغترابه متسائلاً^(١):

فهل آذَنْتَ هَجْرِي أَنْ تَرِينِي
عَوَاقِبَ تَجَلُّو كُرُوبَ الْجَلَاءِ
وهل ظَفَرْتَ هَمِّي مِنْ هُمُومِي
بشَارٍ مُنِيمٍ وَوَتَرٍ^(٢) بَوَاءٍ^(٣)
أَلَمْ يَتَنَاهَ غُرُوبُ الْغَرِيبِ
إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ فِي الْإِنْتِهَاءِ
وَلَمْ أَتَّخِذْ جُنْحَ لَيْلِ الْحَقِ
جَنَاحًا إِلَى نُورِ لَيْلِ السَّوَاءِ
وَلَمْ أَتَزَوَّدْ هَبِيدَ^(٤) الْقَفَارِ
إِلَى بَحْرِ أَرْيٍ^(٥) جَزِيلِ الْعَطَاءِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ ظُلْمِ الْاِكْتِابِ
عَلَى عِلْمٍ بَيْنَ قَرْنِي^(٦) ذِكَاءٍ^(٧)
وَأَلْقَيْتُ يَمِينِي عَصَا الْاِغْتِرَابِ
مِنَ الْأَمْنِ بَيْنَ الْعَصَا وَاللِّحَاءِ^(٨)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٥ .

(٢) وتر : الطالب للثأر ، والموتور : من لم يدرك دام قتيله .

(٣) بواء : عدل ساوى دمه بدمه .

(٤) الهبيد : الحنظل .

(٥) أري : الأري الشهد .

(٦) قرن : الشمس .

(٧) ذكاء : اشتداد .

(٨) اللحاء : القشر .

هل استطاع الشاعر أثناء اغترابه ورحيله أن يتخلص من تلك الكروب والهموم؟
ألم يكن الوقت لانتهاه تغرب ورحيل هذا الغريب واستقراره من غير اغتراب وهموم ،
وترك حياة الارتحال والسير في جنح الليل واجتياز القفار والصحاري؟

أسئلة كثيرة تدور في مخيلة ابن درّاج ، منها:

فهل آذنت هجرتي ؟

وهل ظفرت همتي ؟

ألم يتناه غروب الغريب ؟

هذه الأسئلة تعبر عن واقع ظالم مكتئب يعكس لنا شخصية متوترة مكتئبة ،
ولذلك قال : «فأصبحت من ظلم الاكئاب» .

وهذه الأبيات تخرج نعمة حائرة تجسد معنى التيه والحيرة لتصور شخصية قلقة
مضطربة تحمل بين ضلوعها الهم . فهو بهذه الأسئلة يريد أن يصل إلى إجابة تكشف له
حقيقة مصيره . فالشاعر يعاني اغتراباً نفسياً ولذلك استخدم الألفاظ التالية : «كروب
- هموم - ثأر - غريب - اغتراب - ليل - ظلم - اكئاب» . يقول الدكتور جان
كوهن: «وتشكيل اللغة الجديدة يتأني للشاعر حين يتناول الألفاظ ثم يديرها في نفسه،
حتى إذا ما تلاءمت مع تجربته الذاتية يعيد ترتيبها ووضعها في سياق خاص بها ، وإذا
المفردات من خلال سياقها ذات معانٍ جديدة تقول لنا ما لا تقوله وهي في وضعها
الطبيعي ، إذ إن استخدام الكلمات بأوضاعها القاموسية لا ينتج الشعرية، بل ينتجها
الخروج عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعة جديدة»^(١). والطبيعة الجديدة هنا تصور تغلغل
القلق وسيطرته على ابن درّاج ، ويرسم لنا ابن درّاج في الأبيات التالية صورة من

(١) بنية اللغة الشعرية ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، ص ١٢٩ .

الشعور بالقلق والاعتراب ، ولهذا تبدأ القصيدة بداية مفعمة بالشوق والحنين . يقول ابن درّاج (١):

شَوْقٌ شَدِيدٌ وَوَصْلٌ مِنْ حَبِيبَيْنِ
فَلَيْتَ شِعْرِي مَا خَطَبُ الْعَذُولَيْنِ (٢)
وَلَيْتَ شِعْرِي إِذْ لَمَّا وَشِعْرُهُمَا
أَفِي السُّوَيْدَاءِ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ عَيْنِي
وَهَلْ أُمَكَّنُ مِنْ أُذُنِيَّ عَذْلَهُمَا
فِيهَا إِذَا قَامَ عُذْرِي فِي الْعِذَارَيْنِ
وَقَدْ تَعَبَّدَنِي رَبُّ الْهَوَى فِيهِ
أَعُوذُ مِنْ مُشْرِكٍ فِيهِ إِلَهَيْنِ
وَلَيْسَ ذَنْبِي عِنْدَ الْعَاذِلِينَ سِوَى
أَنِّي أَرَى فِي رِضَاهُ ثَانِيًا اثْنَيْنِ
وَكَمْ طَلَبْتُ بِهَا الْأَيَّامَ مَجْتَهِدًا
طَلَابَ رَبِّ نَفِيسِ الدِّينِ بِالْأَيْنِ
وَكَمْ بَدَلْتُ لَهَا فِي الشَّوْقِ مَكْتَبًا
غُرُوبَ جَفْنَيْنِ مَا تَشْكُو مِنَ الْأَيْنِ
بَدَمْعِ عَيْنِ أَبِي مَا فِي الضَّمِيرِ لَهُ
حَتَّى يُصِيرَهُ دَمْعًا بِلَا عَيْنِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٩٥ .

(٢) العذل : اللوم والإحراق .

إذا لم يجد ابن درّاج مخرجًا من ذلك القلق الذي سيطر عليه غير الشوق والحنين الذي يفيض باستدعاء الذكريات؛ ليخلق جوًّا من التوازن العاطفي ، ليعوض فيه عن نكسات الحاضر القلق. إلا إنه بالرغم من شوقه ما يزال الاكتئاب يحيط به ، وما يزال يشكو من الأنين وسكب الدموع ، فالشاعر ما يزال يشعر بالتشتت والاغتراب .

يقول الدكتور أحمد هيكّل : «نرى من ملامح نفسية ابن درّاج شعوره دائمًا بالحاجة إلى الأمن، وإحساسه أبدًا بضرورة الاستقرار، وفزعه الشديد من التشتت والتشرد والضياع»^(١).

ويحاول ابن درّاج أن يخلق جوًّا مفعماً بالطمأنينة والأمل علّه يستطيع أن يتخلص من قلقه واضطرابه، فهل استطاع ؟ يقول^(٢) :

كَذَا يَنْتَهِي الْبَدْرُ الْمَنِيرُ إِلَى الشَّمْسِ
وَيَمْتَزِجُ النَّفْسُ الْكَرِيمُ بِالنَّفْسِ
وَتَلْتَحِمُ الْأَنْسَابُ مِنْ بُعْدِهَا
وَتَدْنُو الْقُلُوبُ الْمُوحِشَاتُ إِلَى الْأَنْسِ
وَيُجْمَعُ شَمْلُ الْوَصْلِ مِنْ فُرْقَةِ الْقَلَى
وَيُرْفَعُ بَنْدُ الْوَصْلِ مِنْ مَصْرَعِ النِّكْسِ
كَجَمْعِ (سُلَيْمَانَ) النَّبِيِّ بِصَهْرِكُمْ
ذَوِي يَمَنٍ وَالشَّامِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ
وَتَأْلِيفِ (ذِي الْقَرْنَيْنِ) إِذْ هُدِيتْ لَهُ
كَرِيمَةُ (دَارِ) دَعْوَةِ الرُّومِ وَالْفَرَسِ

(١) دراسات أدبية ، د. أحمد هيكّل ، ص ٢٥٤ ، ط. الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠ م.

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

فمن خلال ثقافته الدينية يبرز ملامح اغترابه النفسي ، فاستدعاء تلك الشخصيات الدينية والتي كان جمعها مفترقاً ثم ائتلف ، بينما كان ابن درّاج مفترق الشمل ضائعاً متشرداً ، فهو على نقيض ما هم عليه .

فبينما كان شمل النبي سليمان **u** وكذلك ذي القرنين مؤتلفاً ومجتمعاً ، كان شمله هو مفترقاً ومنقطعاً. هذا الإحساس كما قلنا سابقاً حمله إلى أن يخلق جواً مفعماً بالأمل بعد اليأس فقال إن النفوس والأنساب مهما بلغت بها التفرق لابد أن يأتي يوم وتجتمع فيه كما اجتمع شمل سليمان **u** وذو القرنين.

ولكن فزع ابن درّاج من التشتت والضياع كما وصفه بذلك الدكتور أحمد هيكل^(١) تمثل أيضاً في الأبيات بالرغم من محاولاته إخفاء هذا الإحساس من خلال استدعاء الشخصيات ومن خلال كثرة التضاد ، كقوله : «البدر - الشمس - بعد - دنو - موحش - مؤنس - يجمع - فرقة - الجن - الإنس - اليمن - الشام - الروم - الفرس» دليلاً على قلقه واضطرابه.

ويقف ابن درّاج في هذه الأبيات على تلك الأطلال الموحشة التي خلت معاهدها من الأحباب قائلاً^(٢):

وَمِنْ دُونِنَا أَنْسَاتُ الدِّيَارِ

نَهَابَ الْحِمَى^(٣) ، مُوحِشَاتِ الطُّلُولِ

(١) دراسات أدبية ، د. أحمد هيكل ، ص ٢٥٤ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

(٣) الحمى : هي مواضع بها كلاً تحمى من أن يرعى فيها الناس محافظة عليها .

يُهَيِّجُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيحِ

مَدَامَعَ شَجْوِ السَّحَابِ الْمُخِيلِ

وَتَلَطِّمُ فِيهَا أَكْفَ الْبُرُوقِ

خُدُودَ عِرَاصٍ عَلَيْنَا تُكُولُ^(١)

تَظَلِّمُ مِنْ هَاطِلَاتِ الْغَمَامِ

وَتَشْكُو مِنَ الرِّيحِ جَرَّ الذُّيُولِ^(٢)

فالطلول موحشة تهب عليها الرياح ، تلك الرياح كانت تهيج في ابن درّاج الزفير والألم ، فتسيل دموعه بغزارة ، وجسد ابن درّاج هذه الصورة في السحاب ، فجعله يشجو ويدمع ، وجعل البرق كفاً يلطم به الخدود ، وهذه الخدود هي خدود السحاب. هذا القلق وهذا الحزن جسده ابن درّاج في الطبيعة ، فجعلها تعاني ما يعانيه الشاعر ، ومما يعكس هذا القلق أيضاً استخدامه التضاد في قوله «آنسات - موحشات» وقوله: «زفير - شجو - لطم - تكول - تظلم - تشكو» مفردات تضج بمعاني الألم والحزن . ويصف ابن درّاج إحدى أسفاره وما كان يحيط بهم من خوف ورعب ، فيقول^(٣):

أَرْحَلِيَّ مَحْمُولٌ عَلَى الْعُتْقِ النَّجْبِ

يَوْمُكَ ، أَمْ سَارَ عَلَى الْقَتْمِ^(٤) الْتُكْبِ^(٥)

(١) عراص : هو من السحاب ، وهي ما اضطرب فيها البرق ، أي الذي لا يسكن برقه.

(٢) الذيول : ما انسحب منها على الأرض ، أو ما تتركه في الرمال على هيئة الرأس .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٤) القتم : الغبار الكريه مع السواد .

(٥) نكب : هو ماجاء بين ريحين .

يقود بها هادٍ إلى الأمر والمُنَى
ويَحْذُو بها حادٍ على الخوفِ والرُّعْبِ
غرائبُ ممَّا أغربَ الدهرُ أَطْلَعَتْ
عليك هلالَ العلمِ من أفقِ الغربِ
طوتْ فُلُواتِ الأرضِ نَحْوَك ، وانْطَوَتْ
كَبَدْرٍ إلى مَحَقٍ بِشَهْرٍ إلى عُقْبِ
كُؤُوسًا تَسَاقَتْهَا اللَّيَالِي تَنَادُّمًا
فجاءتْكَ كالأقداحِ رُدَّتْ عن الشُّرْبِ
تَعَاوَرَهُنَّ البرُّ والبحرُ مثلما
تُرَدُّ بأيدي الرُّسُلِ أجوبةَ الكُتُبِ
فليلٌ إلى صبحٍ ، وصبحٌ إلى دُجَى
وكرْبٌ إلى رَوْحٍ^(١) ، وروحٌ إلى كَرْبِ
وسهلٌ إلى حَزَنٍ ، وحزنٌ إلى فلا
وسُهْبٌ إلى بحرٍ ، وبحرٌ إلى سُهْبِ

كان الرحيل على أجود أنواع النوق وأفضلها، وهي تسير بهم في فلوات الأرض من أجل تحقيق طموحهم ، ومن أجل تحقيقها لابد من مواجهة الخوف والتعب ، ولذا وجب عليهم السير بسرعة مذهلة ، وبسير لا ينقطع ، يصلون الليل بالنهار ، فتقلب معهم الصعاب من عسر إلى يسر ، ومن ارتفاع إلى انخفاض. هكذا كان رحيلهم صعباً ومشقة وقلقاً ، وهو ما يبرز في التضاد في قوله : «البر - البحر - ليل - صبح - سهل

(١) روح : الروح الاستراحة والراحة .

- حزن» ، وينعب غراب البين معلناً عن بداية رحلة أخرى وقلق آخر. يقول ابن درّاج^(١):

نَعَبَ الْغُرَابُ بِهَا فَطَارَ بِأَهْلِهَا
سَرَبًا عَلَى مِثْلِ الْغُرَابِ النَّاعِبِ
خَرَقَ الْجَنَاحَ إِلَى الرِّيحِ مَضَلًّا
بِشَمَائِلِ^(٢) لَعِبَتْ بِهِ وَجَنَائِبِ
يَهْوِي بِذِي طُمْرَيْنِ مَزَقَ لِبْسَهَا
أَيْدِي لَوَاهِفَ لِلنَّفُوسِ نَوَادِبِ^(٣)
فِي غَوْلٍ ذِي لُجَجٍ لِبَسْنِ دِيَاغِيَا
تَرَكَ الْحَيَاةَ لَنَا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ
قَاسَيْتُهُنَّ غَوَارِبًا كَغِيَاهِبِ^(٤)
وَسَرَيْتُهُنَّ غِيَاهِبًا كَغَوَارِبِ
نَجَلُوا ظِلَامَ اللَّيْلِ قَبْلَ صَبَاحِهِ
بَلْظَى زَفِيرٍ أَوْ بِرَأْسِ شَائِبِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٩١ .

(٢) شمائل : نوع من الرياح .

(٣) نوادب : الباقيات على الميت .

(٤) غياهب : شدة سواد الليل .

وهكذا كانت حياة ابن درّاج القسطلّي رحيلاً وزفيراً ودموعاً، وكل هذا يصور
لنا اغترابه النفسي. كما يبرز القلق في التكرار في قوله : «غواربا كغياهب - غياهب
كغوارب» ويعاود الحنين ابن درّاج مرة أخرى فيقول^(١):

فيا ضلالَ نُجومِ الليلِ إذْ عَدِمْتُ
بَدَرَ السَّمَاءِ وفي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ
وويلَ حَنِينِ ظَبَاءِ الْفَقْرِ إذْ فَقَدْتُ
غَزَاهُنَّ ، وفي رَوْضِي مراتعه
مَجَالُ طُرْفِي وما حازَتْ لَوَاحِظُهُ
وَحَرَّ صَدْرِي وَمَا ضَمَّتْ أَضَائِعُهُ
وَالطَّرْفُ مَرَّآةٌ عَيْنِي أَسْتَدِلُّ بِهِ
عَلَى الصَّبَاحِ إِذَا مَا خِيفَ سَاطِعُهُ
جَوْنًا أَزِيدُ بِهِ لَيْلَ الرَّقِيبِ دُجَى
وَيَسْتَشِيرُ لِي الْإِصْبَاحَ لَا مِعُهُ
فَبَاتَ يَعْجَبُ مِنْ ظَبِي يُصَارِعُنِي
وَقَدْ يَحِنُّ عَلَى لَيْثٍ أَصَارِعُهُ
وَمَا رَأَى قَبْلَهَا قَرْنًا أَعَانِقُهُ
إِلَّا وَودَّعَ نَفْسًا لَا تُرَاجِعُهُ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٥ - ١١٦ .

حَتَّىٰ بَدَأَ الصُّبْحُ مُشْمَطًا^(١) ذَوَائِبُهُ

يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًّا أَكَارِعُهُ^(٢)

يستدعي ابن درّاج ذكرياته في دياره حينما يشاهد ظباء القفر ، ولكن ما يلبث حتى يعود إلى حاضره الذي يعيشه لحظةً بلحظة ، وهو الرحيل ، فابن درّاج قد واجه في رحيله الكثير من الأخطار ، فتارة يصارعه ظبي وتارة يحن عليه ليث يصارعه ، هكذا يقضي ليلاليه حتى ينجلي الليل ، ويسطع ضوء الصباح ، فإذا كان ابن درّاج قد سار في الفلوات وحيداً منفرداً حتى أصبح لا يخشى من مقابلة ليث يصارعه ، فالمتنبّي يجوب الفيافي وحيداً حتى صارت الجبال تتعجب من كثرة ما تلقاه وحيداً منفرداً، يقول^(٣) :

صَحِبْتُ فِي الْفُلُوتِ الْوَحْشَ مُنْفَرِدًا

حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ^(٤) وَالْأَكُمُ

هكذا عبّر الشعراء عن غربتهم ووحدهم ، فاختلّفت الأساليب والعبارات مع أن الإحساس والشعور واحد، ولكن نلاحظ وجود تفاوت في درجة الإحساس بالغربة والاعتراب حتى إننا لنجد ابن درّاج في الأبيات التالية ، لا يهاب من الوحوش ، ولا يخشى المهالك والمصائب التي يحاول كل مرء تجنب الوقوع فيها ، بل إننا نرى نقيض ذلك تماماً ، فابن درّاج يأنس ويسعد بالمهالك والأهوال ، وهذا إن دلّ لا يدل إلا على أنه شخص قد ألف المهالك ، وصقلته الصعاب والخطوب ، ودليل على كثرة تغربه .

(١) مشمطاً : خلط سواده بالبياض و الشمط الصبح .

(٢) أكارعه : أي انكشف ما دون ركبته .

(٣) ديوان المتنبّي ، ص ٦٩٧ ، ج ٢ .

(٤) القور : جمع قارة وهي أكمة صغيرة في الحرة من الأرض .

يقول ابن دراج (١) :

فَهَلْ أَنْتَ يَا زَمَنَ الرَّيِّعِ مُبْلَغٌ
بِالْمُغْرَيْنِ أَحَبَّتِي وَأَقَارِبِي
إِنَّ الرِّيعَ لَدَيَّ شِيْمَةٌ قَاطِنٌ
وَحَيَا الْعَمَامِ عَلَيَّ دِيْمَةٌ دَائِبٌ
مِنْ بَعْدِ مَا غَمَّ الصَّبَاحُ لِنَاطِرِي
وَاشْتَفَّ مِنِّي الْبَحْرُ جَرْعَةً شَارِبٌ
وَأَنْسْتُ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى لَمْ أَبْلُ
أَلِقَاءُ أُسْدٍ أَمْ لِقَاءُ ثَعَالِبٍ
كَمْ أَنْشَبْتُ فِي الْخُطُوبِ مَخَالِبًا
حَتَّى انْشَبْتُ عَنِّي بَغِيرَ مَخَالِبٍ
وَشَفَيْتُ سُمَّ عَقَارِبَ بِأَسَاوِدٍ
وَدَفَعْتُ سُمَّ أَسَاوِدَ بِعَقَارِبٍ
حَتَّى نَزَفْنَ سُومَهُنَّ فَلَمْ يَرَعُ
مَنْ نَافِثَاتِ السَّمِّ لَيْلُ الْحَاطِبِ

القسطلي قد ألف حياة الترحال ومواجهة الصعاب ، فهو هنا يأنس
بالأهوال حتى إنه لم يعد يهتم بما سيواجهه من أسود وثعالب وعقارب وغيرها
من الحيوانات .

(١) ديوان ابن دراج ، ص ١٤٠ .

ويأنس ابن درّاج بالمهالك ، يقول^(١) :

تُذَكِّرُنَا دَوَاهِي بَدَلَّتُنَا

مِنَ الْأَكْنَانِ^(٢) ضَا حِيَةِ الْمَوَامِي^(٣)

نَغَاوِرُ قَفَرَهَا وَاللَّيْلُ دَا جٍ

وَنَعْسِفُ بَحْرَهَا وَالْمَوْجُ طَامٍ

وَنُؤْنِسُ بِالْمَهَالِكِ كُلَّ نَفْسٍ

تَوَحَّشَ لِلْغُصُونِ بِلَا حَمَامٍ

ويصف ابن درّاج اغترابه النفسي ، واغتراب أبنائه في إحدى رحلاتهم مجسداً مدى القلق الذي انتابهم ، يقول^(٤) :

جُسُومًا أَقْلَّتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ تَدَعْ

لَهُنَّ مِنْ الْأَرْوَاحِ إِلَّا أَقْلَهَا

نَجَائِبُ^(٥) وَصَّاهَا الْجَدِيلُ^(٦) وَشَدَقَمُ

بِأَلَا تَمَلَّ اللَّيْلَ حَتَّى يَمَلَّهَا

فَتَخْلِقُ بِالْإِرْقَالِ^(٧) ثَوْبَ شَبَابِهِ^(١)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) الأكنان : البيت .

(٣) الموامي : المفازة الواسعة الملساء ، وهي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ١٨٧ .

(٥) نجائب : هي نوع من الإبل .

(٦) جديل وشدقم : اسم فحولين من فحول إبل العرب ، وهو فحول للنعمان بن المنذر .

(٧) الإرقال : ضرب من العَدُوِّ فوق الخبب .

وَتَتْرُكُهُ بِالْأَفْقِ أَشْيَبَ أَجْلَهَا
تُرَاوِحُهُ مِنْ خَلْفَةِ الْفَجْرِ طَرَّةً
كَمُعْتَرِضِ الشَّقَرَاءِ^(٢) تَنْفُضُ جُلَّهَا^(٣)
فَكَمْ حَمَلَتْ مِنْ حُرِّ قَلْبٍ مُوَلِّهِ
يُيْلِغُ عَنْهُ النَّجْمُ قَلْبًا مُوَلِّهَا
وَكَمْ ضَمَّ ذَاكَ اللَّيْلُ مِنْ أُمَّ شَادِنٍ
أَضَلَّتْهُ فِي جَوْفِ الْفَلَا وَأَضَلَّهَا
وَقَدْ بَلَغَ الْجَهْدُ الْقُلُوبَ حَنَاجِرًا
تُبَشِّرُهَا أَنَّ التَّنَامِيَّ مَدَى هَا

الرياح تقلهم فتنقلهم من مكان إلى آخر حتى أصبحوا لا يملون الرحيل والإدلاج
في الليل ، بل صار الليل هو الذي يملهم . وهذا دليل على كثرة رحيلهم ، وكثرة
معاناتهم التي بلغت الحناجر ، وتزداد قوة التفجع كلما قرر الرحيل ، يقول^(٤) :

وَأَفْجَعُ بِالنَّوَى فِي دَارِ سَفَرٍ
فَكَيْفَ نَوَى عَلَى دَارِ الْمَقَامِ

ويبرز القلق كلما ساروا في ظلمة الليل إلى الصباح من غير أنيس وجليس ، يقول^(٥) :

(١) شبابه : في عمر النضوج .

(٢) الشقراء : الأشقر من الدواب .

(٣) جُلَّهَا : من جلت الناقة إذا أسنشت .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٤ .

(٥) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٢ .

ولو بَصُرْتُ بي والسَّرَى جُلَّ عَزْمَتِي

وَجَرَسِي^(١) لِحَنَانِ الْفَلَاةِ سَمِيرُ^(٢)

وَأَعْتَسَفُ الْمَوْمَاةَ^(٣) فِي غَسَقِ الدُّجَى

وَلِلْأُسْدِ فِي غِيلِ الْغِيَاضِ زَنْزِيرُ

ويتحدث ابن دراج عن همومه وقلقه ، يقول^(٤) :

وَمُعَرَّبٌ تَبْكِي السَّمَاءُ لِشَجْوِهِ

مَنْنِي وَتَلْتَهِفُ النُّجُومُ لِلْهَفِ

لَوْ لَا قِصَاءُ فِرَاقِهِ وَطَلْبُهُ

فِي غَيْرِ جَفْنِي مَائِلًا لَمْ تُلْفِهِ

أَبْنَى لَحَ الْفَجْرِ إِذْ بَلَغَ الدُّجَى

أَمَدًا فَسَلَّ الْهَمُّ إِنْ لَمْ تَشْفِهِ

وَتَرَكْتُ غَوْلَ الْبَرِّ مُعْدِمَ أَنْسِهِ

مَنْنِي وَهَوَلَ الْبَحْرِ فَاقِدَ الْفِهِ

فإذا كانت السماء تبكي لتشارك ابن درّاج حزنه ، فنجد عند المتنبي الحمام يحزن ويتألم لفراق أحبته ، ولكن حزنه ذلك لم يصل درجة ألم وعذاب المتنبي ؛ لأنه لو وصله لساعده الشجر على البكاء ، يقول^(١) :

(١) الجرس : هو الصوت الذي يأنس به .

(٢) سمير : أنيس .

(٣) المومة : الأرض الواسعة .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٥٨ .

يَجِدُ الْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجَدِي لَا بُرَى

شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنُوحُ

إذا ابن درّاج جعل الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية في ألمه وحزنه وفرحه بقاء
الأحبة . ويصف ابن درّاج مدى إحساسه بالضيق والحسرة ، فيقول^(٢) :

وَكَا نَ ضَايَا حَسْرَةً وَتَنَدُّمًا

إِذَا لَمْ يُفِدْ شَيْئًا وَلَمْ يُعْنِ شَيْئًا

وَأَصْبَحْتُ فِي دَارِ الْغِنَى عَنْ ذَوِي الْغِنَى

وَعُوضْتُ فَاسْتَقْبَلْتُ أَسْعَدَ يَوْمِيَا

سِوَى حَسْرَتِي عَرَضَ وَوَجْهٍ تَضَعُضَعَا

لِقَارِعَةِ الْبُلُوَى وَكَأَنَا عَتَادِيَا

وَاللِّسْتِرِ وَالصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَأْخِرَا

فَأَمَّهُمَا حِرْصِي وَكَأَنَا إِمَامِيَا

فِيَا عَبْرَتِي سُحِّي^(٣) لَعَلِّي مُبَلِّلُ

يَحْرِيكِ مَا أَنْزَفْتُ مِنْ مَاءٍ عَيْنِيَا

وَيَا زَفَرَتِي هَلْ فِي وَقُودِكَ جَذْوَةٌ

تُنِيرُ لَنَا صُبْحًا ثَنَاهُ الْأَسَى نُسِيَا

(١) ديوان المتنبي ، ، ص ١٨٥ ، ج ١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٣) السح : سحّ الماء بنفسه أي : سال ، سحّ هو الماء : صبّه .

ويقول (١) :

وإن غَزَتِ الآمالُ نفسي صرمتُها
بصارِمٍ يأسٍ في يمينٍ تقيٍّ حُرٍّ
ولكنْ أبي ما في الفؤادِ مِنَ الأسى
وأعْضَلَ ما بينَ الضُّلوعِ مِنَ الجَمْرِ
وما لَفَّ عَهْدُ اللهِ في ثوبٍ غُرْبِي
من الأنساتِ الشَّعثِ والأفرحِ الزَّعرِ (٢)

لقد سيطر اليأس والقلق على القسطلي حتى إنه عزم على أن يقطع الآمال والأحلام فيقطعها باليأس . وهذا دليل قاطع على شعوره بالضياح واليأس ، ومدى تعمق الاغتراب النفسي فيه .

ويصور - أيضاً - مدى إحساسه بالذل والكآبة ، يقول (٣) :

بما فَتَّ فيهنَّ رميُّ العُداةِ
وما غَضَّ منهنَّ ذلُّ الغريبِ
فإن رَمَدَتْ فَقَلِيلٌ لَعَيْنِ
يُقَلِّبُهَا شَجْوُ قَلْبٍ كَيْبِ
وإن قَدَحَتْ بِالْحَشَا في الحَشَا
فَرَزْدًا ضِرَامٍ لِنَارِ الْكُروبِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦١ .

(٢) الزعر : هو كل ما خف شعره أو ريشه من الحيوان والطيور .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩٩ .

تُوجِّهُهَا حَسْرَاتُ التَّنَاسِي

وَتَنْفُخُهَا زَفَرَاتُ النَّحِيبِ

هذه هي المضامين التي شكلت الاغتراب النفسي عند ابن درّاج ، والتي تمثلت في حدة القلق ، ومدى الإحساس بالضيق ، والذي حاول الشاعر إبرازه عن طريق وصف الأسفار . كما حاول الشاعر إبراز مدى شعوره بالذلّ والتشرّد والإحساس بالغربة والاعتراب ، فقد سلك الشاعر طريقتين ، وهما :

١ - وصف نفسه بالذليل والغريب ، وإظهار مدى الشعور بالضيق والقلق والاكتئاب .

٢ - محاولة الشاعر لجعل مظاهر الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية تشعر بذله وغربته ، فتحزن كما يحزن .

ثانياً - الغربة السياسية

قبل الخوض في الحديث عن الغربة السياسية آثرنا أن نبدأ حديثنا بإيراد خبر عن الفتنة البربرية ؛ لتعلقها الشديد بالناحية السياسية ، وباعتبارها الدافع الأول الذي دفع القسطلبي نحو الغربة والاعتراب بصفة عامة ، وبالغربة السياسية بصفة خاصة ، ولكن كثرة الأحداث وتتابعها جعلنا نؤثر الإيجاز في الحديث عن هذه الفتنة البربرية^(١) ، مما ليس في هذا الموضع من بسطه .

إضاءة سريعة موجزة

لقد قامت الدولة الأموية الأندلسية سنة (٧١١ هـ - ٧٥٦ هـ) حينما وطأ عبد الرحمن الداخل قرطبة ، وقتل يوسف الفهري ، فأسس الداخل دولته ، وبعد وفاته تولى الرياسة عبد الرحمن الناصر ، ثم المستنصر ، ثم هشام المؤيد ، (وعندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه ، وكان عند موته غلاماً في الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل ، فانفتح الباب للوزراء والطامعين)^(٢) ، وكان من بين هؤلاء الطامعين محمد بن أبي عامر ، الذي لقب نفسه بالحاجب المنصور ابن أبي عامر ، فاستولى على الملك وقاد معارك عديدة ، فقد تميّز المنصور بموهبة سياسية عظيمة جعلته يحطم البيت الأموي وينشئ البيت العامري ، يقول عنه مصطفى صادق الرافعي : « فقد كان المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس سنة (٣٦٦ هـ) وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم

(١) للوقوف على دقائق هذه الفتنة انظر : الذخيرة ، لابن بسام ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٣ ، وما بعدها ، وانظر :

كتاب فجر الأندلس ، لحسين مؤنس ، ص ١٥٢ .

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس ، لحسين مؤنس ، ص ٣٩٠ .

وتعصبهم في الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرّق من كل قبيلة ، فانحسبت بما فعل مادة الفتن بالأندلس التي كانت تثيرها تلك الجاهلية الرقيقة»^(١) .

« فأحدث ذلك اضطرابات وفتن كثيرة ، فرفعت الحروب الأهلية راياتها وتتابع الأحداث إلى أن توفي المنصور سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠٢م) وخلفه ابنه عبد الملك المظفر ، سنة (...هـ) وقد عرف بسوء الطباع مما جعله مهدداً بالأخطار ، فقد كان الكثير من الناس في قرطبة يتربصون به وبآل عامر ، ولكي يستعيد مكانة آل عامر أراد أن يخطو خطوات والده ، فقام بغزوات كثيرة وبعدها أصابه المرض فتوفي سنة (٣٩٩هـ - ١٠٠٨م) ، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور ، وكان - أيضاً - شاباً طائشاً انعدمت فيه صفات القائد المحنك ، ولذلك ضاق الناس من استبداد العامريين للحكم ، فقامت الثورات ، وتجمع الناس في قرطبة وهاجموا مدينة الزاهرة ، وقيل أن عبد الرحمن أمر القادة بلبس العمام البربرية ، وترك أغطية الرأس الأندلسية ، فرأى القادة والناس أن هناك مؤامرة تُدار لإعادة الدولة الأموية.

وحينما سمع أصداء تلك الأصوات أمر بتجهيز جيش لغزو قشتالة، فمنعه الناس من فعل ذلك ، ولكنه أصرّ على موقفه ، ولكن محاولته باءت بالفشل بسبب سوء الأحوال الجوية ، وهروب النصارى إلى طليطلة .

ومن بين البقية الباقية من بني أمية قرر فئة منهم انتهاز فرصة غياب عبدالرحمن عن قرطبة فأثاروا بذلك الفتن والدسائس ، وقد ساعدتهم في ذلك والدة عبد الملك المظفر ، والتي كانت تعتقد أن عبد الرحمن هو الذي قتل ابنها، فاتصلت بمحمد بن عبد الجبار ، الذي وضع خطة للإطاحة بعبد

(١) تاريخ آداب العرب ، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٣٣ ، الباب (٧)، وللوقوف على حياة

المنصور وسياسته الحربية انظر البيان المغرب لابن عذاري ، ج٢، ص٢٨٦، ج٣، ص١٣.

الرحمن، فقتله رجاله، وباع محمد بن عبد الجبار نفسه ، واتخذ لقب المهدي، وباع قريباً له يُسمى سليمان بن هشام ، فتجمع الناس على المهدي معتقدين بأنه يستطيع تسيير أمور الدولة ، ولكنه خيب ظنَّهم فيه ، فكثرت الانقلابات والفوضى والنهب والسرقة ، وإيذاء الناس ، والانتقام من العامرين والبربر ، مما جعل البربر ينقلبون عليه ، فاقتحموا قرطبة واختاروا لأنفسهم خليفة لهم وهو سليمان بن هشام ، الملقب بالمستعين ، ولم يستطع محمد بن عبد الجبار المهدي الصمود أمام قوة البربر ، فاستنجد بالنصارى وخرج بجيش ، التَّقَى فيه بالبربر ولكنهم انتصروا عليه وحصدوا أرواح كثيرة من الأندلسيين وفرَّ منهم نفرٌ وعلى رأسهم واضح العامري ، واستقروا في مدينة دانية، واقتحم البربر مدينة قرطبة، فقتلوا الكثير من الناس ، وأصبح زاوي بن زيري هو الأمر والنهي .

وبعد فترة استطاع واضح العامري طلب العون والمساعدة من بعض الولاة فأعطوه جيشاً حارب به جيش البربر الذي كان يرأسه سليمان المستعين.

وكان جيش واضح ضمن جيش المهدي ، فالتقى جيش محمد بن عبد الجبار المهدي ، بجيش البربر ، وانتصر جيش المهدي على البربر ، فعاد زيزي إلى قرطبة يجر أذيال الهزيمة ، ولكن محمد بن عبد الجبار المهدي تتبع الجيش البربري المهزوم ، فاستطاع البربر أن يقتلوا مجموعة كبيرة من جيش المهدي ، فدخل سليمان المستعين قرطبة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع الاعتماد على البربر ، وفشل في جمعهم مرة أخرى حوله ؛ لأنه قام بقتل هشام المؤيد سنة (٤٠٣هـ - ١٠١٣م) ولذلك كان الجو مفعماً بالفوضى والرهبنة والغدر ، فظهر بيت يسمى بني حمود ، وهم من الصنهاجين ، فولى سليمان المستعين عليّ بن حمود في الخلاف ، وتحالف مع خيران العامري ، وهو زعيم

صقلي ، استقر في المرية ومرسية ، فاقترحوا قرطبة وقتلوا سليمان المستعين ، وساد نوع من الفوضى في هذه الفترة . ولكن الأمر لم يلبث طويلاً فقتل علي بن حمود سنة (٤٠٨ هـ - ١٠١٨ م) ، وخلفه أخوه القاسم .

أما بقية المدن الأندلسية فقد تولى خلافتها رجال من بني عامر ، وبذلك بدأ عصر الطوائف ^(١) هذه هي أحداث الفتنة البربرية وحكامها ، وتعتبر هذه الفتنة من أهم الأحداث السياسية التي تركت أثراً واضحاً على الحياة الأندلسية بصفة عامة ، وعلى الناحية الأدبية بصفة خاصة . فالناحية السياسية « تبدو قائمة ومغايرة لما هو مشهور ومعروف عن حياة الأندلس ، وما فيها من حضارة ورفاهية ورقي تملأ صفحات التاريخ ، ولكن هذه الصورة المشرقة كانت تكمن خلفها صورة أخرى أو الوجه الآخر للعملة البراقة التي كثيراً ما وردت في المصادر والمراجع التاريخية في ثنايا السطور وهوامش الصفحات حتى كادت تختفي ، لكن مع ذلك فهي موجودة ، ودليل وجودها هو شعر الغربة الذي هو نبت قد نما وتغذى على هذه الأوضاع التي دفعت الشعراء دفعاً إلى غربتهم عن أوطانهم » ^(٢) .

« وطبيعي أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة المبيرة على نفوس الناس ، فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعهما بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة والبحث عن المستقر، والناس مختلفون في التماس راحة قلوبهم ، والبحث عما يقر أنفسهم ، وذلك لاختلاف طبائعهم وظروف حياتهم ، فمنهم من يجد راحته في إغراق همومه في الكأس وإفناء متاعبه في الملذات ، ومنهم من يجد استقراره في الهروب من قلقه إلى الانطواء والفرار من

(١) انظر معالم تاريخ المغرب و الأندلس ، د. حسين مؤنس ، ص ٩١ وما بعدها بتصرف .

(٢) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف علي دغرور ، ص ٧٧ .

نفسه إلى العزلة ، ومنهم من يرى الراحة والاستقرار في اللجوء إلى ذوي السلطان»^(١) .

فظهر الشعراء المادحون المتقلبون المتجولون على أبواب الملوك والأمراء ، ومن بين الملوك الذين طرق الشعراء أبوابهم ابن أبي عامر الذي أشرنا إليه من قبل ، فقد « دانت له الأندلس كلها ، ولم يضطرب عليه شيء من نواحيها ، وكان محباً للعلوم ، مؤثراً للأدب ، مفرطاً في إكرام من يُنسب إلى شيء من ذلك ، ويفد عليه متوسلاً به »^(٢) .

وكان من مشاهير الشعراء الذين وفدوا عليه شاعرنا القسطلبي الذي كان كما قال عنه ابن بسام : « ممن طرحت به الفتنة الشنعاء ، واضطرتته إلى النجعة ، فاستقرى ملوكها أجمعين ، ما بين الجزيرة الخضراء ، فسرقسطة من الثغر الأعلى ، يهز كلاً بمدحيه ، ويستعينهم على نكبتة ، وليس منهم من يصغي له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من علقه ، وهو يخبطهم خبط العضة بمقولة فيصمون عنه »^(٣) .

ابن درّاج مدح جميع الملوك في تلك الفتنة ، ولكنه لم يجد منهم إلا الغدر والخيانة .

ويقول عنه إحسان عباس : « فقد حولته الفتنة إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل »^(٤) . ابن

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكمل ، ص ٣٤٩ .

(٢) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٤٨ .

(٣) الذخيرة ، لابن بسام ، ص ٦٠ ، ق ١ ، م ١ .

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢١٣ .

درّاج من الشعراء الذين تأثروا بالفتنة البربرية ، هذه الفتنة جعلته ينتقل من مكان إلى آخر ، ومن أمير إلى آخر ، مادحاً لهم بأنهم قد آوؤا غربته، وأبعدوه هو وأبناءه عن حياة التشرد والاغتراب ، ولكن ما يلبث القسطلبي حينما تثار الفتن أن يعود إلى الانتقال وإعادة الكَرَّة مرة أخرى ، أو إذا « كان العطاء هزياً لا يشجع الشاعر على الاستمرار في مدحه يجعله يبحث عن مجزل له العطاء »^(١) .

هكذا كانت حياته الانتقال والترحال ، مما جعله يفتقر إلى الأمن ، والهدوء ، وجعله يبحث عن الظل القوي ، واليد القوية الحانية عليه ، والتي تحميه من غدر الأيام . وهذا ما جعله - أيضاً - يكثر المديح حتى « صار المدح لغذاء روحه كالمالح لطعام جسمه »^(٢) ، ولكن عدم وجود الآذان الصاغية له أمرٌ جعله يشعر بأنه ضيف غريب عن ذلك الأمير أو الملك الذي يمتدحه ، ومن ذلك قوله^(٣) :

وَصَرَّتْ بِهَا أَقْلَامُ ضَيْفِكَ صَرَّةً

تَصَرَّ لَهَا الْآذَانُ بَصْرَى وَجَاسِمٌ^(٤)

(١) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف علي دغرور ، ص ٦٦ .

(٢) تاريخ آداب العرب ، لمصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٥١ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٦ .

(٤) بُصْرَى : قصد هنا البصرة ، والبصْرَى : هي أرض حجارتهما حص وجاسم . موضع بالشام .

ويُقصد بأقلام الضيف درره الشعرية التي ألقاها على ذلك الحاكم وسمعه صرّة
من الناس، وربما قصد بتلك الصرة أو الجماعة الوزراء والقضاة ، أو ممن كان في حضرة
ذلك المجلس ، ولكن صوت تلك القصائد قد تجاوز آذان تلك الجماعة ، ووصل إلى
جميع أرجاء البلاد .
وقال أيضاً^(١) :

وَأَنْ يَسْمَعُوا مِنْ ضَيْفِهِ فِي ثَنَائِهِ

غَرَائِبَ حَلَى مِنْ جَوَاهِرِهَا الدُّنْيَا

وإذا نظرنا إلى معنى (السياسة) وجدنا أنها تعني : القيام على الشيء بما
يصلحه، والقائم بالشيء بغرض إصلاحه هو الوالي أو الحاكم في الدولة المتصرف فيها ،
ومالك أمر الرعية ، فإذا لم يصلح الحاكم أمر رعيته ، ولم يسمع ما يسوؤهم سينتج عن
ذلك الشعور بالغبرة، خاصة إذا كان ذلك الشخص ممن ألف الاقتراب من بلاط
الحكام.

فانتشار الغدر والخيانة من قبل أولئك الحكام جعل ابن درّاج يشعر بغبرة
سياسية بسبب تلك الفتنة الشنعاء . يقول الدكتور أشرف نجّاح : « كما جعلت شاعراً
كابن درّاج على فحولته ، ومتانة نسجه الشعري ، وحساسية مزاجه ، واستواء خلقه ،
وترفعه عن الجحون والتحرر ، رجلاً متشرداً كثير التنقل والارتحال برّاً وبحراً بين حكام
الطوائف ؛ ليخطب ودّ المقربين منهم للشعراء ، والمشجعين لهم بالهدايا والأموال ؛ علّه
يجد في رحابهم ما يفي بحوائجه وحاجات أسرته المادية والمعنوية »^(٢) .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٤ .

(٢) قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د/ أشرف محمود نجّاح ، ص ٢٢١ .

هذه الفتنة وهذه الأجواء المشحونة بالغدر جعلت ابن درّاج مغترباً كبيراً «قد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة ، ولكن تلك الحادثة أثرت في نفسيته وشعره ، وتحولت به تحولاً ما لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها»^(١) .

ومع هذا فقد عبّر ابن درّاج عن غربته وعن مدى حاجته للاستقرار مما دفعه إلى أن ينتقل، فشعر بغربة سياسية؛ لأنه لم يكافأ من قبل هؤلاء الحكام بما يستحق من كرم وحسن معاملة . فيضطر إلى الرحيل ليعيش في عالم حزين ذليل ، فقد كان القسطلبي يعيش في تلك الأراضي كالأرجوحة التي تميل به في كل مكان ، حيث كانت الفتنة البربرية الشنعاء سبباً في تمزيق كيان الدولة الأندلسية ، كما كانت - أيضاً - عاملاً في تمزيق شمل الأندلسيين بصفة عامة ، وشمل ابن درّاج بصفة خاصة ، إذ جعلته يشعر بأنه غريب في كل مكان ، وعند أي حاكم أو ملك ، وهذا أسوأ من الموت ذاته ، ولكن ابن درّاج استطاع التقاط الكلمات التي تجوب في خاطره ، فعبر عن إحساسه مادحاً أولئك الملوك بأنهم أبعدوه وأبعدوه عن حياة الغربة ، وهذا ليس أمراً حقيقياً ، وإن كان فهو لفترة يسيرة ، فحين تنقلب عليه الأمور ، يعود إلى سابق عهده مغترباً .

إنما قال ذلك رغبة منه وأملاً في الاستقرار تحت شخصية قوية قادرة ، وقد آثرنا في هذا البحث أن نبدأ في استعراض القصائد التي نظمها ابن درّاج في أولئك الحكام الذين انتقل إليهم مادحاً إياهم على أنهم أبعدوه عن حياة التشرد والغربة .

ورأينا أن نبدأ بالقصائد التي استطاع محقق الديوان إثبات التاريخ الذي قيلت فيه القصيدة لتتبع رحلاته ، ولكننا وجدنا صعوبة في ذلك ؛ لأن معظم قصائده ، لم يستطع المحقق توثيقها تاريخياً .

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، د / إحسان عباس ، ص ٢١٣ .

فمن الأبيات التي تدور حول هذا الموضوع (الغربة السياسية) قوله في المنصور بن أبي عامر ، سنة (٣٨٢هـ) اثنتين وثمانين وثلاثمائة^(١) :

إِلَيْكَ مِنْكَ فِرَارُ الْخَائِفِ الْوَجِلِ^(٢)

وَفِي يَدَيْكَ أَمَانُ الْفَارِسِ الْبَطْلُ

تَقَابَلَتْ نَحْوُكَ الْآفَاقُ واجْتَمَعَتْ

عَلَى يَمِينِكَ شَتَّى الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ

فمن خلال الأبيات تتراءى خيوط خفيفة وراء هذا المديح الذي نسجه ابن درّاج ، والذي يحمل عليه طلب الأمن والاستقرار في ظل المنصور بعيداً عن الغربة والتشرد ، فالخائف الذي يفر أو يهرب من شيء يربعه يتجه إليه ، وكذلك الأمان الذي يهفو إليه الفارس يجده عند المنصور كما أن جميع الآفاق قد اجتمعت وترابط شملها في حمى المنصور بعد أن كانت متفرقة السبل .

هذه الأبيات تشير إلى أن ابن درّاج نفسه هو الخائف من الغربة والغدر ، وهو الذي - أيضاً - يفتقد الأمان ، كما أنه هو - أيضاً - صاحب الشمل المشتت .

ويقول في ابن المظفر ، محمد بن عبد الملك بن أبي عامر ، وتاريخ هذه القصيدة بين سنتي (٣٩٢هـ - ٣٩٨هـ)^(٣) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٥٠ .

(٢) الوجَلُ : الفزع والخوف .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٦ .

فَآنَ يَا نَفْسُ أَنْ تُسَرِّي

بِكُلِّ مَا شِئْتَ أَنْ تُسَرِّي

وَحَانَ يَا عَيْنُ أَنْ تَقَرِّي

بِكُلِّ مَا شِئْتَ أَنْ تَقَرِّي^(١)

غَيْثُ سَحَابٍ غَيْثُ جُودٍ

وَطِيبُ عَرْفٍ وَطِيبُ ذِكْرِ

وتعلو نبرة الأمل والتفاؤل بالخير والسرور في ظل محمد بن أبي عامر ، فكم كانت نفسه تحلم وتتمنى أن تسر وتطرف ، وقد حان الوقت لذلك ، وإن كانت عينه تعشق القرار فقد حان لها الوقت أن تهنأ وتقرّ بكل ما تريد أن تقرّ به .

إذا بلغ الأمل والتفاؤل في نفس القسطلبي مبلغه فلماذا هذا الاستبشار ؟

لأنه يعلم يقيناً بأنه سيقف تحت غيث كريم كثير العطاء والجود ، فينال طيب المقام وأجل مكان ، وفي المظفر عبد الملك حين ولي ابنه الوزارة وهو محمد بن عبد الملك بن أبي عامر .

وقد قيلت القصيدة سنة (٣٩٨هـ) يقول^(٢) :

أَنْتَ الَّذِي فَرَجْتَ عَنِّي كُرْبَةً

لِلدَّهْرِ قَدْ سَدَّتْ عَلَيَّ رِتَاجَهَا^(٣)

(١) تقرّي : القرار : الهدوء والسكون ، ورؤية كل ما هو متشوق لرؤيته .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٤ .

(٣) الرّتاج : الباب المغلق ، أو الطريق الضيق .

وَجَلَوْتَ لِي فَلَقَ^(١) الْمُنَى مِنْ لَيْلَةٍ

طَاوَلْتُ فِي ظُلْمِ الْأَسَى إِذْ لَاجَهَا^(٢)

وَسَقَيْتَنِي مِنْ جُودِ كَفِّكَ مُنْعَمًا

كَأْسًا وَجَدْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَزَاجَهَا

وهنا يفرّج عنه المظفر همه وضيقة، ذلك الهم الذي صوبه إليه الدهر ، فأصاب الصميم، ولكن ما هو هذا الهم أو ما هي هذه الكربة ؟

إنه همُّ الغربة ، وكربة الرحيل والانتقال ، فهو بهذا التفريج أزال عنه الظلم والحزن ، هذا الظلم الذي طال في الإحاطة به حتى انغمس وأدج في بحور الحزن والأسى ، ولكن المظفر أخرجه من ذلك الهم بجوده وكرمه ، فسقاه كأس النعيم ، فما هو هذا الكأس ؟

إنه كأس الحظوة بنيل القرب من المظفر .

وقوله - أيضاً - في علي بن حمود سنة (٤٠٤ هـ) أربع وأربعمئة^(٣) :

إِلَى الْمُسْتَجَارِ مِنَ الْمُسْتَجِيرِ^(٤)

إِلَى الْمُسْتَقَالِ مِنَ الْمُسْتَقِيلِ^(٥)

إِلَى الْمُسْتَضَافِ الْمَلِيكَ الْعَزِيزِ

مِنَ الْمُسْتَضِيفِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلِ

(١) الفلق : الفجر .

(٢) الإدلاج : سير الليل كله .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٧ .

(٤) المستجار : الذي يمنعه أو يمنع عنه الظلم ، والمستجير : السائل أن يمنع عنه الظلم .

(٥) المستقال : المطلوب منه ، والمستقيل : الطالب ، وأقال بمعنى صفح .

سَلامٌ وَأَنْتَ ابْنُ بَدْءِ السَّلا

مِ مَنْ ضَيْفِهِ الْمُكْرَمِينَ الدُّخُولِ

غَدَاةٍ يُضِيفُ أَهْلَ السَّمَاءِ

إِلَى مَنْزِلٍ آلَفٍ لِلنَّزِيلِ

هو الذي سيجيره من جور وغدر الأيام ؛ لأنه هو المستجير وهو الحامي الذي سيدفع عنه ألم الغربة ؛ لأنه هو - أيضاً - المستضيف الذي يحسن إكرام ضيفه الغريب الذليل ، فيضعه في أجل وأعلى منزلة . وقد تجاوز به الكرم وحسن الضيافة إذا أصبح هو المقصد الذي يقصده الغرباء حتى أُلْفُوا هذا النزل الكريم .

وفي المرتضى آخر ملوك بني مروان ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، انتقل إلى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامري ، ومنذر بن يحيى التجيبي في سنة (٤٠٧ هـ - ٤٠٨ هـ) يقول (١) :

مَسَرَّتْهُ مَأْوَى الْغَرِيبِ وَسِثْرُهُ

وَلَذَّتْهُ خَيْرُ الْمَقْلِ (٢) وَرَفْدُهُ (٣)

فما الذي يدخل السرور والفرح إلى قلب المرتضى ؟

إنه إيواء الغريب وستره ، أما لذته فهي تقديم العون والمساعدة للفقراء .

ويمدح المهدي محمد عبد الجبار بأنه حلیم قد آواه تحت ظله ، وتاريخ هذه القصيدة على ترجيح محقق الديوان سنة (٣٩٩ هـ) يقول (٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٩ .

(٢) المَقْلُ : الفقير .

(٣) رفده : الإعانة .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٣ .

قُلْ لِلْخِلاَفَةِ قَدْ بَلَغَتْ مُنَاكَ

وَرَأَيْتِ مَا قَرَّرْتَ بِهِ عَيْنَاكَ

مَهْدِيْ أُمَّةٍ أَحْمَدَ وَكَرِيْمُهَا

وَحَلِيْمُهَا يَأْوِي إِلَى مَأْوَاكَ

ويقول في خيران العامري سنة (٤٠٧ هـ) سبع وأربعمئة^(١) :

لَكَ الْخَيْرُ قَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكَ خِيرَانُ

وَبُشْرَاكَ قَدْ آوَاكَ عِزٌّ وَسُلْطَانُ

يلقي ابن درّاج بين أيدينا هذه القصيدة المفعمة بروح التفاؤل والاستبشار بالخير الذي سيجده في حمى السلطان خيران العامري ، ولكن « لم يكافئ خيران هذا النفس الطويل بما يستحق ، فبخسه حظه في الجائزة ، وسمع بذلك طبيب فاضل اسمه أبو جعفر بن جواد ، فقصده ابن درّاج بخمسة عشر مثقالاً ودفعها إليه ، وقال له : « اعذر أخاك فإنه في دار غربة »^(٢).

ويقول في المنصور بن يحيى سنة (٤٠٨ هـ) ثمان وأربعمئة^(٣) :

بُشْرَاكَ مِنْ طُولِ التَّرْحُلِ وَالسُّرَى^(٤)

صَبَحَ بِرُوحِ السَّفَرِ لَاحَ فَأَسْفَرَا^(٥)

مِنْ حَاجِبِ الشَّمْسِ الَّذِي حَجَبَ الدُّجَى

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٣ .

(٢) جذوة المقتبس ، للحميدي ، ص ٣٠٧ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) السرى : المضي ليلاً .

(٥) السفر : الفجر ، وأسفر بمعنى طلع الفجر وأشرق .

فَجَرًّا بِأَنْهَارِ النَّدَى مُتَفَجِّرًا

القسطلي يستبشر بالخير والاستقرار في رحاب المنذر ، فلا رحيل في النهار ولا سرى في الليل ؛ لأن حجب الشمس - وهو المنذر - سيحجب عنهم الترحال في دياجي الليل المظلم .
ويقول فيه - أيضًا - في السنة نفسها^(١) :

وإِلَيْكَ (يا منصور) حَطُّوا أَرْحُلًا

لَعَبَتْ بِهِنَّ تَنَائِفٌ وَبِحَارُ^(٢)

فَزَعًا إِلَيْكَ مِنَ الْجَلَاءِ بِأَوْجِهِ

فِي كُلِّ عَامٍ لِلْجَلَاءِ تُثَارُ

وَرَأَوْا بِقُرْبِكَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا التَّوَى

فَاسْتُحْيِيَتْ وَاهَا عَلَيْهِمْ ثَارُ

ويقول في المظفر يحيى بن المنصور سنة (٤١٢ هـ - ١٠٢٢ م)^(٣) :

تُشَرِّدُ آفَاقُ الْبِلَادِ فَتُزَوِّئَا

وَتَجْرَحُ أَيْدِي النَّائِبَاتِ فَتَأْسُونَا

تُداوونَ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ فَتَشْفُونَا

وَتَسْقُونَ مِنْ كَأْسِ الْحَيَاةِ فَتُرَوِّئَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٢٩ .

(٢) نتائف : القفر من الأرض وهي المفازة .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٠٢ .

إن ابن درّاج قد تشرد في فيا في الأرض وجرحته المصائب والنوائب ، وهو بحاجة ماسة إلى من يأويه ويواسيه ويداوي جروحه وآلامه ، ولذلك حطّ رحاله عند المظفر ، الذي سيسقيه من كأس الحياة ويرويه بعد ظمأ الغربة والتشرد .

وله في المنذر بن يحيى بن منذر في سنة (٤١٦ هـ) ، يقول^(١) :

فإن نُؤرِ مِنْهَا يَا (مُظَفَّرُ) غُرْبَةً

فَنَارِحَةَ الْأَوْطَانِ مُؤَيَّسَةَ الرَّجْعِ

وإنْ أَعْلَقْتَ فِي حَبْلِ مُلْكِكَ حَبْلَهَا

فَحَبْلٌ مِنَ الْأَحْبَابِ مُنْصَرِّمُ الْقَطْعِ

وإنْ أَخْضَبْتَ فِي زَرْعِ نَعْمَاكَ رَعِيَهَا

فَكَمْ قَدْ تَخَطَّيْتَ وادِيًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ

وإنْ أَرْفَهْتَ فِي بَحْرِ جُودِكَ شَرِبَهَا^(٢)

فَمِنْ ظَمَأٍ عَشْرِ فِي الْمُهْجِرِ إِلَى تَسْعِ^(٣)

ويخاطب المظفر منذر بن يحيى قائلاً : إن الغربة والنزوح عن الوطن أمر مؤيس ، ومؤلم كما أن الرجوع والاستقرار في الوطن أمر بدا صعباً إلا في ظل المظفر ، كما أن حبال الود في رحاب المظفر متصلة ، ولكن حبل الأحباب وودهم قد انقطع ، كما أن حياتهم قد أخضبت وترعرعوا في النعيم والرخاء بعد أن تخطوا أودية وأراضي خالية من الزرع ، وفي هذا إشارة إلى قصة سيدنا إبراهيم **u** وفي ظل المظفر منذر

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) الشرب : الحظ من الماء .

(٣) ظمأ : ما بين الشربين والوردين ، وربما قصد أنه لم يبق من رحلتهم سوى الشيء اليسير .

أغرقهم بجوده وكرمه من بعد ظمأ وعذاب ، وقصد بقوله : فمن ظلم عشير إلى عدد
أبنائه ، وقال - أيضاً - في منذر بن يحيى بن منذر التجيبي سنة (٤١٦ هـ) (١) :

فأصبحَ حمدي فيك مُلتَحِمَ السدى (٢)

كما راحَ شَملي فيك مُلتَمِ الجَمع

فثناء ابن درّاج واعترافه بكرم المنذر أصبح ثناءً متصلاً ندباً كما أن شمله غدا
ملتئماً وملتحمًا ، ويقول في مجاهد العامري سنة (٤١٩ هـ) (٣) :

إلى أيّ ذكْرٍ غَيْرِ ذِكْرِكَ أرْتَاحُ

ومن أيّ بحرٍ بعدَ بحرِكَ أمتاحُ

إليك انتَهَى الرّئي الذي بك يَنْتَهي

ولاحَ لي الرّأي الذي بك يَلْتاحُ (٤)

وفي مائِكَ الإغْداقُ والصّفْوَ والرّوى

وفي ظلِّكَ الرّيحانُ والرّوحُ والرّاحُ (٥)

بعد أن طرق ابن درّاج أبواباً كثيرة ، ألم يحن له الوقت بحياة مستقرة وهُدوء
يحيط به بعد طول عناء ومشقة وغربة ؟

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١٧ .

(٢) السدى : النسج .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٤) يلتاح : يظهر .

(٥) الروح : رحمة ورزق ، أو استراحة وبرد ، والراح : المكان .

هذا السؤال الذي يملأ فؤاد القسطلبي ، فانفجر في صيغة سؤال الحائر الذي انقطعت عنه كل السبل والطرق ، فلم يجد أمامه غير طريق واحد .

مجاهد آخر آماله ، فهو أمله ورجاؤه الأخير ، فأى ذكر غير ذكر مجاهد يُريح فؤاد هذا المغترب المهذور المغدور الذي صاغ درر شعره جواهر نفيسة ، وأملى له عقله ، إنه سيجد بمقابلها كل الأمان وكل الاطمئنان ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ غربة دائمة وعذاب دائم ، ولكن هذه الغربة ستنجلي وتنتهي عند مجاهد لأنه مغدق في كرمه وفي ظله الراحة والاستقرار .

وقال في المنذر بن يحيى (١) :

وَأَنْتُمْ سَقَيْتُمْ ثَرَاةً اغْتَرَابِي

سِجَالُ (٢) الْغَمَامِ وَصَوَّبَ الْغَوَادِي (٣)

ويهنى كل غريب تغرب في البلاد بأن غربته ستنقضي لأنه سينزل عند المنذر ، يقول (٤) :

وَهَنِيَّا لَنَا وَلِلدِّينِ وَالِدُنِيَا

وَلِلْبَيْضِ وَالْقَنَا وَالْجِيَادِ

وْغَرِيبٍ تَهْوِي بِهِ كُلُّ أَرْضٍ

وَشَرِيدٍ يَنْبُؤُ بِهِ كُلُّ وَادٍ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٢٥ .

(٢) سِجَالُ : الدلو ممتلى بالماء .

(٣) الغوادي : السحابة تنشأ فتمطر غدوة .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١١ .

يقول الدكتور إحسان عباس : « على أنه في هذه الفترة مثال الشكور العارف بالجميل لا يزال في كل حين يذكر صنيع المنذر لديه ، وما لقيه من راحة وأمن في ظله »^(١) .

حيث يقول^(٢) :

وَجَزَاءُ مَا آوَيْتَ وَحَشَ تَغْرُبِي
وَفَسَحْتَ رَوْضَكَ لَارْتِعَاءِ سَوَامِي^(٣)
وَفَعَمْتَ لِي بَحْرَ الْحَيَاةِ مُبَادِرًا
بِحَيَاةِ ذَابِلَةِ الْكُبُودِ ظَوَامِي^(٤)
وَبَسَطْتَ لِي وَجْهَهَا كَسَفْتُ بِنُورِهِ
كُورَ الْجَلَاءِ وَخَلَّةَ الْإِعْدَامِ
وَوَجَدْتُ ظِلَّكَ بَعْدَ يَأْسِ تَقْلُبِي
وَطَنَ الرَّجَاءِ وَمَنْزِلَ الْإِكْرَامِ
فَكَأَنَّ وَجْهَكَ غُرَّةَ الْفَطْرِ الَّذِي
وَافَى بِفِطْرِي بَعْدَ طُولِ صِيَامِي

إن المنذر قد آواه بعد أن عانى وحشة الغربة ، فأوسع له المقام ، وبسط عليه الرزق ببحر عطائه وجوده ، فرد الحياة إليه وبعثها في روحه من جديد بعد أن ذبل كبده من الظمأ ، فأدخل السرور إلى قلبه حتى استبشر وجهه بعد أن كسف من كثرة الكروب والمصائب ، وقلة الإخوان ، فوجد الظل والمنزل بعد اليأس الذي تقلب فيه ،

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، للدكتور / إحسان عباس ، ص ٢٣٠ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٨٠ .

(٣) السوام : كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلى .

(٤) الكبود : جمع كبد وهي اللحمية السوداء في البطن ، وربما أراد بها معنى العناء والشقاء .

فكأن وجه المنذر أولَّ يوم يفطر فيه الصائم بعد طول صيام ومكابدة ، وهذا دليل قاطع على أن ابن درَّاج لم يجد أحداً يلتفت إليه ، فجسَّدَ أمله كله في كل ملك يقرع بابه .
ويقول فيه - أيضاً^(١) :

يا مُدْنِي الأملِ البعيدِ وإنْ نَأَى
ومُبْعَدِ الخُطْبِ الجليلِ وإنْ دَنَا
ومُسَلِّي الغُرباءِ عَنْ أوطانِهِمْ
حَتَّى تَبَوَّأَ كُلَّ قَلْبٍ مَوْطِنًا

وهو هنا يقرب الأمل وإن كان بعيد النيل والمطلب ، ومبعداً للخطوب والمصائب ، وإن كانت عظيمة وقريبة ، وهو - أيضاً - مؤنسًا ومسلِّيًا للغرباء الذين نأوا عن أوطانهم؛ لأنهم وجدوا قلبًا كبيرًا يرحب بكل مغترب ، فأصبح هو وطنه وداره، ويقول فيه - أيضاً^(٢) :

فَإِنْ تَضَايَقَتِ الدُّنْيَا بِمُغْتَرِبٍ
(فمنذرٌ) بعدُ رَحْبُ الصَّدْرِ واسِعُهُ
وإنْ دَجَا فُلُقُ^(٣) يَوْمًا بِذِي أَمَلٍ
فَذُو الرِّيَّاسَاتِ^(٤) طَلَقُ اللَّيْلِ ناصِعُهُ^(٥)

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٣) فلق : الشق .

(٤) الرياسات : الكبير .

(٥) ناصع : شديد البياض .

وَمَنْ سِوَاهُ لِمَقْطُوعِ أَوَاصِرُهُ

وَمَنْ سِوَاهُ لِمَرْدُودِ شَوَافِعُهُ

فإن ضاقت الأرض بما رحبت ، ولم يجد ذلك المغترب مكاناً يحويه ويرحب به ،
فإن منذر واسع الصدر كثير الترحيب به ، وإن شقَّ عليه يوماً تحقيق حلمه وأمله ،
فمنذر قادرٌ على ذلك ؛ لأنه هو كبيرهم ورئيسهم ، فهو مثل الأمر الناصع الذي يظهر
في ظلمة الليل ، وهو - أيضاً - الواصل لكل شيء تقطعت أواصره ، ورافعاً للظلم عن
كل مظلوم ومشفوع .

ويقول فيه - أيضاً^(١) :

رَأَيْتَ لَنَا مَوْضِعَ الْحَقِّ فِيهَا

بِمَا قَدْ (أَرْتَك) الْمَقَادِيرُ فِيْنَا

فَنَادَى نِدَاكَ بِهَا نَحْوَهَا

سَلَامٌ لَكُمْ فَادْخُلُوا آمِنِينَ

لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ فِي صِدْقِ عَهْدِي

فَلَا خَائِفِينَ وَلَا مُخْرَجِينَ

فَظَلَّتْ نَفْسٌ عَنْ رُوحِهَا

غَرِيًّا سَلِيًّا وَنَضُّوا حَزِينًا^(٢)

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٧ .

(٢) النَّضُّو : الدابة التي هزلتها الأسفار .

فالمنذر هو الحاكم القائم على أمر الدولة ، فكان من سياسته أن أجزل لهم العطاء وأكرم مثواهم ، فعاشوا حياة يملؤها السلام والأمان ، ووعدهم بذلك وكان عهده وعد صدق وحق ، فقد عاشوا تحت ظله وكنفه حياة بعيدة عن كل المنغصات من خوفٍ وفقرٍ وخروجٍ من الديار ، فظلَّ المنذر كذلك ينفس عنهم كربهم ويجلو عنهم مصائبهم ، كما كان ينفس عن كل غريب سلب من كل شيء ، حتى عاد هزياً قد أهرلته وأرهقته الأسفار فرُمِيَ في دياجير الحزن والألم .

ويظل ابن درّاج يكثر الحديث والإشارة إلى منوال المنذر وكرمه وما يأمله ويرجوه لديه من استقرار وأمان .

والسؤال الذي سيرد في ذهن القارئ بعد هذا الثناء والشكر : ما الذي دعا ابن درّاج أن يتركه ويرحل إلى حاكم آخر ؟ وماذا فعل به المنذر حتى يتوقّد لديه الإحساس بالغربة ؟

إن رحيل ابن درّاج عنه دليل واضح على أنه لم يلتفت إليه ، ولم يضعه في المكانة التي يستحقها شاعر كابن درّاج ، يقول إحسان عباس : « في ظل منذر لا يزال يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغربة »^(١) .

ويقول في ابن المنصور ، يحيى بن أبي عامر^(٢) :

وفي اسمِ المظفّرِ فالُ الحياةِ

لِيَحْيَا الغَريبُ بِهِ والمُقيمُ

يُشْرِنَا بِسَنَاهُ الصَّبَاحِ^(٣)

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٢٧ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٩ .

(٣) السنا : الضوء .

وَتُخْبِرُنَا عَنْ نَدَاةِ الْغُيُومِ
فَفِي كُلِّ بَحْرٍ لَنَا مِنْكَ شِبْهٌ
وَفِي كُلِّ فَجْرٍ لَنَا فِيكَ خَيْمٌ^(١)
وَمَرَعَاكَ فِي كُلِّ أَرْضٍ نَرُودُ
وَسُقْيَاكَ فِي كُلِّ بَرْقٍ نَشِيمٌ^(٢)
وَفِي كُلِّ نَادٍ مُنَادٍ إِلَيْكَ
هَلُمَّ إِلَى حَيْثُ يُغْنَى الْعَدِيمُ
هَلُمَّ إِلَى حَيْثُ تُنْسَى الرِّزَايَا
هَلُمَّ إِلَى حَيْثُ تُؤْسَى الْكُلُومُ^(٣)
هَلُمَّ إِلَى حَيْثُ يُؤْوَى الْغَرِيبُ
هَلُمَّ إِلَى حَيْثُ يُحْمَى الْحَرِيمُ

فالمظفر هو فآله وأمله في هذه الحياة ؛ لأنه يجيي الغريب والمقيم بكرمه وعطاءه ،
ولذلك فقد بشره المجد وأخبرته الغيوم عن كرم وعطاء ممدوحه ، فهو البحر الذي
سيقوم عنده ، ولن يبرحه أبداً لأنه سينسيه الهموم ، ويداوي جروح وآلامه ، ويؤويه
ويحميه .

ويقول فيه — أيضاً^(٤) :

(١) خيم : السجية و الطبيعة .

(٢) نشيم : تبدى وظهر .

(٣) الكلوم : الجروح .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

هَرَبْنَا إِلَيْكُمْ فَأَوَيْتُمُونَا

وَخَفْنَا الْخُوفَ فَاَمْتُمُونَا^(١)

وَشَرَدْنَا السَّيْفُ مِنْ أَرْضِنَا

سِرَاعًا إِلَيْكُمْ فَاسَيِّتُمُونَا^(٢)

وَهَوِّنْ أَقْدَارَنَا الْاِغْتِرَابُ

عَلَى كُلِّ خَلْقٍ فَأَكْرَمْتُمُونَا

إلى أن قال :

وَأَوَاكُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ

مُقَارَضَةً حِينَ آوَيْتُمُونَا^(٣)

فابن درّاج هرب إلى يحيى فأواه ، وخاف من الهلاك فأمن له الحياة الهادئة ،
وهرب ابن درّاج من سيوف الفتنة والمعارك القائمة ، فخرج من وطنه ، فأحطه يحيى
بكرمه وهون عليه الاغتراب بجوده .

ونرى معادلة الإيواء والدعاء وجمع الشمل تتكرر - أيضاً - عند مدح المنصور
بن أبي عامر ، يقول^(٤) :

رَعَى اللَّهُ (لِلْمَنْصُورِ) نُصْرَةَ دِينِهِ

فَجَازَاهُ خَيْرَ ابْنِ تَلَا خَيْرَ وَالِدِ

(١) الخوف : الموت والهلاك .

(٢) فآسيتمونا : عالجتمونا .

(٣) مقارضة : جزاء ما أخذته .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٤٥ .

وَأَيَّدَ هَذَا الْمُلْكَ وَالِدَيْنِ مِنْهُمَا

بِأَيْمَنِ^(١) يُمْنِي سَاعَدَتْ خَيْرَ سَاعِدِ

فِيَا جَامِعَ الْإِسْلَامِ شَمْلًا وَتَارِكًا

دِيَارَ الْأَعَادِي مُوحِشَاتِ الْمَعَاهِدِ

إلى أن قال :

وَلَا زِلْتُمْ مَأْوَى غَرِيبٍ وَآمِلْ

وَمَفْزَعَ مَلْهُوفٍ وَفُرْصَةَ قَاصِدِ

ووصف المنصور بن أبي عامر - أيضاً - بأنه مأوى لكل غريب تكبّد الأرض وكافلاً لكل يتيم فقد أحد أبويه ، يقول^(٢) :

وَحَوَى عَنِ (المنصور) غُرَّ شَمَائِلِي

قَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا بَغِيرِ زِمَامِ

يَا رَبَّنَا فَاحْفَظْ عَلَيْنَا مِنْهُمَا

ذُخْرَ الرِّجَاءِ وَعُدَّةَ الْإِسْلَامِ

يَا مُوسِعَ الرَّاجِينَ إِفْضَالًا وَيَا

مَأْوَى الْغَرِيبِ وَكَافِلَ الْإِيْتَامِ

والمكوث تحت ظل المنصور يعوضه البعد عن الأهل والوطن ، يقول^(٣) :

(١) أيمن : جمع يمين ، وهو نقيض اليسار .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

وَأَجَارَ خَلْقَ اللَّهِ فَاعْتَرَفُوا

عَوْضًا مِنَ الْأَوْطَانِ وَالْأَهْلِ

والذي جعله يشعر بهذا الإحساس قيام المنصور برد جور الأيام عنه ، تلك الأيام التي أشبعته ألماً وعذاباً ، فقد قرض أيامه بالسير نهاراً ، والإدلاج ليلاً ، يقول^(١) :

لَا وَمَنْ آوَى اغْتَرَابِي

وَشَفَى حَرَّ مُصَابِي

وَكَفَانِي صَرْفَ الدَّهْرِ

سَامِنِي سُوءَ الْعَذَابِ

ويأويه وينصره كما آواه ونصر خلقاً كثيراً ، يقول^(٢) :

هُمْ الَّذِينَ (هُمْ) آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا

لَمَّا أَتَاهُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَا عَرَفُوا

ويمدح المنصور بأنه بوأه المكانة المرموقة وأكرم نزله وجمع شمله ، يقول^(٣) :

بِنَسَبَتَنَا فِي رَقٍّ مَوْلَى أَضَافَنَا

فَبَوَّأَنَا الْإِكْرَامَ وَالْمَنْزَلَ الرَّحْبَا

وَحَسْبِكَ وَ(المنصور) جَامِعُ شَمَلْنَا

وَكُنْتُ لَهُ شَرْقًا وَكُنْتُ لَهُ غَرْبًا

(١) ديوان ابن درّاج ص ٣٠٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٩ .

ويقول - أيضاً^(١) :

فَبَيْنَ يَدَيْكَ أَصْبَحَ فَضٌّ شَمْلِي

أَلِيفَ الشَّعْبِ مُتَّسِقَ النَّظَامِ

وَعِنْدَ حِمَاكَ أَمْسَى نَشْرُ سِرِّي

خَصِيبَ الرَّغْيِ مَرْعِيَّ السَّوَامِ

وَفِي مَأْوَاكَ عَادَ شَرِيدُ رَحْلِي

عَزِيزَ الْجَارِ مَضْرُوبَ الْخِيَامِ

إلى أن قال :

وَأَوَيْتَ الْغَرِيبَ وَهَلْ غَرِيبٌ

تَوَخَّيَ رَكْنَ عِزِّكَ بِاسْتِلامٍ ؟

فابن درّاج جعل ممدوحه وكأنه استحال كعبة يقصدها الناس ، ولعل حرص الشاعر على تصوير إحساسه هو الذي دفعه إلى رسم هذه الصورة ، كما كان المصدر الديني وثقافة الشاعر من أهم المؤثرات التي يصور بها ابن درّاج اغترابه وغربته .

ويقول فيه - أيضاً^(٢) :

وَمَنْ ذَا يَأْمَلِكُ مُسْتَجَارًا

سِوَاكُمْ لِلْغَرِيبِ الْمُسْتَضَامِ^(٣)

(١) ديوان ابن درّاج، ص ١٩٠ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٩٤ .

(٣) المستضام : من الضيم وهو الظلم .

فَإِنْ هَاجَ الرَّحِيلُ دَفِينٌ سُقْمِي

فَكَمْ دَافَعْتَ مِنْ ذَاكَ السَّقَامِ

ويقول - أيضاً^(١) :

فَيَا بُعْدَ مَسْرَاكِ لِّلْمُدْلَجِينَا^(٢)

وَيَا قُرْبَ مَاوَاكِ لِلرَّائِحِينَا

فَحَقًّا إِلَيْكَ رَحَلْنَا قَطْعَنَا

إِلَيْكَ الشُّهُورَ بِهَا وَالسِّنِينَ

إلى أن قال :

فَعَادَرْنَا أَوْطَانَنَا عَافِيَاتٍ

وَجِئْنَا إِلَيْكَ بِنَا مُعْتَفِينَا^(٣)

دِيَارًا تَسُحُّ^(٤) عَلَيْهَا الدُّمُوعُ

وَفِيهَا قُتِلْنَا وَفِيهَا سُبِينَا

وَفِيهَا صَدَقْنَا إِلَيْكَ الرَّجَاءَ

وَهُنَّ يُرْجَمَنَّ فِينَا الظُّنُونَا

أَهْمَنَّا بِغُرْبَتِنَا أَمْ هُودِينَا

وَمُتَّنَا بِكُرْبَتِنَا أَمْ حَيْنَنَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) مدلجین : الإدلاج : السير في الليل كله .

(٣) معتفينا : طلب الرزق .

(٤) السح : سحّ الماء بنفسه أي : سال ، سحّ هو الماء : صبّه .

فتحت ظلّه يكون ابن درّاج بعيداً عن السير في لجة الليل، وفي الوقت نفسه قريباً من النازلين عليه يأويهم ويهيئ لهم سُبُل الراحة بعد أن قطعوا مسافات طويلة استغرق سيرهم إليه الشهور والسنين ، تاركين مواطنهم لأجل الطمأنينة ، ويأتي السؤال المحير للشاعر : هل سيصيبه الهم في غربته ؟ أم سيُبوأ أعلى منزلة ؟ وهل سيموت من شدة الكربة أم سيحيا ؟ ولكن رحيله كان جواباً قاطعاً لسؤاله، ويقول فيه^(١) :

بَذَرِ أَيَادِي الْعَامِرِيَّ الَّتِي طَمَتِ^(٢)

عَلَى نَأْيِ آفَاقِ الْبِلَادِ مُنَاهَا

ويقطع ابن درّاج الفيافي أملاً في التقرب للمنصور ، وطمعاً في كرمه ، يقول^(٣) :

فَقَطَعْتُ يَا مَنْصُورُ نَحْوَكَ نَازِعاً

خُدَعَ الْمُنَى وَعَلَائِقَ الْأَسْبَابِ

فَرَضَاكَ تَأْمِيلِي وَقُرْبُكَ هَمَّتِي

وَنَدَاكَ مَحْيَائِي وَحَمْدُكَ دَائِي^(٤)

وَقَدْ احْتَلَلْتُ لَدَيْكَ أَمْنَعُ مَعْقِلِ

وَحَطَطْتُ رَحْلِي فِي أَعَزِّ جَنَابِ

فِي ذِمَّةِ الْمَلِكِ الَّذِي آمَلْنَا

مِنْ رَاحَتِيهِ تَحْتَ صَوْبِ سَحَابِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠ .

(٢) طمت : كثرت .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٤ .

(٤) داي : أي دأى .

سبب رحيل ابن درّاج هو طلب الرضا والتقرب من الحاكم ، ولذلك جعله المنصور في أمتع المعازل وأعز مكانة ، وحقق له جميع آماله وطموحاته ، وأجزل له في العطاء .

ويصيره هنا حاجباً للشمس كونه حجب عنه الأسي والأحزان ، يقول (١) :

أَهْلًا بِمَنْ قَهَرَ الْمُلُوكَ وَمَرْحَبًا

وَأَعَزَّ مَنْ حُلَّتْ لِرُؤْيَيْهِ الْحُبَى (٢)

وَبِحَاجِبِ الشَّمْسِ الَّذِي حَجَبَ الْأَسَى

عَنَّا وَحَاشَ لِحُودِهِ أَنْ تُحْجَبَا

وتتراءى الآمال والمطالع لابن درّاج عند المنصور ابن أبي عامر ، بعد أن استبدّ به التغرّب ، فيأتي الوقت معلناً بنهاية الرحيل والغربة ، يقول (٣) :

وَلَقَدْ تَرَاءَتْ فِي ذِرَاكَ مَطَالِعِي

حِينَ اسْتَبَدَّ تَغْرُبِي بِمَغَارِبِي

فَخَتَمْتُ طُولَ تَقَلُّبِي بِتَقَلُّبِي

وَجَزَيْتَ غُرَّ غَرَائِبِي بِرَغَائِبِ

وَأَجَرْتَنِي مِنْ كُلِّ خَطْبٍ طَارِقٍ

حَتَّى مُنَاجَاةِ الرَّجَاءِ الْخَائِبِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٨١ .

(٢) الحبي : جمع حبة ، وهو الثوب الذي يشتمل به ، يقال : حلّ حبوته ، كناية عن الإعجاب .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٤٢ .

وَوَجَدْتُ عِنْدَ يَدَيْكَ سَدَّ مَفَاقِرِي

وَسُئِلُوا أَحْزَانِي وَبُرْءَ مَصَائِبِي

ويختتم القسطلقي قصة رحيله واغترابه بنيل القبول والرضا ؛ لأن المنصور قد جازاه ، وحقق له رغائبه ، وحماه من كل الخطوب ، ووجد عنده جمعاً لشملة الذي بدده الرحيل ، فأزال عنه أحزانه ، وداوى جروحه ومصائبه .

فهل ختم القسطلقي حقاً قصة رحيله ؟ أم هو ما كان يرجوه ويأمله فقط ؟
وتعلو الأصوات مرة أخرى إيذاناً ببدء حياة الاستقرار بعد التشرد ، يقول^(١):

سَرَيْتَ فَأَلْحَقْتَ لَيْلًا بَلِيلِ

وَسِرْتُ فَوَصَّلْتَ بَيْدًا بَبِيدِ

كَمَا قَدْ وَصَّلْتَ جِبَالَ الْغَرِيبِ

وَقَرَّبْتَ مَأْوَى الْقَصِيِّ الْبَعِيدِ

وَنَادَى نَدَاكَ عَلَى الْأَرْضِ حَيٍّ

عَلَى مُسْتَقَرِّ الشَّرِيدِ الطَّرِيدِ

فها هي سلسلة الرحيل تتواصل وتستمر ، ويواصل السير ليلاً بليل ، وببداً ببيد حتى وصل إلى المنصور الذي جمع شمل هذا الغريب ، وقربه وآواه بعد أن عانى التشرد والضياع ، وحينما حطت رحاله عند المنصور فإنه داوى بحوراً من الهموم ، وبقية من خطوب الغربة والتشرد ، يقول^(٢):

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٢ .

وإليك يا (منصور) حطّ رحالها

دأب السرى واليَعْمَلَات^(١) ودأبي

وبُحُورُ هَمِّ كَمِّ وَكَمِّ دَاوَيْتُهَا

بِبحورِ يَمٍّ أَوْ بُحُورِ سَرَابٍ

وبإكرام الكريم تملكه ، فملك المنصور ابن درّاج بكرمه وعطفه ، ولهذا أراد
القسطلي تخليد كرم المنصور، وتسجيل خصاله لتبقى سيرته عطرة طيبة جزاء إكرامه ،
وما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

يقول^(٢) :

فَأَنْطَقَ غَرْبِي قَلْبِهِ وَلِسَانَهُ

بِتَخْلِيدِ مَا سَيَّرَتْ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ

وتتكرر نغمة الإشادة بمواقف المنصور .

يقول^(٣) :

وَرَفَعْتَ ذِكْرِي فِي عَيْدِكَ فَاغْتَلَى

وَنَظْمَنَ شَمْلِي فِي جَوَارِكَ فَاثْتَنَمَ

وَتَبَوَّأَتْ بِي مِنْ جَنَابِكَ مَوْطِنًا

وَقَفًّا عَلَى كَرَمِ الْوَسَائِلِ وَالذَّمِّ

(١) اليعملات : مفرداها عميم ، وهي الغنيمة ، ويعمول : طويل .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٦١ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٨ .

فَحَطَّطْتُ رَحْلِي مِنْكَ فِي عِزِّ الْحَمَى

وَمَنَعْتَ أَهْلِي مِنْكَ فِي أَهْلِ الْحَرَمِ

فالمنصور قد رفع ذكره وقدره ، ونظم شمله ، وبوَّاهُ أجل مكانة ، وأعظم منزلة ، وحماه ومنع عنه السوء والأذى ، كما منع عن أهله فلا يدنو منهم السوء .
ويقول في عبد الملك بن أبي عامر^(١) :

لِيَالِي فِي مَأْوَاكَ أَمْنِي مِنَ الرَّدَى

وَفِي ظِلِّكَ الْمُدُودِ تَشْرِي مِنَ الرَّمْسِ^(٢)

إلى أن قال :

وَلَا مَاتَ مَنْ وَالَاكَ مِنْ غُرْبَةِ النَّوَى

وَلَا عَاشَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ عَشْرَةِ التَّعْسِ^(٣)

فإيواء ابن عامر له يحميه من الردى والموت في الغربة ، ولذلك يدعو له بعدم السقوط في التعس ، ويقول في منذر بن يحيى^(٤) ، فنورُ الوفاء والصدق يسطع عنده وشمله المبدد سيجمع عنده .

نُورُ الْوَفَاءِ بِأَرْضِنَا لَكَ سَاطِعُ

وَالْحَقُّ شَلُّ عِنْدَنَا بِكَ جَامِعُ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦٢ .

(٢) الرمس : القبر .

(٣) التعس : السقوط على أي وجه كان ، والانحطاط والعتور والهلاك .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦٣ .

وسیظل یشکره جزاء ما أولاه وما قدمه له من شرف الحياة وجزیل العطاء
وكرم إیواء .

يقول (١) :

مِنَّنْ بِأَيْسَرِ شُكْرِهَا أَعْيَيْتَنِي
فَمَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنِي
أَعْطَيْتَنِي ذُخْرَ الزَّمَانِ وَإِنَّمَا
شَرَفُ الْحَيَاةِ وَعِزُّهَا أَعْطَيْتَنِي
لَبَّيْكَ شَاكِرَ نِعْمَةٍ أَنْتَ الَّذِي
لَمَّا دَعَوْتُ غِيَاثَهَا لَبَّيْتَنِي
فَقَتَلْتَ هَمًّا ذُقْتُ حَدَّ سُيُوفِهِ
بِسُيُوفِ إِنْعَامٍ بِهَا اسْتَحْيَيْتَنِي
وَحَطَّطْتَ بِالْكَفِّ الْكَرِيمَةِ مُلْحَقِي
وَالْفَخْرُ فَخْرِي مِنْكَ إِذْ سَمَّيْتَنِي
حَسْبِي فَحِينَ ذَكَرْتَنِي كَرَّمْتَنِي
وَكَفَّيْ فَحِينَ نَطَقْتَ بِي أَعْيَيْتَنِي
ذَكَرَاكَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَلْبَسْتَنِي
وَرِضَاكَ أَعْلَى خُطَّةٍ وَلَّيْتَنِي

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦ .

فَدَاؤُكَ الْأَمْلَاكُ يَوْمَ سَمِعْتَنِي
لَهْفَاتٍ فِي أَسْرِ الْأَسَى فَدَيْتَنِي
وَسُقَيْتُ غَيْثَ النَّصْرِ حِينَ بَصُرْتَ بِي
ظَمَّآنَ مُلْتَهَبِ الْحَشَا فَسَقَيْتَنِي
أَوَاكَ ظُلَّ اللَّهِ فِي سُلْطَانِهِ
وَنَعِيمِهِ بِجَزَاءٍ مَا آوَيْتَنِي
وَرَعَى لَكَ الرَّحْمَنُ مَا اسْتَرْعَاكَهُ
مِنْ دِينِهِ أَجْرًا بِمَا رَاعَيْتَنِي

القسطلي يشكر ابن أبي عامر ، ويثني عليه جزاء ما قدّمه له من خير ونعيم ،
فقد هباً له حياة شريفة، فحينما كان ابن درّاج تائهاً في الأرض حيران ، لم يكن هناك
من يسمع له ، لبّي هو ندائه ، وأهطل عليه غيث عطائه ، وبذلك قتل هماً كبيراً قد
تعاش في صدر هذا الشاعر الذي ذاق الكثير والكثير من الأحزان ، فابن أبي عامر
أكرمه ورفع من شأنه ، واستجاب لندائه ، وخلّصه من دياجير الأسى والظمأ ، فقد
كان ملتهب الفؤاد ، فسقاه وأطفأ لهيب ظمأه ، وهو في النهاية لا يملك سوى الدعاء
له بأن يدوم مجده وسلطانه جزاء ما أولاه من نعيم وكرم .

ويقول - أيضاً : إنه جلا عنه الهموم بإيوائه، وبث الأمل في قلبه من جديد^(١) .

وَقَلَّ لِمَنْ جَلَا الْإِظْلَامَ عَنِّي
وَلَقَى نَاطِرِي وَجْهَ الصَّبَاحِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٢ .

وَمَنْ يَمِينِهِ وَرَيْتُ زَنَادِي^(١)
سَنَا وَيُمْنِهِ فَازَتْ قَدَاحِي
وَمَنْ نَادَيْتُ : حَيَّ عَلَى التَّلَاقِي
فَلَبَّابِي بِحَيَّ عَلَى النَّجَاحِ
وَأَوَانِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ
وَأَوْفَى بِي عَلَى أَمَلٍ مُتَاحٍ
ويقول : إن سليمان المستعين جامع للشمل مجلٍ للهم^(٢) :

لِيَجْلُوَ عَنِ الدُّنْيَا بِكَ الْهَمَّ وَالْأَسَى

وَيَجْمَعَ فِي سُلْطَانِكَ الْغَرْبَ وَالشَّرْقَا

ويرد روحه بجمع شمله ، فهو بفعلته تلك آنس وحدته بعد أن عاش حياة
موحشة مقطوعة الوصل ، يقول^(٣) :

فَحَمْدًا لِمَنْ رَدَّ النُّفُوسَ فَأَصْبَحَتْ

لَهُمْ كَالَّذِي كُنَّا وَهُمْ كَالَّذِي كَانُوا

وَأُونِسَ شَمْلٌ بِالتَّفَرُّقِ مُوَحِّشٌ

وَحَنَّ خَلِيطٌ بِالصَّبَابَةِ حَنَّانٌ

(١) وریت : أظهرت ناره ، وزناد : العود الذي يقدح به النار ، وقداح : هو قدح السهم ، يقال : قدح في

القدح يقدح ، وذلك إذا خرق في السهم بسنخ النصل .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٥٧ .

(٣) المصدر السابق، ص ٥٠ .

ابن درّاج مدح سليمان المستعين « وقد كان إلى وقته ثاوياً بقرطبة يحسب أن سليمان سيجيره من الزمان ، وكان النجم أدنى من ذلك إليه »^(١) .

ويقول في لبّيب العامري بطرطوشة ، وهو كما ذكر محمود مكي « من موالى الدولة العامرية ، اشترك مع خيران العامري ومنذر التجيبي في القيام بأمر عبدالرحمن بن محمد المرتضي حتى قُتل في سنة ٤٠٩ هـ ، ثم استولى على طرطوشة »^(٢) ، بأنه سيلقي عليه درره الشعرية ؛ لأنّ هذه الدرر وهذه الجواهر الشعرية هي الباقية ، وستكون ذخراً للزمان مثل القلائد التي ترتديها الكواعب ، كما أن هذه القصائد ستشفي سقام تغربه وسلو جراحه ومصائبه ، يقول^(٣) :

فَلَنْ طَلَبْتَ هُنَاكَ حَقًّا صَاعِدًا

فَلَأَنْتَ أَقْرَبُ مِنْ وَرِيدِ الطَّالِبِ

وَلَنْ وَهَبْتَ لَقَدْ وَهَبْتَ مَسَاعِيًا

أَصْبَحْنَ حَلِي مَآثِرِي وَمَنَاقِبِي

شِيمًا بِهَا حَلَيْتُ غُرَّ قَصَائِدِي

وَجَعَلْتَهُنَّ أَهْلًا لِكَوَاكِبِي

وَذَخَرْتُ لِلْأَزْمَانِ مِنْ حَسَنَاتِهَا

مِثْلَ الْقَلَائِدِ فِي نُحُورِ كَوَاعِبِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ، ق ١ ، م ١ ، ص ٦٧ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

وَلَا شَفِيفٍ بِهَا سَقَامَ تَعْرِئِي

وَلَا سَوْنَ بِهَا جِرَاحَ مَصَائِي

وَلَا جَعَلَنَّ مِنْهَا تَمَائِمَ خَائِفٍ

مِنْ طَائِفٍ أَوْ مِنْ رَجَاءٍ خَائِبٍ

وَلَا تُرْكَنَّ ثَنَاءَهَا وَجَزَاءَهَا

قُوتَ الْمُقِيمِ غَدًا وَزَادَ الرَّاكِبِ

وَسُرُورَ مَحْزُونٍ وَأُنْسَ مُعْرَبٍ

وَحُلِيَّ أَوْتَارًا وَرَوْضَةَ شَارِبٍ

وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَكْلَكَ جَوْهَرًا

لَا مَا قَمَشْتُ وَضَمَّ حَبْلُ الْحَاطِبِ

ابن درّاج هنا يُلمح إلى أن مدائحه تلك لم يكن يلتبس منها سوى الاستقرار
والبعد عن الغربة والاعتراب .

ويقول فيه - أيضاً- (١) :

يَا مَنْ يُلَاقِي النَّازِلِينَ قِبَابَةً^(٢)

بِجَبِينِ مَوْهُوبٍ وَرَاحَةِ وَاهِبٍ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٩٣ .

(٢) قِبابة : جمع قبة ، وهي الخيمة .

ويقول في ابن باق^(١) :

تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ

كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ الْمُجِيبِ

يَهِيمُ^(٢) إِلَيْكَ بِهِمْ شُجَاعٍ

وَيَجْبُنُ عَنْكَ بِسِتْرِ هَيْبِ^(٣)

وَيَقْتَاذُهُ مِنْكَ صِدْقُ الْيَقِينِ

فَيَرْتَابُ مِنْهُ بَظَنٍّ كَذُوبِ

فها هو ابن باق قد سمع دعوة ذلك الغريب الذي نأى عن وطنه ، فأصبح كثير الدعاء ، ولكن قليل من يسمعون دعاءه .

وهذا دليل يقدمه ابن درّاج على مدى إحساسه بالغربة السياسية ، فابن درّاج « تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه حتى أخرجته المحن وسالت به تلك الفتن »^(٤) .

ابن درّاج لم يجد من يسمعه ومن يستجيب له ، فيخرجه من دائرة الهم والغربة ، وإن وجد فهم أقل من القليل مقارنة بالعدد الهائل من الحكام والوزراء الذين مدحهم . وكما قلنا إن ابن درّاج لم يترك أميراً ولا والياً ولا كاتباً ولا وزيراً ولا قاضياً إلا مدحه رغبة في الحماية والاستقرار ، وهنا يمدح أحد وزراء قرطبة الذي هبت رياح عطايه ومنواله وكرمه على ذلك الغريب ، يقول^(٥) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٩٦ .

(٢) يهيم : يسرع إليك .

(٣) هيب : جبان يهاب كل شيء .

(٤) الذخيرة ، لابن بسم ، ص ٦٠ ، ق ١ ، م ١ .

(٥) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٩٢ .

عَرَفْتُ عَوَارِفَكَ^(١) السَّابِقَاتِ

بَوَادِي السَّنَا وَاضِحَاتِ السَّمَاتِ

وَمَا كَدْتُ أَبْسُطُ لَحْظَ الْغَرِيبِ

وَمَا أَنْ حَلِي عِقَالِ الْأُنَاةِ

وَبَيْنَ أَرَاقِبُ نَشْءِ السَّحَا

بِهَبَّتْ رِيَا حُكَّ لِي بِالْهَبَاتِ

ويقول في الوزير عيسى بن سعيد^(٢) :

وَبَوَّأَنِي فِي قَصْرِهِ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ

وَحَظِّي مُلْقَى يَسْتَعِثُّ مِنَ السُّفْلِ

وبعلو مكانة ابن درّاج تعلو نبرة الأمل ، فقد تبوّأ عند هذا الوزير أعلى المنازل والمراتب ، ولا يكون ذلك إلا بإجابة الدعوة وإجزال العطاء والكرم ، ولذلك نراه في أبيات أخرى له في ابن يحيى وهو منذر بن يحيى يقول : إن البرّ والبحر قد شهد له بأن ابن يحيى سيجيب دعوته ، ويسمع له بعد أن صمّ الكثيرون آذانهم عن ندائه.
يقول^(٣) :

وَقَدْ شَهِدَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ أَنِّي

بِقُرْبِ (ابْنِ يَحْيَى) مُجَابَ الدُّعَاءِ

(١) عوارفك : أي ما عرف من كرمه .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

وَأَنْتَ أَنْتَ الصَّرِيحُ السَّمِيعُ

إِذَا صَمَّ مُسْتَمِعٌ عَنْ نِدَائِي

ويقول في بعض رؤساء الكتاب (١) :

وَلَيْسَ بِأَوَّلِ شَعْبٍ رَأَيْتَ

وَلَا صَدَعَ شَمْلٍ ضَمِنْتَ التَّامَةَ

فَمَا دَوِيَ الشَّعْرُ إِلَّا بَعَثْتَ

إِلَيْهِ شَمَائِلَ تَشْفِي سَقَامَهُ

ويقول - أيضاً - في بعض رؤساء الكتاب (٢) :

دَعَاؤُ فُلَبَّانِي وَآوَى تَغْرُبِي

إِلَى كَرَمٍ لِلْعِزِّ ذِي مُرْتَقَى صَعْبٍ

وَجَلَّى هُمُومِي مِنْ سَنَاهُ بَيَارِقٍ

أَضَاءَ بِهِ مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ

ويمدح ابن درّاج كاتباً آخر بأنه أكرم مقامه بعد أن تجول في الفلوات والبحار ،
حاملاً معه أفلاذ قلبه ، فأنساهم بكرمه أمواج البحار والسير في الليل ، وأزال عنهم
الهموم والحزن ، يقول (٣) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

فَإِنْ ذَكَرْتَنِي لِيَالِي الْمَقَامِ
لَدَيْكَ نَعِيمًا بِدَارِ الْمُقَامَةِ
فَكَمْ لُجَّ بَحْرٍ وَضَحَضَاحٍ قَفَرٍ
أَجُولُ الْفَلَا بَيْنَ غُولٍ وَهَامَةٍ
مُعْنَى بِأَفْلَازٍ قَلْبِ حَوَامٍ^(١)
تُبَارِي إِلَى كُلِّ مَاءٍ سَمَامَةٍ^(٢)
وَكُلُّهُمْ نَمِرِي وَإِنِّي
لِكُلِّ هُنَالِكَ (كَعْبُ بْنُ مَامَةَ)
وَأَعْذَرَ مُبْلَغَهُمْ حَيْثُ أَلْقَوْا
عَصِيَّ النَّوَى وَرِحَالَ السَّامَةِ
وَأَنْسُوا بِبَحْرِكَ مَوْجَ الْبَحَارِ
وَمَيْدَ السَّفِينِ بِهَا وَارْتِطَامَةِ
وِظْلِكَ أَنْسَاهُمْ لَيْلَ هَمٍّ
يُقَاسُونَ فِي لَيْلٍ يَمُّ غَرَامَةِ
وَتُورُكَ أَنْسَاهُمْ آلَ قَفَرٍ

(١) أفلاذ : القطعة من اللحم ، كعب بن مامة : يشير إلى ما يذكر عن كعب بن مامة الإيادي ، أحد أجواد العرب المشهورين ، من رفيقه النمري حتى مات عطشاً ، ونجا النمري .

(٢) سمَام : ضرب من الطير .

وَحَرَّ الْهَجِيرِ بِهَا وَاحْتِدَامَهُ^(١)

وَوَعْدُكَ بِالْفَضْلِ أَنْسَاهُمْ

وَعَيْدَ الرَّدَى حَيْثُ حَلُّوا خِيَامَهُ

وله في بعض القضاة^(٢) :

وَتَبَسُّطُ مَنْكَ لِلْغُرَبَاءِ وَجَهَاءِ

يُجَلِّي عَنْهُمْ كُرْبَ الْجَلَاءِ

إلى أن قال :

وَكَمْ أَحْيَيْتَ مِنْ نَاءٍ غَرِيبِ

فَقِيدِ الْأَهْلِ مُنَبَّتِ الْإِخَاءِ

وَكَمْ نَفَّسْتَ كُرْبَةَ مُسْتَكِينِ

تَأَخَّرَ عَنْهُ نَصْرُ الْأَوْلِيَاءِ

وَكَمْ جَلَّيْتَ مِنْ خَطْبِ جَلِيلِ

وَكَمْ دَاوَيْتَ مِنْ دَاءٍ عِيَاءِ

ويقول في مدح يحيى بن علي ، وهو كما ذكر محقق الديوان الملقب بالمعتلي

بالله ، وقد تولى الخلافة مرتين :

الأولى : بقرطبة في جمادى الأولى سنة ٤١٢ هـ ، بعد فرار عمه القاسم بن

حمود .

(١) آل : الآل : السراب .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الثانية : بعد خلع المستكفي بالله سنة ٤١٦ هـ ، يقول ابن دراج^(١) .

سَلَامٌ عَلَى مُسْتَوْدَعِ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ
وَذُخْرِ غَدِي مِمَّا انْتَحَبْتُ لَهُ أَمْسِ
بَحَيْثُ تَخَطَّيْتُ الْمَنَايَا إِلَى الْمُنَى
وَأَنَسَ وَحْشِي بِالْفَلَاحِ كَرَمِ الْأُنْسِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٦٠ .

ثالثاً - الغربة المكانية

ولقد قصدنا بالغربة المكانية ذلك الإحساس الذي يحاول الشاعر تصويره حينما ينتقل من مكان إلى مكان لتحقيق رغباته وأحلامه واصفاً إحساسه بالغربة ، وذاكراً تلك الأقاليم أو المدن التي توجه إليها ، وحينما يصل إلى تلك البلاد يُصاب بخيبة أمل كبيرة ؛ إذ يُفاجأ الشاعر بأنه لا يستطيع تحقيق طموحاته ولو كان جزءاً بسيطاً منها .

فالغربة كما نعلم تحمل معاني متعددة منها : الشعور بالانفراد، والتيه، والوحشة، والشعور بالغدر والخيانة، كما أنها تضح بمعاني الشوق والحنين إلى الموطن الأول . فهناك شعراء كثيرون تحدثوا عن هذه الغربة ، إلا أن ابن درّاج كان من أكثر الشعراء الذين تناولوا هذا الجانب ، كما صرح بذلك الدكتور أشرف دغرور^(١) .

فابن درّاج قد شاع في عصره الفتن وهذا يعني بأنه كان مضطراً للرحيل ، فقد غادر ابن درّاج قسطنطة موطنه الأول ، متجهاً إلى قرطبة عاصمة الدولة الأندلسية ، مادحاً رؤسائها ، واستمر في مدحهم حتى آخر أمير لها ويدعى القاسم .

« ويبدو أن ابن درّاج لم يجد لدى القاسم ما كان يأمله وحينئذٍ قرر مغادرة قرطبة »^(٢) .

فيغادر القسطلبي بلاد الأندلس تاركاً وراءه كل ما تعج به من فتن واضطرابات، فنراه يتجه إلى سبتة « وقد كانت هذه أول رحلة لابن درّاج خارج حدود الأندلس ، وآخرها على ما يظهر »^(٣) .

(١) الغربة عقب سقوط الخلافة د / أشرف دغرور ، ص ٨٣ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

ولكن تتابع الفتن وتواصلها أضف إلى ذلك خيبة الأمل التي جناها ابن درّاج في سبتة ، تلك الأمور التي كانت كفيلة له بأن تجعله يترك مدينة سبتة التي انقطع فيها أمله، فيعود إلى بلاد الأندلس مرة أخرى قاصداً أقاليمها ، فتغرب فيها وطرق أبوابها ، ومن تلك الأقاليم : بلنسية والمرية « وقد تردد ابن درّاج ما بين سنتي ٤٠٤هـ — ١٤٠٤م ، و ٤٠٨هـ — ١٠١٨م ، مادحاً أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل »^(١) .

هذا الرحيل الدائم — كما قلنا سابقاً — جعله يشعر بالوحشة والغربة ، فابن درّاج رجل محب للوطن ، محبٌ للاستقرار ، ولذلك لم يعرف القسطل قط حياة الاستقرار والهدوء ، فحملة هذا الأمر إلى الشعور بالغربة المكانية حيث يكون في إقليم من أقاليم الأندلس ، ويرى فيه الوطن البديل ، ولكنه يشعر بالوحدة والتفرد ، ومدى الحاجة إلى الأمن ، وبهذا نرى الدكتور أحمد هيكل يقول عنه : « ثم شيء أخير يلاحظ في طبيعة ابن درّاج ، وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن والإحساس بضرورة الحامي الذي يتحقق في ظله الاستقرار »^(٢) .

فهناك شعراء كثيرون قد عبروا عن هذا النوع من الغربة «ولكن يختلف بالنسبة لشعراء الأندلس الذين اضطروا وأجبروا على ترك أوطانهم في ظل تلك الأوضاع المتردية التي أعقبت سقوط الخلافة ، وقيام الفتنة ، فهاجروا وتغربوا باحثين عن مدن أكثر أمناً واستقراراً في داخل الأندلس ، أو خارجها »^(٣) .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٨ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٠٨ .

(٣) الغربة عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف دغرور ، ص ١٢٣ .

ابن درّاج اختلف عن الشعراء الذين تحدثوا عن هذا النوع من الغربة ، كونه أجبر على ترك وطنه ، وحينما يجبر المرء على ترك ما يحب فلا بد أن يكون حنينه وألمه نابغاً من تجربة إنسانية صادقة ؛ وكذلك حينما يُجبر على التغرّب ثم لا يجد ما كان يأمله من حسن ضيافة ، « يعني عدم الترحيب بالضيف يعني رحيله »^(١) .

يقول ابن درّاج^(٢) :

وَمَنْ يَمْنَعُ الضَّيْفَ رَحْبَ الْفَنَاءِ
فَقَدْ قَادَهُ لِلْفَضَاءِ الرَّحِيبِ

ولا شك أن عدم الترحيب به كان يترك أثراً يبعث في نفسه أقسى وأقصى شجن وألم مما يجعله يتذكر كل الصعاب وكل الخطوب التي وقع فيها أثناء انتقاله إلى ذلك الإقليم.

يقول ابن درّاج^(٣) :

فَلَنْ صَفَا مَاءُ الْحَيَاةِ لَدَيْكَ لِي
فَبِمَا شَرَقْتُ إِلَيْكَ بِالماءِ الصَّرَى^(٤)
وَلَكِنْ خَلَعْتَ عَلَيَّ بُرْدًا أَخْضَرَا
فَلَقَدْ لَبَسْتُ إِلَيْكَ عَيْشًا أَغْبَرَا
وَلَكِنْ مَدَدْتَ عَلَيَّ ظِلًّا بَارِدًا
فَلَكُمْ صُلَيْتُ إِلَيْكَ جَوًّا مَسْعَرَا

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٤) الصَّرَى : هو الماء الذي طال استنقاؤه .

فما ذكره الشاعر هنا لم يكن إلا جزءاً من تطلعاته وأمانيه التي يأمل أن يجنيها في تلك البلاد ، ولكن حينما يصل لا يجد فيه ما كان يرجوه ، فيتابع رحيله ويتنقل ، ويكفي أنه في بعض الأحيان يجوب تلك البلاد وحيداً منفرداً غريباً ، كما يقول^(١) :

تَغْرَبَ فِي الْبِلَادِ فَأُفْرِدَتْهُ

فَقِيدَ الْعِزَّ مَجْحُودٌ^(٢) الذِّمَامُ^(٣)

هذه النبرة وهذه الحسرة التي تغلف هذه الكلمات تنقل لنا الإحساس الصادق الذي يغمر الشاعر بالحزن العميق ، فهو قد تغرب في البلاد ، وقطع القفاري وحيداً منفرداً ، فاقداً للعز ، قد جُحِدَ وأنكر من الناس ، ومضيعاً لذمامه ، فابن درّاج يحاول أن يصور لنا مدى تغربه ، ويحاول أن يضع يده على موضع جرحه ، ولكن خيبة الأمل دائماً تلاحقه ، ولذلك فهو لا يقوى على الاستمرار في الإقامة في تلك البلاد . فها هو ذا يجر أذيال الخيبة ، فيترك قرطبة ويتجه إلى سبتة التي كان يرأسها علي بن حمود آنذاك . ولم يغفل ابن درّاج عن بث الشكوى ووصف نفسه بالغريب الذي نأى عن موطنه ، وانقطع عن الناس ، فتتابعت عليه الهموم والأحزان ، يقول^(٤) :

غَرِيبٌ وَكَمْ غَرَبْتُ رَاحَتَا

هُ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَجْهِ بَكْرٍ بَتُولٍ^(٥)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٩٣ .

(٢) جحد : هو الإنكار مع العلم والضيق في المعيشة .

(٣) الذِّمَام : كل حزمة تلزمك إذا ضيَّعتها .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٥ .

(٥) بَكْر : الفتاة العذراء . بَتُول : العفيفة ، ويريد بناته .

ولكنه - أيضاً - بالرغم من هذا التغرب لم يجد ما كان يأمله في قرطبة ، فقرر الرحيل » ولم ينسَ مرارة ثماني سنوات من الاغتراب والشقاء وخيبة الأمل ، قضاها في رحاب العامريين الذين لم يجد منهم أذناً مصغية »^(١) .

فاتجه إلى بلنسية التي كان يرأسها مبارك ومظفر العامريان ، يقول في ذكره لبلنسية^(٢) :

فَإِنْ وَجَبَتْ لِلْمَغْرِبِينَ جُنُوبُهَا

فَدَاوِي بَرْقَرَاكِ السَّرَابِ خُمَارِكِ^(٣)

وَأُورِي بَرْزَنْدِي سُدْفَةً وَدُجْنَةً

إِذَا كَانَتْ لِي مَرْخَاكِ وَعِفَارِكِ^(٤)

وَإِنْ خَلَعَ اللَّيْلُ الْأَصَائِلَ فَاخْلَعِي

إِلَى الْمَلِكَيْنِ الْأَكْرَمَيْنِ عِذَارِكِ

(بَلَنْسِيَّة) مَثْوَى الْأَمَانِي فَاطْلُبِي

كُنُوزَكَ فِي أَقْطَارِهَا وَادِّخَارَكَ

سَيْنِيكَ زَجْرِي عَنْ (بَلَاءِ نَسِيَّتِهِ)

إِذَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْقُصُورُ قِصَارَكَ

فهل كانت (بلنسية) هي مَثْوَى آماله وأحلامه كما قال ؟ وهل استطاع نسيان ذلك البلاء ؟ وما هو هذا البلاء ؟

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) الرقراق : هو كل شيء له بصيص وتألؤ فهو رقراق . خمارك : الخمرة : الرائحة الطيبة .

(٤) المرخ والعفار : هو شجر النار أو الزندة .

ترك ابن درّاج لبلنسية دليل قاطع على أنه أصيب فيها بخيبة الأمل ، ولم يستطع نسيان بلائه ، بل ما زال البلاء والرحيل ملازمًا له في كل مكان يقصده .

ويتوجه ابن درّاج متابعًا سلسلة رحلاته، واتجهت آماله هذه المرة إلى المرية التي كان واليها آنذاك خيران العامري ، فكان يرى في المرية الأمل الذي سيطمس به اليأس اللازم له في كل مدينة ينتقل إليها .
يقول (١) :

وَلَا قَنَطٌ وَالْيُسْرُ لِلْعُسْرِ غَالِبٌ

وَفِي الْعَرْشِ رَبُّ الْخَلَائِقِ رَحْمَانٌ

وَلَا يَأْسَ مَنْ رَوْحَ فِي اللَّهِ مَطْمَعٌ

وَلَا بُعْدَ مِنْ خَيْرٍ فِي الْأَرْضِ (خَيْرَانُ)

سَتَنْسَوْنَ أَهْوَالَ الْعَذَابِ وَمَالِكًا

إِذَا ضَمَّكُمْ فِي جَنَّةِ الْفَوْزِ رَضْوَانُ

مَتَى تَلْحَظُوا قَصْرَ (الْمَرِيَّةِ) تَظْفَرُوا

بِبَحْرِ حَصَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانُ

وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرِ شَجَاكُمْ

بِبَحْرِ لَكُمْ مِنْهُ لَجَيْنٌ وَعَقِيَانُ

فهل نسي هو وأولاده الأهوال والعذاب ؟ وهل ألقى عليهم الدر والمرجان والذهب والفضة حينما كانوا في المرية ؟

(١) لجين : ماء الفضة . عقيان : هو الذهب .

« فهو يُمنِّي أولاده بالخير ، ولم يكافئ خيران هذا النفس الطويل بما يستحقه
فبخسه حظه في الجائزة »^(١) .

ولم ينسَ ابن درّاج مرارة الخيانة ، فقد أخرج من تلك البلاد ويرى أن الزمان
هو المسؤول عن هذه الخيانة ، فجعل الدهر هو الخائن، وتوهم الشاعر أن بلاد العراق
وخراسان قد رحبتا بقدومه ، والذي جعله يشعر بهذا الإحساس هو شعوره بالغربة في
تلك البلاد. يقول^(٢):

فإنْ غرَبْتُ أرضَ المغاربِ مَوئلي
وأنْكَرني فيها خَلِيطٌ وخِلَانُ
فكَمْ رَحَّبَتْ أرضُ العِراقِ بمَقْدمي
وأجْزَلَتِ البُشرى عَلَيَّ خُرَاسانُ
وإنْ بَلادًا أخرجتني لِعُطْلُ
وإنْ زَمَانًا خانَ عَهْدي لَخَوَانُ

وبعد أن غادر ابن درّاج المرية اتجهت أنظاره وطموحاته نحو طرطوشة ثم إلى
شاطبة ، ولكنه أيضًا لم ينل مطلبه.

فالشعور بالغربة المكانية وخيبة الأمل كما قلنا سابقًا شعور ملازم لابن درّاج.
يقول الدكتور محمود مكي : «وهكذا نرى كيف تردد القسطلي على هؤلاء الموالي
العامريين دون أن يجد منهم أذنًا مصغية أو يدًا رفيقة»^(٣).

(١) تاريخ الأندلس ، د. أحسان عباس ، ص ٢٢٣ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق، ص ٧١ .

ولذلك رحل ابن درّاج عن تلك البلاد فاتجه إلى سرقسطة، واستدعى في هذه الأبيات شخصيات تاريخية توهم بأنه التقى بها أثناء انتقاله، فقد ورد مياه مأرب ، ووقف بخيله وسط جنة عبقر ، كما نظم قلائد من تاج كسرى وقيصر، وأنس بقوم هود، وأصاب من ملك سبأ وتبع، ولقي الحارث الجفني وحط رحاله عند حاتم الطائي. يقول^(١):

فلئن تركت اللَّيْلَ فَوْقِي دَاجِيَا
فلقد لقيتُ الصُّبْحَ بَعْدَكَ أَزْهَرَا
ولقد وردتُ مِيَاهَ (مَأْرَبَ) حَفْلَا
وَأَسَمْتُ خَيْلِي وَسَطَ جَنَّةِ عِبْقَرَا
وَنَظَّمْتُ لِلْغَيْدِ الْحَسَنِ قَلَائِدَا
من تاج كِسْرَى ذِي الْبَهَاءِ وَقِصْرَا
وحللتُ أَرْضَا بُدِّلْتُ حَصَاوْهَا
ذَهَبًا يَرْفُ لِنَاطِرِيَّ وَجَوْهَرَا
وَلِيَعْلَمِ الْأَمْلَاكُ أَنَّيَ بَعْدَهُمْ
أَلْفَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا

إلى أن قال :

كَلَّا وَقَدْ آنَسْتُ مِنْ (هُودِ) هُدَى
ولقيتُ (يَعْرُبَ) فِي الْقِيُولِ وَ(حَمِيرَا)

(١)ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٦ .

وَأَصَبْتُ فِي (سَبًّا) مُورَثَ مُلْكِهِ
يَسِي الْمُلُوكِ ، وَلَا يَدُبُّ لَهَا الصَّرَا
فَكَأَنَّمَا تَابَعْتُ (تَبَّعَ) رَافِعًا
أَعْلَامَهُ مَلَكًا يَدِينُ لَهُ الْوَرَى
و(الْحَارِثُ الْجَفْنِيُّ) مَمْنُوعَ الْحَمَى
بِالْخَيْلِ وَالْأَسَادِ مَبْذُولِ الْقَرَى
وَحَطَّطْتُ رَحْلِي بَيْنَ نَارِيْ (حَاتِمِ)
أَيَّامِ يَقْرِي مُوسِرًا أَوْ مُعْسِرًا

والسؤال : ما الذي جعل ابن درّاج يتوهم هذه الرحلة التي قطعها في خياله ؟

لعل رغبة الشاعر في الهروب من واقعه السيئ وحظه التعيس في ظل الولاية الجفاة الذين أنزلوه في أقل المراتب ، ولم يلتفتوا إلى شاعريته الممتازة وطموحه العالي . هذا التجاهل دفعه ودفع شاعريته المتقدمة إلى استحضار رحلة قام بها في وحي خياله ، وهذه طريقة للتخلص من ضغوط نفسية حادة يمر بها الشاعر كما ذكرنا من قبل أثناء الحديث عن الاغتراب النفسي .

ورأي آخر ؛ وهو رغبة الشاعر في إثارة عواطف ممدوحه ليجزل له العطاء ، فعنصر الخيال من أقوى أدوات الشاعر ؛ إذ به تُستثار العواطف وكوامن النفس .

ولعل هذا ما دفعه أيضاً إلى ذكر شخصيات تاريخية اشتهرت بالشجاعة والجلود أمثال حاتم الطائي والحارث الجفني .

وسؤال آخر : كيف آنس الهدى من هود ، وورث من سبأ ملكه ؟

ربما قصد أنه وجد عند هود الراحة والاطمئنان ، فالأنس والهدى اللذان وجدتهما عند هود بمعنى الاستقرار والراحة .

وهناك سؤال آخر : هل قصد قوم هود وقوم سبأ ؟ أم قصد النبي هودًا u
ومملكة سبأ ؟

والذي نعتقده أنه قصد النبي هودًا u ومملكة سبأ وليس أقوامهم ؛ لأن ابن
درّاج يعيش حالة اغتراب وغربة ، وهو في حاجة ملحة إلى من يزيل عنه هذا
الإحساس، وبذلك لم يقصد إلا من بيده أن يدفع عنه جور الأيام، ويبعده عن حياة
التشرد ؛ فالنبي بهديه الذي سيضفي عليه الراحة النفسية والروحية ، ومملكة سبأ بمالها
وكرمها وجودها .

إن هذه الرحلة تصور آمال ابن درّاج ورغبته في الاستقرار المكاني الذي
سيجلب بدوره راحة نفسية للشاعر .

«و لم يخب أمل ابن درّاج في هذه المرة ؛ فقد أتيح له في سرقسطة جو من
الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة وفي بلاط التجيبي وابنه يحيى ،
الذي قضى معه ابن درّاج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة»^(١) .
ويبدو أن ابن درّاج بالرغم مما قد أتيح له من وسائل السعادة والهناء في سرقسطة
إلا إنه لم ينس قرطبة التي نعم فيها بالرخاء .

فنراه يحن إليها قائلاً^(٢) :

وَاجْنَحْ لِقُرْطُوبَةٍ ، فَعَانِقْ ثُرْبَهَا
عَنِّي بِمَثَلِ جَوَانِحِي وَتَرَائِبِي

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

ويقول أيضاً^(١):

وَدَوْلَةٌ سَبَقَتْ آمَالَنا كَرَمًا

كَأَنَّ ما قَدْ تَمَتَّيْنَا تَمَنَّانا

وَدَعْوَةٌ أَعْلَنَ الدَّاعِي فَاسْمَعَهَا

مَنْ قَصَرَ (قُرْطُبَةَ) أَقْصَى خُرَاسانا

إلا أن الحال تغير سريعاً ، فلم يسلم ابن درّاج من تقلب الأيام عليه ، فساءت العلاقة بينه وبين والي سرقسطة يحيى بن المنذر ، فاتجه إلى (دانية) التي كان أميرها آنذاك مجاهد العامر « فهو يرى في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس »^(٢) .
يقول ابن درّاج بعد أن ضاق به المقام ورأى في مجاهد آخر أمل له^(٣):

إلى أيّ ذكر غير ذكركِ أرتاحُ

ومن أيّ بعد بحركِ أمتاحُ

إليك انتهى الرّئي الذي بك ينتهي

ولاح لي الرّأي الذي بك يلتاحُ

ويقول محمود مكي أيضاً : «ولا يستبعد أن تكون العلاقات قد ساءت بينه وبين يحيى بن منذر إلى حد أنه خاف على حياته فقرر الهجرة من سرقسطة ، وعاد مرة أخرى إلى الاستجارة بأحد الموالي العامريين ، وكان هذه المرة مجاهداً العامري»^(٤) .
هكذا أخذ ابن درّاج ييث الشكوى ، ويوضح مدى إحساسه بخيبة الأمل .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

يقول (١):

غَرِيبٌ تَحَلَّيْتُ بِآدَابِهِ

بِلَادُ تَوَاصَتْ بِتَعْطِيلِهِ

ويكاد ابن درّاج يموت من الأسى دون أن يحقق أي طموح في تلك البلاد التي
تواصت على تعطيله وإخراجه. يقول (٢):

وَهَا أَنْذَا مَا إِنَّ أَمُوتُ مِنَ الْأَسَى

بِوَقْرِ عَلَيٍّ وَثِقَلِ عَلَى ثِقَلِ (٣)

وَلِيَ النَّدَى أَصْبَحْتُ فِي دَوْلَةِ النَّدَى

كَأَنِّي عَدُوُّ الْبُخْلِ فِي دَوْلَةِ الْبُخْلِ

يُقْتَلُ أَخْفَى الْيَأْسِ أَحْيَى أَمْطَالِي

لِيَالِي جَلَّ الْوَعْدُ عَنْ رِيَةِ الْمَطْلِ (٤)

وَأَبْدِي لِلْسَّعِ الدَّبْرِ وَجْهِي مُنَازَعًا (٥)

وَقَدْ فَازَ غَيْرِي سَالِمًا بِجَنَى النُّحْلِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٦٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩ .

(٣) وقر : الثقل يحمل على ظهر أو على رأس دليلاً على الذلة والمهانة . والوقر : الخطب الشديد .

(٤) المطل : المماطلة .

(٥) أبدي : أظهر . السع : الضرب بمؤخرة النحل . والدبر : ذكور النحل .

رابعاً - الغربة الاجتماعية

١ - غربة الناس .

لقد ساعدت الظروف السياسية القلقة في فترة ملوك الطوائف إلى ظهور نوع آخر من أنواع الغربة ، وهي الغربة الاجتماعية .

وقد تمثلت هذه الغربة عند ابن درّاج في غربة الناس ، فالظروف السياسية الحرجة التي مرت بها المدن الأندلسية في تلك الحقبة الزمنية كان لها أثر شديد على شخصية ابن درّاج ؛ فقد أُجبرَ القسطلي على الرحيل والانتقال بحثاً عن مكان آمن ، وهذا الرحيل كان من نتائجه التعرف على مجتمعات مختلفة ، وعلى أناس مختلفين في عاداتهم ، وتقاليدهم ، ويختلفون في وفائهم وغدرهم .

فابن درّاج الشاعر المسالم المحب للخير ، و« قد صدم في أول عهده بالانتقال إلى قرطبة و عانى كثيراً من الدس والتحريض والاقهام بانتحال الشعر . . . وقد خلف في نفسه نوعاً من القلق وعدم الاطمئنان ، مما حمله حملاً على البحث عن المستقر والإلاحاح في طلب الحامي واللجوء إلى ظل القوي »^(١) .

فأول غربة شعر بها ابن درّاج من الناس أو الأفراد انعدام (الوفاء والأمان) ، فكان ابن درّاج يشعر بأن جميع المحيطين به ما هم إلا أعداء له يريدون التنكيل والإطاحة به ، هذا الشعور جعله يفتقر إلى الوفاء والأمان اللذين يسعى إليهما كل إنسان ، سواء كان في وطنه أو خارج وطنه .

ولكن الأمر يختلف عند ابن درّاج الذي كان غريباً عن تلك البلاد ، ولذلك كانت حاجته إلى الوفاء والأمن من الضروريات التي تساعد على التكيف والاستقرار واستمرار الحياة في تلك البلاد .

(١) الأدب الأندلسي ، د / أحمد هيكمل ، ص ٣١٠ .

ولكن انعدامها كان له أثرٌ سلبي على شخصية ابن درّاج ، فالإحساس بالغربة بين أناس تتفق معهم في عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم إحساس يبعث على المرارة والحزن .
وقد تمثل غدر هؤلاء الناس لابن درّاج في عدة أمور ، وهي :

أولاً- الحساد :

فقد تمثل غدر هؤلاء الناس لابن درّاج في اندفاعهم بطريقة همجية عمياء في التحريض والتشكيك في قدرات ابن درّاج الشعرية. هذا السلوك العدواني جعل ابن درّاج يبحث عن الحامي والناصر الذي يدفع عنه غدر هؤلاء الحساد . ولكي يجد الناصر لا بد أن يلجأ إلى المديح على نحو قوله^(١) :

وَقَدْ وَجَدْتُ عِيَاذَ اللَّهِ أَمْنِي

فِي ذِمَّةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ مَا حَزَبَا

مِنْ شَرِّ تَشْغِيبِ حُسَّادِي إِذَا حَسَدُوا

وَشَرِّ غَاسِقٍ^(٢) أَيَّامِي إِذَا وَقَبَا^(٣)

وَفَلَّ عَنِّي أَحْزَابَ الْعِدَى مَلِكٌ

مُعَوِّذٌ أَنْ يَقُلَّ الْجَحْفَلُ^(٤) اللَّجْبَا^(٥)

إذاً « لا بد للقسطلبي لكي يتلاءم مع فترة الحجابة ، وحتى لا ينال من الأذى ما ناله كثيرون ، أن يُسخرَ فنه في خدمة المنصور ومدحه ومدح ولديه . ثم أظلت بعد

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) الغاسق : هو ظلام الليل .

(٣) وقب : أي دخل .

(٤) الجحفل : الجيش الكثير .

(٥) اللجب : صوت العسكر ، وعسكر لجب عرمرم : ذو لجب وكثرة .

ذلك فترة الفتنة بما فيها من قلق وخوف وضياح ، مما يدفع دفعا إلى طلب الحمى ، والبحث عن المستقر ، واللجوء إلى القادرين على الحماية المحققين للاستقرار من ذوي النفوذ والسلطان ، فلعل ذلك كله كان من أسباب أمداح ابن درّاج الكثيرة . فالحق أن أحواله الخاصة ، وأحوال عصره العامة تفسر هذا ، بل تسوغه إلى حد كبير «^(١) .

فهؤلاء الناس قد طبع على قلوبهم الغدر والحسد ، وليس هناك ما يشغلهم سوى الغدر بابن درّاج . فهذا الشعور كان شعورا ملازما لابن درّاج والذي زاد في حدة هذا الإحساس هو بعده عن وطنه ، فهو يرى أنه غريب عن الناس ، مما أتاح للحسود والحاقد أن ينهشوا من لحمه ، ويتربصوا له ، يقول^(٢) :

بَعِيدٌ مِنَ الْأَوْطَانِ مُسْتَشْعِرُ الْعِدَى

غَرِيبٌ عَلَى الْأَمْوَاهِ مُتَّهِمُ الصَّحْبِ

أَقَلُّ مِنَ الرِّبَالِ فِي الْأَرْضِ آلَفًا^(٣)

وَإِنْ كَانَ لَحْمِي لِلْحَسُودِ وَلِلْخَبِ^(٤)

وَأَعْظَمُ تَأْنِيسًا لِدَهْرِي مِنَ الْمَنَى

وَأَوْحَشُ مِنْهُ مِنْ فَتَى الْجُبِّ فِي الْجُبِّ^(٥)

فإحساس ابن درّاج بالغربة عن الناس جعله يشعر أن كل إنسان يحاول تحقيق طموحاته وأحلامه لا بد أن يكون محسودا من الناس ، ويكون له الغدر والحقْد .

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكال ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٢ .

(٣) الرِّبَال : الأسد والذئب .

(٤) اللخب : الخداع .

(٥) يعني بفتى الحب : سيدنا يوسف u ، والجب : الحفرة العميقة أو البئر .

هذا الشعور جعله يشعر أن المنصور بن أبي عامر محسود من جميع ملوك الأرض قاطبة . وبالرغم أن كل ذي نعمة محسود عليها ، إلا أن الأمر قد تجاوز حده عند القسطلبي ، ولذلك أكثر الحديث عن هذا الأمر على نحو قوله^(١) :

وَأَبَ مَنْصُورُ قَحْطَانٍ بَعِزَّتِهِ

أَوْبًا تَذُوبُ مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ حَسَدِهِ

فَاللَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَعْدَائِهِ أَبَدًا

وَيَسْتَزِيدُ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي عَدَدِهِ

ويقول^(٢) :

أَوْ يَحْسُدُونَكَ رُبَّةً فَلْيَرْتَقُوا

فَالشَّمْسُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ السَّامِي

وقال - أيضاً^(٣) :

وَهَفَّتْ بِهِ خُدْعُ الظُّنُونِ وَلَمْ يَزَلْ

حَسَدُ الْقَرَابَةِ طَائِشَ الْأَحْلَامِ

فالناس في نظر ابن درّاج حساد حاقدين ، ولهذا نرى ابن درّاج يدعو ممدوحه إلى فقأ كل عين حاسدة ، ويقول^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

تُصْنِي بِسَعِيكَ كُلَّ أَنْفٍ شَامِخٍ
قَهْرًا وَتَفْقَأُ كُلَّ عَيْنٍ حَاسِدَةٍ

ويقول (١) :

كَحَدِّ سَيْفِكَ يَا مَنْصُورُ إِنْ سَلِمْتَ
مِنْهُ مُلُوكُ الْعَدَى مَاتُوا لَهُ حَسَدًا

ثانيًا : كما تمثل غدر الناس لابن درّاج في : ابتعاد الناس عنه ؛ لضيق الحال ،
ولذلك نراه في الأبيات التالية يخاطب كل من ابتعد عنه ، ولم يقدم يد العون والمساعدة
بأنه سيحقق آماله وطموحاته .

يقول (٢) :

عَسَى الَّذِينَ نَأَوْا عَنِّي أُخْبِرُهُمْ
بِأَنَّ نَفْسِي مَبْلُوغٌ أَمَانِيهَا

فالإنسان بطبعه الشرير قد يحقد ويغدر ، ولكننا نجد الأمر قد تفاقم وتجاوز حدّه
عند ابن درّاج ، فلم يكتف بإسناد الغدر للإنسان فقط ، بل يرى أن الدهر — أيضًا —
يغدر به ، بل إن الوفاء — أيضًا — يغدر به ، ويصفه بالخيانة ، يقول (٣) :

وَاسْأَلْ بِضَيْفِكَ كَيْفَ بَعْدَكَ حَالُهُ
وَقَدْ اقْتَضَتْهُ بَعْدَ دَارٍ دَارُ

(١) ديوان ابن دراج ، ص ٣٠٠ .

(٢) ، المصدر السابق ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

غَدَرَتْ بِهِ أَيَّامٌ عَامٍ قَدْ وَفَى

أَنَّ الْوَفَاءَ بَعَثَ غَدَارُ

فانتشار الغدر من الناس والدهر ، بل حتى من الوفاء بذاته شيء مرعب ، أرب ابن درّاج ، ولذلك نراه يلح إلحاحاً شديداً في ضرورة انتشار الأمن والاستقرار ، هذه الرغبة الملحة ظهرت بطريقة جلية في شعره ، فحينما يمدح ملوك الأندلس في تلك الحقبة الزمنية المضطربة يمدحهم على أنهم استطاعوا أن ينشروا الأمن والاستقرار .
على سبيل المثال قوله (١) :

لَبِسْتَ الْأَمْنَ حِينَ تَمَنَعْتَ

آفَاقَهَا وَتَبَاعَدَتْ أَقْطَارُهَا

فهو يرى أن الأمن عبارة عن ثياب يُلبس .

ويرى أن الأمن ما هو إلا عهد لا بد من الوفاء به ، يقول (٢) :

أَلْقُوا إِلَيْكَ بِأَيْدِي الذُّلِّ فَاعْتَقِدُوا

عَهْداً مِنَ الْأَمْنِ مَحْفُوظاً لَهُ الذِّمُّ

ويجعل الأمن الذي انتشر في عهد ممدوحه حصناً قوياً يفتك ويصرع كل غادر ومخادع ، يقول (٣) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

فَتِلْكَ مَصَانِعُ الْأَمْنِ اسْتَحَالَتْ^(١)

مَصَارِعَ كُلِّ ذِي خَيْرٍ وَمَيْنٍ^(٢)

كما يستعير لفظة الرياض للأمن ، فيقول ^(٣) :

فَهَذِي رِيَاضُ الْأَمْنِ تُزْهِرُ بِالْمُنَى

وَهَذِي سَمَاءُ الْفَضْلِ تَهْمِي بِإِفْضَالٍ

كما يتصور الأمن في صورة ظلال يستظل بها لامتداد ظل الأمن في كل أنحاء المعمورة ، يقول ^(٤) :

ظِلٌّ لِمَنْ مَدَّ ظِلَّ أَمْنٍ

فِي كُلِّ أَرْضٍ وَكُلِّ ثَغْرِ

ويقول - أيضاً ^(٥) :

فَبِهَا وَسِعَتْ الْأَمْنُ أُمَّةً فِتْنَةً

نَعِمَتْ بِعِطْفِكَ فِي الظُّلَالِ الْبَارِدَةِ

كما يرى الأمن في صورة نظام مترابط ، فيطير إليه خوفاً من تبدده ، فيقول ^(٦) :

رَأَى نِظَامَ الْأَمَانِ فِي تَأَلُّفِهِ

فَطَارَ نَحْوَكَ خَوْفًا مِنْ تَبَدُّدِهِ

(١) مصانع : الحصون والأبنية .

(٢) الختر : الفساد ويكون في الغدر ، المين : الكذب .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

ويجعل الأمن شيئاً يستلذ بطعمه ، فيقول (١) :

وَبِكَ اسْتَبَانَ الصُّبْحُ طَارِقُ لَيْلِهِ

وَالْتَذَّ طَعْمَ الْأَمْنِ خَائِفُ حَتْفِهِ

ويقول (٢) :

لِيَالِي فِي مَأْوَاكَ أَمْنِي مِنَ الرَّدَى

وَفِي ظِلِّكَ الْمَمْدُودِ نَشْرِي مِنَ الرَّمْسِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

- غربة الأصدقاء -

وترتفع نعمة الغربة الاجتماعية في نفس ابن درّاج إلى نعمة حزينة يلفها الخذلان والغدر ، وهذا الخذلان كان أكثر مأساوية؛ لأنه ينبثق من غدر الأصدقاء والإخوان ، وهذه اللفظة الأخيرة لفظة غنية بطاقتها الانفعالية ، وتتكدس فيها المشاعر ، فهي تحمل معنى التضامن ، والتلاحم والتآزر ، ففي الحديث النبوي الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، وشبَّك بين أصابعه ، وأيضاً : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، هذا الود وهذا التراحم الذي يجمع بين المؤمن والمؤمن هو كذلك ما يجمع بين الصديق وصديقه ، إذا كانت صداقتها يربطها الحب في الله ؛ لقول الرسول ٢ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ، وذكر منهم : « اثنان تحابَّا في الله ، اجتمعا عليه وافترقا عليه »^(١) .

فالعلاقة بين الصديق وصديقه لا بد أن تكون على أساس الحب في الله ، والبغض في الله ، ففي الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » ، وذكر منهم : « أن يحب المرء لا يحبه إلا الله »^(٢) ، فمثل هذه الصداقة حرّياً بما أن توصف بالأخوة القائمة على الترابط والتكافل والتعاهد على عمل الخير ، فالصداقة والأخوة تحمل معنى المساندة والمساعدة والوقوف مع الصديق في السراء والضراء ، وفي الفرح والترح . والصديق - أيضاً - هو الذي يحفظ حق صديقه في قربه وبعده ، فيشتاق له وكأنهما يشتركان في قلب واحد .

هذه العلاقة الحميمة التي تجمع بين الأصدقاء علاقة وطيدة إذا تقطعت روابط هذه العلاقة كان أثرها أكثر عذاباً للنفس الحساسة ولاسيما شخصية كشخصية ابن

(١) رياض الصالحين للنووي، الباب : الأول صدر الحب في الله، ص ١٣٣ .

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للعسقلاني ، ص ٧١ .

درّاج الذي اتصف بشدة الحساسية ، ورهافة الحس والوجدان ، كما قال عنه الدكتور أحمد هيكل: « كذلك كان في طبيعته كثير من الجد والحساسية المسببين لشيء غير قليل من الأسى »^(١) .

فالحياة لا تحلو أبداً من غير صديق وفي أمين محافظ على أسرار صديقه ، ولكننا نجد أصدقاء ، أو ممن يدعون الصداقة يهجرون أصدقاءهم ، ويخسروهم لأبسط الأسباب؛ فهؤلاء عاجزون عن كسب الإخوان

. فلماذا هذا الهجران والغدر الذي تعرض له شاعر كابن درّاج ؟

هذا السؤال جعل كثيراً من الناس يقعون في الحيرة والدهشة ؛ لذلك نجد الدكتور السيد جاسم يتساءل عن أسباب غدر الأصدقاء قائلاً : « ويحار الإنسان في ظاهرة تعرض الشرفاء لغدر وخيانة الأصدقاء ، هل هو سوء الحظ أم البلاء ؟ وهل الشريف يغري الصديق بخيائته بسبب شرف طبعه، ونبل نفسيته، وترفعه عن العقاب ؟ أم أن الحسد يحرك ذيله في نفس الصديق الذي يرى بنفسه علو مكانة صديقه الشريف، فيغار ويحقد وينتقم »^(٢) ؟

وقد يكون الحقد والحسد وراء هذا الغدر - كما قال الدكتور السيد جاسم - ولكن لا نغفل - أيضاً - أن للسفر مساوئ ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أبو عمر الندوي في كتابه^(٣) ، حيث ذكر إن من هذه العيوب اختلاط الأمور على المسافر ، فقد يظن العدو صديقاً ، والصديق عدوًّا ، ويرى الأمين خائناً ، والخائن أميناً .

فهل وقع ابن درّاج في هذا الاختلاط ، وتشابكت معه الأمور حتى أصبح لا يفرق بين الصديق والعدو بسبب كثرة أسفاره ؟

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٠٨ .

(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، د / السيد جاسم ، ص ١٠٢ .

(٣) أنيس المسافر ، د / أبو عمر الندوي ، ص ٤٤ .

يقول ابن درّاج (١) :

بَعِيدٌ مِنَ الْأَوْطَانِ مُسْتَشْعِرُ الْعَدَى

غَرِيبٌ عَلَى الْأَمْوَاهِ مُتَّهِمُ الصَّحْبِ

يقول : (مستشعر العدى) و (متهم الصحب) إذا هو الذي يتهم أصحابه ، ويستشعر بالعداوة اتجاههم ، وهذا دليل على أن بعض الأمور قد اختلطت على شاعرنا ، ولكن ليس في كل الأوقات .

والسؤال : هل عانى ابن درّاج من غدر الأصدقاء حقاً ؟ وهل استطاع ابن درّاج أن يكتشف أثناء رحيله الدائم من هو صديقه ؟ وما هي الصفات التي يتصف بها الصديق الصادق ؟ وهل كان ابن درّاج محباً للصدقة ومهتماً بإقامة علاقات صداقة حميمة ؟ أم أنها كانت علاقات عابرة تنتهي بمجرد رحيله عن تلك البلاد ؟

هذه التساؤلات تجيب عليها أبياته الشعرية ، والتي تفوح منها رائحة التنديد بالغدر والخيانة من الأصدقاء ، هذا الغدر الذي كان سبباً فاعلاً لإحساسه بالغربة والتفرد .

ولكن عاطفة ابن درّاج الجياشة تعكس مدى حبه وتمسكه بالأصدقاء ، فهذا هو ذا يلقي السلام على أصدقائه ، ويدعو لهم بالحياة الرغدة والعيش الهنيء ، ويدعو - أيضاً - للدهر الذي كان له فيه أصدقاء ، وهذا يعني أنه لم يعد له صديق ، وإنما كان له ذلك الصديق الوفي في الزمن الغابر .

يقول (٢) :

سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمَ آيسٍ (٣)

وَسُقْيَا لَدَّهْرٍ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ

هذا الحب الكبير للأصدقاء حب ينبض به قلب ابن درّاج ، ولكن هيهات هيهات له أن يهنأ بتبادل هذا الحب بين الأصدقاء ، فهذا هي نعمة

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣) آيس : قانط يائس .

الحزن تعاوده مرة أخرى لتعزف أبياتاً يلفها الحزن والجفاء ، فهو غريب ليس له صديق في دار الغربة ، يقول^(١) :

وَلَا عَرَفْتُ بِي خَلَّةٌ دَارُ خُلَّةٍ

عَفَا رَسْمَهَا مِنْهَا جَفَاءُ وَنَسِيَانُ

فخيانات الأصدقاء كثيرة مروعة ، تتمثل في الجفاء والنسيان ، هذا الجفاء الذي حطّم قلب ابن درّاج ، فاستطاع أن يفرق ويميز بين الصديق الحق وغيره ممن يدّعون الصداقة ، فهو بلا شك لا يجهل هيئات أصدقائه ، ويعرفهم حق المعرفة ، ولكن بمساعدة الخطوب والمصائب التي توالى وتدافعت عليه في ديار الغربة ، استطاع أن يعرف معنى الإخاء ومعنى الصداقة ، ومدى عمق هذه الصداقة ، وبالرغم من هذه المعرفة القوية فإنه لم يَسْلَمْ من غدر الأصدقاء وجفائهم ، يقول^(٢) :

قَدْ ضَرَسَتْني حُرُوبُ الْخُطُوبِ

وَأَبْطَأَتْ يَا نُصْرَةَ الْأَوْلِيَاءِ

وَعَرَفْتُ فِي نَكَبَاتِ الزَّمَانِ

بِكُنْهِ الصَّدِيقِ وَمَعْنَى الْإِخَاءِ

فَوَاقَدِمِي مِنْ سَلَامِ الْعِثَارِ^(٣)

وَيَا أَلَمِي مِنْ سِهَامِ الْجَفَاءِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) العثار : بمعنى التعيس .

هذا الأنين الذي يتصعد ويتصعد، ويزداد قوة في صوت ابن درّاج كلما تذكر
غدر أصدقائه ، والذي تمثل هذه المرة في المماثلة وعدم مد يد العون له ، يقول^(١) :

وَيَا خُلَّةَ التَّسْوِيفِ قُومِي فَأَغْدِقِي^(٢)

قَنَاعَكَ مِنْ دُونِي وَشُدِّي إِزَارَكَ

وَحَسْبُكَ بِي يَا خُلَّةَ النَّايِ خَاطِرِي

بِنَفْسِي^(٣) إِلَى الْحِطِّ النَّفِيسِ^(٤) حِطَّارَكَ

ويقول - أيضاً^(٥) :

وَيَا خَلَّتِي إِنْ سَوَّفَ الْعَوْتُ^(٦) بِالْمُنَى

وَيَا غُلَّتِي^(٧) إِنْ أَبْطَأَ الْغَيْثُ بِالسُّقْيَا

فجحود الأصدقاء وغدرهم تكرر ذكره عند بعض الشعراء ، فعبروا عن هذا
النكران بأساليب مختلفة مع اختلاف عمق التجربة ، ودرجة المعاناة .
وتظل حسرة ابن درّاج على انعدام الصديق الوفي تعول وتعلو بأهات حزينة كئيبة ،
وكيف لا ، وهو يجوب الأرض غريباً وحيداً من غير خليل وصديق معترف بصداقته ؟
ونجد الداهية العظمى التي وقع فيها ابن درّاج هي نكران الصديق له .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٨ .

(٢) أغدقي : أي أرسلني .

(٣) نفسي : أي الروح .

(٤) النفيس : أحبه وأكرمه .

(٥) ديوان ابن درّاج ، ص ١٤٩ .

(٦) الغوث : الإعانة والنصرة .

(٧) غلتي : شدة العطش وحرارته .

يقول (١) :

فَإِنْ غَرَبَتْ أَرْضُ الْمَغَارِبِ مَوْئِلِي

وَأُنْكَرَنِي فِيهَا خَلِيطٌ وَخِلَانٌ

هذا النكران وهذا الجحود من قبل الأصدقاء جعل ابن درّاج يصرخ ويصرخ بصوت حزين ، ينبثق من قلب جريح يعاني القسوة والغدر . ولذلك نراه في الأبيات التالية يخاطب من يسأله عن ودّ الأصدقاء ووفائهم ، وكيف أنه لم يجد صديقاً وفاقاً ، فبقي في لجج الأسى متجرعاً منه ألواناً .

يقول (٢) :

وَمُسَائِلٍ عَنِّي الرَّفَاقَ وَوُدَّهُ

لَوْ تَنَبَّذَ السَّادَاتُ رَحْلِي بِالْعَرَا (٣)

وَبَقِيتُ فِي لُجَجِ الْأَسَى مُتَضَلِّلاً

وَعَدَلْتُ عَنْ سُبُلِ الْهُدَى مُتَحَيِّراً

وها هي زفرات ابن درّاج ازدادت في تصعيدها وقوتها كلما تذكر عدم وفاء القرين له ، يقول (٤) :

عَنْ كُلِّ مَعْدُومِ الْقَرِينِ مُكْرَمٍ

وَمُعْظَمٍ فِي الْمَالِكِينَ مُبَجَّلٍ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) تنبذ : أي الشيء القليل ، أو المتحى ، والسادات : أي له ذلك مدى الليل والنهار .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٦ .

هذه هي خطرات نفس ابن درّاج وهو اجسها ، ودمعات مقلته التي تزداد قوة في الانسياب .

فكانت تلك المقطوعات طافحة بالعاطفة والإحساس العميق بالخيانة والغدر .

يقول بعد أن بلغ اليأس مبلغه ؛ لعدم وجود الصديق الحميم من البشر فيرى أن صديقه الوفيّ الزمان^(١) :

غَرَارَةُ عَيْشٍ أَرَاهَا الْغُرُورُ

بِأَنَّ الزَّمَانَ صَدِيقٌ حَمِيمٌ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٧ .

- الغربية عند الأسرة والأقرباء:

« توصف الأسرة أول نظام إنساني قائم على وجه الأرض ، فهي عبارة عن مجتمع صغير متكامل قديم قدم الإنسان ، كما تتكون الأسرة من مجموعة أعضاء يعيشون تحت سقف واحد ، يتحمل مسؤوليتهم الأب ، فيوفر لهم حاجاتهم المادية والوجدانية التي تساعد على استمرار هذا الهيكل الأسري . ولكن قد توجد في حياة الأسرة فترات حرجية تتعرض لها روابط الأسرة بالتفكك والضعف . والعوامل التي تؤدي إلى هذا الضعف قد تكون عوامل اجتماعية أو اقتصادية ، أو سياسية ، فتتهار بها وحدة الأسرة وتتصدع نتيجة لتلك الأجواء المتوترة .

ومعروف أن رب الأسرة هو الذي يقوم بتوفير الغذاء والمأوى ، وغيرها من المطالب المادية المحافظة على استمرار حياة الأسرة واستقرارها . ولكن إذا كان جو الأسرة ، أو الظروف المحيطة بها مشحونة بالتقلبات ، والتغيرات المفاجئة كانت كفيلاً بأن تهدم هذا الكيان الأسري - كما قلنا سابقاً . وهدم هذا الكيان يؤدي بلا شك إلى شقاء أفراد الأسرة ، فيتحمل كل شخص نصيبه من الحزن مهما كان عمر ذلك الفرد صغيراً ، أو كبيراً ، ذكراً أو أنثى. »^(١)

وقد استطاع الشعراء أن يعبروا ويصفوا هذا الكيان ، وما يعتريه من ظروف قاسية ساعدت في تشتيت شمل هذا الكيان وتفرقه . واستطاعوا - أيضاً - أن يعبروا عن أحزانهم وأحزان أسرهم حينما ينتقلون من موطنهم إلى بلد آخر . فالظروف السيئة التي مرت بها البلاد الأندلسية جعلت بعض الشعراء يرحلون مع أسرهم بحثاً عن مكان آمن يستقرون فيه بعيداً عن الغربة والتشرد . فإذا كان شعور الغربة الاجتماعية قد تمثل في غربة الأفراد فهو حريٌّ بأن يتمثل في غربة الأسرة والأقرباء . ولذلك نرى ابن درّاج

(١) الأسرة ومشكلاتها، د. محمود حسن، انظر المقدمة بتصرف .

من خلال شعره يحاول أن يصور هموم أسرته وإحساسهم بالغربة والتشرد في دار الغربة، كما صور همومه حينما يتركهم .

فقد اضطر ابن درّاج إلى مغادرة موطنه وموطن أجداده بلدة (قسطلة) متنقلاً إلى قرطبة ، تاركاً وراءه أبنائه إلى أن هياً له ولهم حياة مستقرة هناك . ولكن الأمر لم يدم طويلاً ، فقد وقعت الفتنة واضطر ابن درّاج الضرب في مناكب الأرض مغترباً طالباً لنفسه ولأولاده مكاناً آمناً يلوذون به . وكان في أحيان كثيرة يرحل عنهم ، وأحياناً أخرى يرحلون معه مع كثرهم ، إذ كان يبلغ عددهم بضعة عشر ذكوراً وإناثاً ، فكان يتحمل مسؤوليتهم جميعاً ، ويولي طلباتهم تحت تلك الظروف القاسية ، ولذلك نراه يقول^(١) :

فَمَا جَهَدُوا فُلْكَأَ كَمَا جَهَدُوا يَدِي

وَلَا أَنْقَضُوا رَحْلاً كَمَا أَنْقَضُوا ظَهْرِي

كَأَنَّ لَهُمْ وَثْراً^(٢) عَلَيَّ وَمَا انْتَحَى

لَهُمْ حَادِثٌ إِلَّا وَفِي نَفْسِهِ وَثْرِي^(٣)

وَلَوْلَاهُمْ لَمْ أَبْدِ صَفْحَةَ مُعْدِمٍ

وَلَمْ أَسْمَعْ الْأَعْدَاءَ دَعْوَةَ مُضْطَرٍّ

وَلَا جُدْتُ لِلدُّنْيَا بِخُلَّةٍ وَاصِلٍ

وَلَوْ بَرَزْتُ لِي فِي غَلَائِلِهَا^(٤) الْخُضْرُ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٦٠ .

(٢) وتر : الثأر .

(٣) وتري : اصابني بمكروه .

(٤) غلائل : مفردة غلالة ثوب يلبس تحت الدثار ، الخضر : هو القطع .

ويقول في كثرة مطالبهم^(١) :

تَمْوَرُ بِضَعْفِ نُجُومِ الثَّرِيَا
لَوْ انْفَرَدَتْ بِأَدِيمِ السَّمَاءِ
ثَمَانٍ كَأَسْرَارِ قَلْبِ الْكَيْبِ
وَرَابِعَةً كَقَدَاحِ السَّرَّاءِ^(٢)
مَطَالِبُهُمْ لِمَطَالِ الضَّمَارِ
وَأَجَالُهُمْ لَأَقْتِضَاءِ الْقَضَاءِ

فابن درّاج في خضم الاهياريات والنكبات كان يحن إلى أسرته ، ويصور قسوة الأيام عليهم ، وتغلغل إحساسهم بالغربة في نفوسهم ، ولذلك يقول الدكتور / أحمد هيكمل عنه : « هذا شعر ابن درّاج من حيث الموضوعات ، وقد رأينا أن الموضوع الغالب في الظاهر هو موضوع المدح ، ولكن خلال قصائد المدح المستبدة بالديوان أغراض كثيرة هامة ، أبرزها - كما تقدم : وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصف الأسفار برّاً وبحراً ، هجراً ، وليلاً ، وتصوير الغربة والقلق والضياء ، وخاصة غربة الأبناء ، وقلق الأهل ، وضياء الأسرة »^(٣) .

ومن هنا برزت « سمة الشعور الأسري ، فنحن بها غلبة العاطفة الأسرية واتضحها بشكل يلفت النظر ، وقد كان ذلك الجانب بارزاً في شعر ابن درّاج ، فقارئ شعره يطالع ألواناً مختلفة من الحديث عن الزوجة والأولاد

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٥ .

(٢) يقول محمود مكّي : « لم نمتد لمعنى واضح لهذا البيت ، وقد يكون قصد بالسراء : نصل صغير قصير مدور ، وهو أدق ما يكون في السهام » ص ٢٨٥ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكمل ، ص ٣٢١ .

والبنات ، في رحيلهم وحاجتهم وضياعهم وثقل مسؤوليتهم ، وشدة الإحساس بمطالبهم»^(١) .

ويقول - أيضاً : « إن من أبرز ملامح شخصية ابن درّاج إحساسه العميق بالأسرة ، وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد »^(٢) .

ولذلك أكثر في ذكر أسرته واصفاً مدى تشردهم حتى « بلغت أكثر من عشرين مرة في ديوانه ، وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر »^(٣) .

ويقول محمود مكي : « إنه أصدق ما يكون عند الحديث عن أبنائه ، والذي يطالع هذا الديوان يرى كيف يستغرق جانباً عظيماً منه ، حديث الشاعر عن أبنائه وتصوير عاطفة الأبوة نحوهم »^(٤) .

وفي موضع آخر يقول : « ومتصفح الديوان سيري كيف لا يكف ابن درّاج عن الحديث عن أبنائه حتى يدركه الموت »^(٥) .

فابن درّاج - كما ذكرنا - كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، ففي الأبيات التالية يشعر ابن درّاج بالغربة في دار الغربة ، فيتذكر موقفاً محزوناً ، وهو وداعه لزوجته التي كانت تبكي عليه بدمع كالجمان ، وقد تأثر الشاعر بذلك الموقف حتى كاد قلبه أن يتمزق إرباً إرباً من الحزن ، فلم تكن الزوجة وحدها ، بل كانت هناك ابنته ذات الثمان من عمرها ، والتي كانت أحشاء فؤادها تخفق بقوة اضطراباً ، وحزناً لفراق والدها .

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٢٦ .

(٢) دراسات أدبية ، د / أحمد هيكل ، ص ٢٥٤ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣١٦ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

ويصور موقف تلك الطفلة الحزينة المنزعجة من رحيل والدها ، وقد
تعلقت يداها بكتف أبيها تشكو له حالهم بعد رحيله ، وما سوف يعانونه من
غربة وألم ، وما سيصيبهم من جفاء الأقارب وقسوتهم ، يقول^(١) :

وَلِلّهِ عَزَمِي يَوْمَ وَدَّعْتُ نَحْوَهُ
نُفُوسًا شَجَانِي بَيْنَهَا وَشَجَاهَا
وَرَبَّةٌ خِذِرٍ كَالْجُمَانِ دُمُوعُهَا
عَزِيزٌ عَلَى قَلْبِي شُطُوطُ نَوَاهَا
وَبِنْتُ ثَمَانٍ مَا يَزَالُ يَرُوعُنِي
عَلَى النَّأْيِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاهَا
وَمَوْقِفَهَا وَالْبَيْنُ قَدْ جَدَّ جَدُّهُ
مُنُوطًا بِحَبْلِي عَاتِقِي^(٢) يَدَاهَا
تَشْكِي جَفَاءَ الْأَقْرَبِينَ إِذَا النَّوَى
تَرَامَتْ بِرَحْلِي فِي الْبِلَادِ فِتَاهَا

ويحاول ابن درّاج أن يجسد غربة أبنائه ، وكما قلنا سابقاً الشاعر لم يصف
إحساسه بالغربة فقط ، بل أبرز - أيضاً - إحساس أسرته بالضيق والتشرد في ديار
الغربة .

والذي يبدو في القصيدة التالية أن عدداً من أبنائه كانوا راحلين معه ، ويبلغ
عدددهم ستة أطفال لا حول لهم ولا قوة صعقتهم رياح الغربة ، فأصبحوا متشردين في
الأرض هائمين مهمومين ، يقول^(٣) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١ .

(٢) العاتق : موضع الرداء من المنكب أو ما بين المنكب والعنق .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٣ .

فِي سِتَّةٍ ضَعُفُوا وَضَعُفَ عَدُّهُمْ^(١)

حَمَلًا لِمَبْهُورِ الْفُؤَادِ مَبْلَدٍ^(٢)

شَدَّ الْجَلَاءُ رِحَالَهُمْ فَتَحَمَّلَتْ

أَفْلاذَ قَلْبٍ بِالْهُمُومِ مَبْدَدٍ

وَحَدَّتْ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ

أَوْطَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّ مُشَرَّدٍ

لَا ذَاتُ خِذْرِهِمْ يُرَامُ لَوْجَهَهَا

كُنَّ وَلَاذُوا مَهْدَهُمْ بِمَهَّـدٍ

عَادُوا بِلَمْعِ الْآلِ^(٣) فِي مَدِّ الضُّحَى

مِنْ بَعْدِ ظِلٍّ فِي الْقُصُورِ مُمَدَّدٍ

وَرَضُوا لِبَاسَ الْجُودِ يَنْهَكُ مِنْهُمْ

بِالْبُؤْسِ أَبْشَارِ النَّعِيمِ الْأَرْغَدِ

وَاسْتَوْطَنُوا فَرَعًا إِلَى بَحْرِ النَّدَى

أَهْوَالَ بَحْرِ ذِي غَوَارِبَ مُزَبَدٍ^(٤)

ويبلغ شدة إحساسهم بالغربة ، حتى إنهم ليشعرون بالأسى والحزن كلما مروا

(١) ضعفوا : من الضعف والإرهاق ، ضَعُفَ : الزيادة في العدد .

(٢) المبهور : أي تتابع النفس من الإعياء ، مبلد : أي لزمه ولصقه ، أو المتلهف غير المتجلد .

(٣) الآل : السراب .

(٤) غوارب : بمعنى التماذي ، مزبد : البحر إذا هاج موجه وزبد الماء هو خلاصه .

بديارٍ خالية من سكانها ، وكلما سمعوا أصوات الحمائم ، وتغريدها مستمتعة بإقامتها في أعشاشها هائلة مستقرة . يقول الدكتور أحمد هيكل : « لا ومن ذلك - أيضاً - قوله في قسوة غربتهم وشدة حنينهم إلى دارهم حتى إنهم ليحزنون كلما تخيلوا داراً لساكنين، ويتألمون كلما رأوا حيواناً ، أو طائراً يستمتع بمربضٍ ، أو عشٍ على حين هم مشردون هائمون »^(١) ، يقول ابن دراج^(٢) :

فِي أَهْلِ دَارٍ كَالْكَوَاكِبِ وَالنَّوَى

بَعْدَ النَّوَى فَلَكَ بِهِمْ دَوَّارٌ

كَأَنْتُمْ جَمَالاً لِلزَّمَانِ فَأَصْبَحُوا

وَهُمْ عَلَيْهِ بِالتَّغْرِبِ عَارٌ

تَنْبُو الدِّيَارُ بِهِمْ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ

غَرَضُ الْمَصَائِبِ مَا بِهَا دِيَارٌ

قَدْ أَقْفَرُوا وَطَنَ الْأُنَيْسِ وَأُونِسَتْ

بِهِمْ مَفَاوِزُ بِالْفَلَا وَقِفَارٌ

يَتَأَوَّهُونَ إِذَا رَمَتْ أَوْهَامُهُمْ

دَارًا لِسَاكِنِيهَا بِهَا اسْتِقْرَارٌ

وَيَهِيجُهُمْ عَيْنٌ لَهُنَّ مَرَابِضٌ

وَيَشُوقُهُمْ طَيْرٌ لَهَا أَوْكَارٌ

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص ٣١٨ .

(٢) ديوان ابن دراج ، ص ١٢٩ .

وهذه قطعة شعرية أخرى مزج فيها ابن درّاج صورة السيف والموت الذي
يتربص بأفلاذ قلبه ، وكأنه قصد بالسيف تلك الفتن التي جعلت منه مغترّباً ، ومن
أسرته مغتربين نازحين عن ديارهم . وكان ذلك الاغتراب بمثابة الموت لهم ، فأطلقوا
عنان الزفرات والآهات ، يقول^(١) :

شَرِيدُ السُّوفِ وفلُّ الحُتُوفِ
يَكِيدُ بِأَفْلاذِ قَلْبٍ مَهُولِ^(٢)
تَهَاوَتْ بِهِمْ مُصْعَقَاتُ الرِّوَاعِ—
سَدِ فِي مُدْجَنَاتِ الصُّحَى والأَصِيلِ^(٣)
بَوَارِقُ ظَلَمَاءِ ظُلُمٍ تُبِيحُ
دُمَى مِنْ حِمَى أَوْ دَمًا مِنْ قَتِيلِ
فَأَذْهَلَ مُرْضِعَةً عَنْ رَضِيعِ
وَأَنَسَى الحَمَائِمَ ذَكَرَ الهَدِيلِ
وَشَطَّ الصَّرِيخُ عَلَى الْعَيْنِ فِيهَا سَيْلًا
سِوَى سَبَلِ الْعَبَرَاتِ الهُمُولِ
وَلَا يَعْرِفُ الْمَوْتَ فِيهَا طَرِيقًا
إِلَى النَّفْسِ إِلَّا بِغَضَبٍ صَقِيلِ

ويبدو في الأبيات التالية أن ابن درّاج قد ترك أبناءه واضطر للرحيل وحيداً ،

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٥ .

(٢) مهول : مخيف ، يكيد : يستدرجهم ، ويُقال : فلان يكيد أمراً ما أدري ما هو إذا كان يريد .

(٣) مدجنات : ظلمة الغيم .

فيشعر بالغربة ، فيتذكر ذلك اليوم الذي أوجب عليه الرحيل ، فقد كان ذلك اليوم بمثابة الصدع الذي مزَّق شمله ، وتتوالى عليه الذكريات فيتذكر موقف وداعه لزوجته ، فقد كان موقفًا حزينًا تنقطع له القلوب وتشجو لشجوه النفوس .

ويقف ابن درّاج واصفًا ذلك الوداع حيث اجتمعت أسرته حوله يودعونه بحرقة وألم ، ثم يفترقون عنه كتشعب أغصان الأشجار التي تهب عليها العواصف . هذه الصورة وما فيها من صدع وشجو وتفرق ودموع تمثل لنا غربة أسرته ، فقد كان فراق ابن درّاج لأسرته كفراق الأرواح من الأجساد ، ولكن الشاعر أراد أن يخفف من تلك الأجواء الحزينة ، أو يحاول أن يطمئن أبناءه بأنه سيأتي لهم بالخير ، وأن عيشهم سيصبح محمودًا . إذاً هذه القطعة - كما قلنا - سابقًا تضح بمعاني الغربة وحنين الشاعر لأسرته، يقول^(١) :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ بَانَ صَدْعُ سَلَامِهِ

بِصَدْعِ النَّوَى أَفْلَاذُ قَلْبِي إِذْ بَانُوا

نُودَعُهُمْ شَجَوًا بِشَجْوٍ كَمَثَلَمَا

أَجَابَتْ حَفِيفَ السَّهْمِ عَوْجَاءُ مِرْنَانُ^(٢)

وَيَصْدَعُ مَا ضَمَّ الْوَدَاعُ تَفَرُّقُ

كَمَا انْشَعَبَتْ تَحْتَ الْعَوَاصِفِ أَغْصَانُ

إِذَا شَرَّقَ الْحَادِي^(٣) بِهِمْ غَرَبَتْ بَنَا

نَوَى يَوْمَانِ وَالْحَيْنُ أَخِيَانُ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) عوجاء : الضامرة من الإبل ، ويقال : ناقة عوجاء إذا عجفت فاعوجَّ ظهرها ، والمرنان : مرن الشيء يمرن

مروناً إذا استمر وهو لين في صلابة .

(٣) الحادي : هو سائق الأبل .

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ
وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ
وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ
فِيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّا
لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا
قَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ
بِأَنِّي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا
وَأَفْجَعُ بِمَنْ آوَى صَفِيحٌ وَجَلَمَدٌ^(١)
وَوَارَتْ رِمَالٌ بِالْفَلَاةِ وَكُتُبَانُ
وُجُوهٌ تَنَاءَتْ فِي الْبِلَادِ قُبُورُهَا
وَأَنَّهُمْ فِي الْقَلْبِ مِنِّي لَسُكَّانُ
وَمَا بَلَيْتُ فِي الثُّرْبِ إِلَّا تَجَدَّدْتُ
عَلَيْهَا مِنَ الْقَلْبِ الْمُفْجَعِ أَحْزَانُ
هُمْ اسْتَخْلَفُوا الْأَحْبَابَ أَمْوَاجَ لُجَّةٍ
هِيَ الْمَوْتُ أَوْ فِي الْمَوْتِ عَنْهُمْ سُلُوانُ

(١) أفجع : من الفجع وهو التوجع والتضور ، جَلَمَد : الصخر أو الصخرة .

بَقَايَا نُفُوسٍ مِّنْ بَقِيَّةِ أَنْفُسٍ
يُمِيتُونَ أَحْزَانِي فَدِينُوا بِمَا دَانُوا
أَقُولُ لَهُمْ صَبْرًا لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ
عَسَى الْعَيْشُ مَحْمُودٌ أَوْ الْمَوْتُ عَجَلَانُ

فإذا كان ابن درّاج يدعو أبناءه إلى التجلد والصبر على فراقه ، نجد الصبر يضعف ويقل عند المتنبّي ، كما يضعف الجسم عند مفارقة أحبابه ، يقول (١) :

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أَبَدًا

وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحْلَا

الفراق كان عظيمًا ، فراق تغادر فيه القلوب الأبدان فتتركها أبدانًا هامدة لا حياة فيها . هذه الفكرة نلاحظها - أيضًا - عند المتنبّي ، ولكن بصورة مختلفة ، فهو لم يجعل القلوب تغادر الأبدان ، بل جعل الأرواح تسيل من العيون في صورة الدموع عند مفارقة الأحباب ، يقول (٢) :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ

تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ وَالسَّمُ أَدْمَعُ (٣)

ويقول: إن أولاده لا تسليهم فرحة قدوم والدهم بالهبات والعطايا.
يقول (٤) :

حَيْثُ اسْتَكَاثَتْ لِلْعَفَاءِ مَنَازِلِي

وَهَوَتْ بِأَفْلَازِ الْفُؤَادِ نَجَائِي (١)

(١) ديوان المتنبّي ، بشرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) الأماق : طرف العين .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٨ .

ذُلًّا تَعَسَّفَنَّ الدُّجَى بِأَذَلَّةٍ

وَلَوَاغِبًا جُبْنَ الْفَلَا بِلَوَاغِبٍ^(٢)

وَكَوَاكِبُ نَاءَتْ بِقَرَبَتِهَا النَّوَى

فَقَضَتْ مَدَامُهَا بِنَوْءِ الْغَارِبِ^(٣)

مِنْ كُلِّ مَفْجُوعٍ بَتَّرَحَةٍ رَاحِلٍ

لَمْ يُسَلِّهِ طَمَعٌ بِفَرَحَةٍ آيِبٍ

فحدة التفجع والشعور بالغربة قد بلغ من الشاعر مبلغه ، فغربة أسرته ورحيلهم وترك المنازل شيء يبعث الذلة والحسرة . إذ يعاتب الشاعر نفسه ، فهنا حوارٌ داخلي يحاسب فيه الشاعر نفسه ويلومها بتشتيتها شمل أسرته الذي نتج عنه الإحساس بالغربة والضياع حتى إنهم أَلْفُوا حياة الترحال والتشرد . يقول الدكتور أشرف دغرور : « فالرحيل الدائم حياتهم ، وقد أَلْفُوا الغربة التي لا نهاية لها إلا مع نهاية حياتهم »^(٤) .

وفي موضع آخر يقول : « فلا يكاد أحدهم يستقر بموضع حتى يرحل عنه مما عمق هذا الإحساس بالغربة »^(٥) ، يقول^(٦) :

وَشَعَبْتُ أَفْلاذَ الْفُؤَادِ وَلَمْ أَكْذُ

فَحَذَوْتُ مِنْ حَذْوِ الثَّرِيَا مَنْظَرًا

(١) نجائب : أفضل أنواع الإبل .

(٢) لواغب : السير حتى التعب والإعياء .

(٣) نوء الغارب : النوء عن الحقيقة سقوط نجم في المغرب ، وطلوع آخر في المشرق .

(٤) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف دغرور ، ص ١١٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٦) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٤ .

سِتُّ تَسْرَاهَا الْجَلَاءُ مُغْرِبًا
وَحَدَا بِهَا حَادِي النَّجَاءِ مُشْمَرًا
لَا يَسْتَفِيقُ الصُّبْحُ مِنْهَا مَا بَدَا
فَلَقَا وَلَا جَدْيُ الْفَرَاقِدِ مَا سَرَى
ظَعْنُ أَلْفَنَ الْقَفَرِ فِي غَوْلِ الدُّجَى
وَتَرَكْنَ مَأْلُوفَ الْمَعَاهِدِ مُقْفِرًا
إِلَى أَنْ قَالَ مُخَاطَبًا أَحَدَ أَبْنَائِهِ :

أَبْنَيَّ لَا تَذْهَبْ بِنَفْسِكَ حَسْرَةً
عَنْ غَوْلِ رَحْلِي مُنْجِدًا أَوْ مُغَوْرًا
وَلَمْ يَكْتَفِ ابْنُ دِرَّاجٍ بَوْضِعَ مَسْئُولِيَةِ تَمْزِيقِ شَمْلِ أَسْرَتِهِ عَلَى عَاتِقِهِ فَقَطْ ، بَلْ
نَرَاهُ يُوْجِهَ أَصَابِعَ الْاِتِّهَامِ إِلَى الدَّهْرِ . فيقول (١) :

وَفَلِذَّةُ قَلْبِي فِي حِمَاهَا رَهِينَةٌ
وَإِنْسَانُ عَيْنِي فِي ذُرَاهَا مُخَيَّمَا
تَقَسَّمَ رَيْبُ الدَّهْرِ وَالنَّأْيِ شَمْلَنَا
وَقَلْبًا غَدَاً لِلْبَيْنِ نَهَبًا مُقْسَمًا
فَمَا نَأْتِسِي إِلَّا أَسَىً وَتَغْزِيَا
وَمَا نَلْتَقِي إِلَّا كَرَىً وَتَوْهُمًا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

لَيْالِي كَالْإِعْدَامِ طَوَّلَهَا الْأَسَى

وَطَاوَلَتْهَا حَوْلًا وَحَوْلًا مُجَرَّمًا

ويخاطب ابن درّاج زوجته ، ويطلب منها أن تترك شؤونها وتقضي ساعة تأمل ،
فتتخيل تلك الليلة التي سيزف صباحها بشرى سارة ، وهذه البشرى انتهاء حياة
الترحال والشعور بالحزن والأسى ، ويطلب منها أن تتحمل لواعج الشوق والحنين ،
وتتحمل حرقة الوداع ، وأن تتجرع غصص النوى ، وإن رحلت معه فعليها أن
تستوطن الفلاة ، وتسير في الليل ، يقول (١) :

كُفِّي شُؤْنَكَ سَاعَةً فَتَأْمَلِي

فِي لَيْلِهَا بُشْرَى الصَّبَاحِ الْمُقْبِلِ

وَتَنْجِزِي وَعْدَ الْمَشَارِقِ وَأَنْظُرِي

وَاسْتَخْبِرِي زُهْرَ الْكَوَاكِبِ وَاسْأَلِي

فَلَعَلَّ غَايَاتِ الدُّجَى أَنْ تَنْتَهِي

وَعَسَى غَايَاتِ الْأَسَى أَنْ تَنْجَلِي

لَا تَخْدَعِي بِدُمُوعِ عَيْنَيْكَ فِي الْوَرَى

قَلْبًا يَعِزُّ عَلَيْهِ أَنْ تَذَلِّي

وَتَجْمَلِي لِشَجَا النَّوَى لَا تُمَكِّنِي

أَيْدِي الصَّبَابَةِ مِنْ عَنَانِ تَجْمَلِي

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ .

إلى أن قال :

وَتَجَرَّعِي غُصَّصَ التَّائِي وَاجْمَعِي

بَيْنَ الْمَطِيِّ وَلَيْلُهُنَّ الْأَيْلِ

وَاسْتَوْطِنِي وَحَشَ الْفَلَاةِ وَوَطَّنِي

نَفْسًا لِبَرْحِ تَوْدُوعٍ وَتَرْحُلِ

وتعلو خفقات قلب الشاعر المهموم ، والذي يصور نفسه طائرًا مدَّ جناحيه في السماء حاملاً معه ثمانية من أبنائه، هذا الحمل كان أثقل من الطود العظيم .

فيقول^(١):

كَأَنَّ خُفُوقَ الْقَلْبِ مَدَّ جَوَانِحِي

بِأَجْنَحَةٍ رِيشتُ مِنَ الرَّوْعِ وَالذُّعْرِ

وَتَحْتَ جَنَاحِي مَقْدِمِي وَتَعَطُّفِي

ثَمَانٍ وَعَالَتْ بِالْبَيْنِ إِلَى الشَّطْرِ

أَخَذْتُ لَهُمْ إِصْرَ الْحَيَاةِ فَأَجَلُّوا

وَقَدْ أَخَذَ الْإِشْفَاقُ مِنِّي لَهُمْ إِصْرِي

فَحَمَلْتُهُمْ وَزْرًا وَلَوْ خَفَّ مِنْهُمْ

جَنَاحِي لَكَانَ الطَّوْدُ أَيْسَرَ مِنْ وَزْرِي

فَلَلَهُ مِنْ أَعْدَادِ أَنْجُمِ يُوسُفَ

تَحْمَلُهَا مِنْهَا أَقْلٌ مِنَ الْعَشْرِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٧ .

إِلَى كُلِّ مَأْوَى لِلْجَلَاءِ هَوَى بِنَا

إِلَى حَيْثُ لَا مَهْوَى عُقَابٍ وَلَا نَسْرِ

وفي وحشة الوحدة والغربة يظماً ابن درّاج لرؤية أولاده الخمسة عشرة ، فهو
طريد بعيد عنهم ، يقول^(١) :

وَبَا طُولَ ظِمِّي لِحَمْسٍ وَعَشْرِ

طَرِيدَ الْحِيَاضِ بَعِيدَ الْإِضَاءِ^(٢)

كَأَنِّي بَعْتُ الثُّقَى بِالنِّفَاقِ

فَلَا هَوْلَاءَ وَلَا هَوْلَاءَ^(٣)

وَكَمْ عُقِرَتْ دُونَ عُقْرِ الْحِيَاضِ

سَوَامِي وَأَزَّتْ أَمَامَ الْإِزَاءِ^(٤)

فَرَحْتُ بِهِمَا مُخْمِصًا فِي الْبِطَانِ

وَأَصْدَرْتُهَا مُظْمًى فِي الرِّوَاءِ

إِلَى أَنْ قَالَ :

بِسَبْعٍ كَسَبَعَ سَمَامِ السَّمُومِ^(٥)

وَأَرْبَعَةٍ كَرُبُّوعِ الْعَفَاءِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢) الإضاءة : الغدير .

(٣) فلا هؤلأ ولا هؤلأ : إشارة إلى أنه كان وسطاً بين الطائفتين .

(٤) الإزاء : مصب الماء في الحوض .

(٥) سبع: عدد بناته أربعة ، وسمام: ضرب من الطير نحو السمانى، والسموم: هي الرياح.

يُفَدُّونَ نَفْسِي مِنَ الْحَادِثَاتِ
وَمَالِي وَلَا لَهُمْ مِنْ فِدَاءٍ
وَكَمْ ضَرَبُوا بِقِدَاحِ الْخُنُوءِ
عَلَيَّ فَفَازُوا بِقِسْمٍ سَوَاءٍ
وَقَدْ أَسْلَمَتْهُمْ سَمَائِي وَأَرْضِي
فَلَا مِنْ ثَرَايَ وَلَا مِنْ ثَرَائِي
فِيَا ضَيْقَ ذُرْعِي لَهُمْ بِالزَّفِيرِ
عَلَى ضَيْقِ ذُرْعِي بِضَيْقِ الشِّتَاءِ
وَقَدْ آذَنْتَهُمْ يَدِي وَاضْطَّلَاعِي
بِعُذْمِ الْوَقَاءِ لَهُمْ وَالصَّلَاءِ^(١)

ويصور ابن درّاج إحساسه بالغربة وإحساس أبنائه ، وغدر أقاربه بهم بعد
رحيله، يقول^(٢) :

وَكَمْ زَفَرَةٌ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ
أَرَتْ بِنَارِ السَّرِّ فِي عِلْمِ الْجَهْرِ
وَنَادَتْ عُيُونَ الشَّامِتِينَ إِلَى الْقَرَى
بِأَفْلَازٍ أَكْبَادٍ كَصَالِيَةِ الْجُزْرِ
وَمَاذَا جَلَا وَجْهُ الْجَلَاءِ مُحَاسِنًا
تَهَابُ الْعُيُونُ مَا تَشْرُنَ مِنَ الدُّرِّ

(١) الصلّاء : طلب الدفء .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

وَمَاذَا تَلْظَى الْحَرُّ فِي حُرٍّ أَوْجُهُ
تَنْسَمُ فِيهِ بَرْدٌ ظِلٌّ عَلَى نَهْرٍ
وَمَاذَا أَجَنُّ اللَّيْلُ فِي مُوحَشِ الْفَلَا
أَوْ آنَسَ بِالْأَثْرَابِ فِي يَانَعِ الزَّهْرِ
وَمَاذَا تَرَامَى الْمَوْجُ فِي غَوْلٍ لُجَّةٍ
بِلاهِيَةِ بَيْنِ الْأَرَائِكِ وَالْخِذْرِ
فَإِنْ نَبَتِ الْأَوْطَانُ مِنْ بَعْدُ عَنْهُمْ
فَلَا مَحْجَرِي حَجَرٌ عَلَيْهِمْ وَلَا حِجْرِي
وَإِنْ ضَاقَ رَحْبُ الْأَرْضِ عَنْ مُتَوَاهِمُ
فَرَحْبٌ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إِلَى نَحْرِي^(١)
وَإِنْ تَقَسَّ أَكْبَادُ كِرَامٍ عَلَيْهِمْ
فَوَا كَبِدِي مِمَّنْ تَذُوبُ لَهُ صَخْرِي^(٢)

ويتكرر الحديث عن غربة الأبناء ، وغربة الأقارب ، ولكن هذه المرة أبرز ذلك من خلال ثقافته القرآنية ، فيصف غدر أقاربه كجهل إخوان يوسف **U** الذي رأى في المنام مجموعة من النجوم ، فأخبر والده وخشي عليه من جهل إخوانه ، وتغرب في الأرض ، وكانت عاقبة تغربه فضلاً من الله - تعالى - إذ أصبح نبياً فتقمص ابن دراج شخصية يوسف **U** ، وتابع ابن دراج وصف سجنه ، وما شعر به من تغرب ، وجلاء هذا الشعور الذي شعر به ابن دراج وأبناءؤه الذين يجوبون الصحاري ، والبحار وعانوا الكثير من المتاعب والصعاب . هذه الرجفة الحزينة قد بلغت ذروة التصعيد ،

(١) سَحْرٌ : الرئة ، نحري : هو النحر ، وهذا البيت تضمنين حديث عائشة - رضي الله عنها : « مات رسول الله

U بين سحري ونحري » .

(٢) صخر : الحجر العظيم الصلب .

فهم لم تواجههم بعض الخطوب والمصائب ، بل حاصرتهم كل الخطوب فلم ينفع فيها الحزم ولا الذكاء هذه الخطوب ظهرت وتراءت لهم كظهور النجوم في الظهر ، وأشرقت فيها الشمس في غير وقتها ، حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت ، وبكت عليهم السماء ، هذا الإحساس أخذ يتراكم ويتراكم في نفوس هؤلاء الأبناء ، فماذا كانت النتيجة ؟

الشعور بالغربة والتفرد والهوان على الناس ، يقول ابن دراج^(١) :

أَخُو ظَمًا يَمُصُّ حَشَاءَ سَبْعٍ
وَأَرْبَعَةٌ وَكُلُّهُمْ ظَمَاءُ
كَأَنْجُمٍ يُوسُفَ عَدَدًا وَلَكِنْ
بِرُؤْيَا هَذِهِ بَرِحَ الْخَفَاءُ
خُطُوبٌ خَاطَبَتْهُمْ مِنْ دَوَاهُ
يَمُوتُ الْحَزْمُ فِيهَا وَالِدَهَاءُ
تَرَاءَتْ بِالْكَوَاكِبِ وَهِيَ ظَهْرُ
وَأَذَنَ فِيهِ بِالشَّمْسِ الْعِشَاءُ
فَهَلْ نَظَرِي تَخَفِّي أَوْ بِصَدْرِي
وَضَاقَ الْبَحْرُ عَنْهَا وَالْفَضَاءُ
وَكُلُّهُمْ كَيُوسُفَ إِذْ فَدَاهُ

(١) ديوان ابن دراج ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ .

مِنَ الْقَتْلِ التَّعَرُّبُ وَالْجَلَاءُ
وَإِنْ سَجَنُ حَوَاهُ فَكَمْ حَوَاهُمُ
سُجُونُ الْفُلْكِ وَالْقَفْرِ الْقَوَاءُ^(١)
وَأَيَّةُ أَسْوَةٍ فِي الْحُسْنِ مِنْهُ
لِإِحْسَانِي إِذَا ارْتُخِصَ الشَّرَاءُ
وَفِي بَاكِيه مِنْ بُعْدٍ وَصَدْرِي
وَأَجْفَانِي بِمَنْ أَبْكِي مِلَاءُ
وَأَوْحَشُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَوْمًا
كُسُوفٌ فِي سَنَاها وَامِّحَاءُ
وَأَفْلَاذُ الْفُؤَادِ أَمْضُ قَرْحًا
إِذَا رَمَتِ الْعُيُونُ بِمَا تُسَاءُ
فَمَا كَسُرُورِهِمْ فِي الدَّهْرِ حُزْنُ
وَلَا كَشْفَائِهِمْ فِي الصَّدْرِ دَاءُ
نَقَائِدُ فِتْنَةٍ وَخُلُوفُ ذُلٍّ
أَلَذُّ مِنَ الْبَقَاءِ بِهِ الْفَنَاءُ
فَإِنْ أَقْوَتْ مَعَانِي الْعِزِّ مِنْهُمْ

(١) القواء : بمعنى قفر لا أحد فيها .

فَكَمْ عَمِرَتْ بِهِمْ يَدٌ خَلَاءُ
وَإِنْ ضَاقَتْ بِهِمْ أَرْضٌ فَأَرْضُ
فَمَا بَكَتْ لِمِثْلِهِمُ السَّمَاءُ
وَإِنْ نَسِيَ الرَّدَى مِنْهُمْ ذِمَاءُ
فَأَعْذَرَ زَاهِقٌ عَنْهُ الذِّمَاءُ
فَكَمْ تَرَكَوا مَعَاهِدَ مُوحِشَاتِ
عَفَتْ حَتَّى عَفَا فِيهَا الْعَفَاءُ
فَأَظْلَمَ بَعْدَهَا الْإِصْبَاحُ فِيهَا
وَكَمْ دَهْرٍ أَضَاءَ بِهَا الْمَسَاءُ
وَجَدَّ بِهَا الْبَلَى فَحَكَتْ وَجُوهَهَا
نَأَتْ عَنْهَا فَجَدَّ بِهَا الْبَلَاءُ
وَهَوْنٌ هَوَانُهَا فِي كُلِّ عَيْنٍ
جَدِيرٌ أَنْ يَعِزَّ لَهُ الْعِزَاءُ
بَسْطَنَ لِكُلِّ مَقْبُوضٍ يَدَاهُ
فَمَا فِيهِنَّ غَيْرُ الدَّمْعِ مَاءُ
شُمُوسٌ غَالَهَا ذُعْرٌ وَبَيْنُ
فَهُنَّ لِكُلِّ ضَاحِيَةٍ هَبَاءُ
وَكَمْ لَبَسُوا مِنَ النَّعْمَى بُرُودًا

جَلَاهَا عَنْ جُسُومِهِمُ الْجَلَاءُ

مَلَابِسُ بَأْمَةٍ لَمْ يَيْقَ مِنْهَا^(١)

لَهُمْ إِلَّا ابْنُ يَحْيَى وَالْحَيَاءُ

ويتذكر ابن درّاج الحوار الذي دار بينه وبين زوجته التي منعتها من الرحيل ، فطلب منها أن تدعه يرحل لعل بعد الذلّ عزّ وكرم ، فكما أن هناك عزيزاً في بلده ، ذليلاً في سفره ، فإنّ هناك ذليلاً يعزّ في سفره ، فقد يجد في غربته من يقدره حق قدره ، ويعرف منزلته وفضله وينزله منزلته التي يستحقها ، ثم أخذ ابن درّاج يصور لنا لحظة الوداع الحارقة التي أُطلِقَتْ فيها الآهات والأنات ، فالشاعر لم يترك زوجته فقط ، بل ترك معها طفلاً صغيراً مازال في المهد ، فأخذت الزوجة تذكره بذلك الرضيع ، يقول ابن درّاج^(٢) :

دَعِيَ عَزَمَاتِ الْمُسْتَضَامِ تَسِيرُ

فَتُنْجَدُ فِي عُرْضِ الْفَلَا وَتَعُورُ

لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكَ مِنْ لَوْعَةِ النَّوَى

يُعَزُّ ذَلِيلٌ أَوْ يُفَكُّ أَسِيرُ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الشَّوَاءَ هُوَ الشَّوَى

وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

وَلَمْ تَزْجُرِي طَيْرَ السُّرَى بِحُرُوفِهَا

(١) يامة : النعمة . والعرب تقول للشيخ إذا كان باقي القوة فلان يامة ، معناه : راجع إلى الخير

والنعمة لأن بقاء قوته من أعظم النعمة .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ .

فَتَنْبُكُ إِنِّ يَمِّنَ فَهِيَ سُرُورُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ
لِتَقْيِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
دَعِينِي أَرْدُ مَاءِ الْمَفَاوِزِ آجِنًا
إِلَى حَيْثُ مَاءُ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ
وَأَخْتَلِسُ الْأَيَّامَ خَلْسَةً فَاتِكَ
إِلَى حَيْثُ لِي مِنْ غَدْرِهِنَّ خَفِيرُ
فَإِنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمِّنَ
لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا
بِصَدْرِي مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
تَنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى
وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَيِّي بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ وَلَفْظُهُ
بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ الثُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهِّدَتِ
لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
فَكُلُّ مُفْدَاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعُ
وَكُلُّ مُحَيَّاةِ الْمَحَاسِنِ ظِيرُ
عَصِيَتْ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي

رَوَاحٌ لِتَدَابِ السَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الشَّوْقِ بِي وَهَفَتْ بِهَا
جَوَانِحُ مَنْ ذُعِرَ الْفِرَاقُ تَطِيرُ
لَنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غُيُورًا فَإِنِّي
عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغُيُورُ

فحرمان ابن درّاج من الاجتماع الأسري جعله يحن لأسرته ، ويتذكر وداعه
لزوجته وأبنائه . فلا يقرُّ له قرار ولا يجد الراحة وهو بعيد عنهم ، وإنما كان الشعور
بالغربة وحرقة الفراق أمراً ملازماً له ولذلك يقول أن من عاش ذليلاً فإنه يعيش حياة
ذليلة مهضوم الحق ، فالموت في العزّ أخف وطأة من العيش في الذل ، يقول (١) :

وَأَسْبَلَ لِي مِنْ فَوْقَ سِتَّةٍ (٢)

أَهِيمُ بِهِمْ فِي الْأَرْضِ مِثْلَ الْقَطَا الزُّعْبِ

ويبرز ابن درّاج مدى تغلغل الغربة في نفوسهم ، والمتاعب التي مروا بها أثناء
رحيلهم ، يقول (٣) :

وَكَمْ وَجَّهُوا وَجْهًا لِبَارِقَةِ الظُّبَى

وَكَمْ وَطَّئُوا نَحْرًا لِنَافِذَةِ النَّحْرِ

وَكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ الْمَنَايَا كَمَا هَوَتْ

فَرَأَسُ أَسَدِ الْغَابِ لِلنَّابِ وَالظُّفْرِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ، ص ٨٣ .

(٢) ستة : يقصد أبناءه كانوا يبلغون هذا العدد .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٨ .

وَكَمْ بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ رَاعٍ وَحَافِظٍ
وُجُوهَ الْمَنَايَا السُّودِ وَالْحَدَقِ الْحُمْرِ
وَمِنْ رَفَرَفِ الْأَسْتَارِ دُونَ حِجَالِهَا
تَرَفَّرُ لَمَعَ الْآلِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ
وَمِنْ سَاجِعِ الْأَطْيَارِ فَوْقَ غُصُونِهَا
مُرَاسِلَةَ الْأَلْحَانِ فِي نَعَمِ الْوَثْرِ
تُنَادِي عَزِيفَ الْجَنِّ فِي ظُلَمِ الدُّجَى
وَهَوْلَ النِّطَامِ الْمَوْجِ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ
وَكَمْ زَفْرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ
أَنَارَتْ بِنَارِ السَّرِّ فِي عِلْمِ الْجَهْرِ

وكم ؟ وكم ؟ سؤالاً كرره القسطلبي يجسد فيه سيطرة الغربة على أبنائه الذين أقدموا بين المنايا التي هوت بهم ، فجعلتهم فرائس لأسد الغاب ، حيث استمعوا إلى عزيف الجن في الليل الحالك ، مما أثار فيهم الرعب والهلح . واستمعوا - أيضاً - إلى ارتطام أمواج البحر بقوة هائلة ، مما جعلهم يطلقون الزفرة تلو الأخرى . ويلتمس ابن درّاج الغدر من أبنائه في هذه الأبيات .

يقول (١) :

قَلِيلٌ غِنَاهُمْ عَنْ يَدِي وَغِنَاؤُهُمْ
سِوَى أَنَّهُمْ مِنْ ضَيْمٍ كَسَنِي لَهُمْ عُذْرِي

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

وَأَنِّي لَهُمْ فِي مَاءٍ وَجْهِي تَاجِرٌ
أُغْنِمُهُمْ غُنْمِي وَأَرْبِحُهُمْ خُسْرِي
وَأُسَلِّمُ فِي وَخْزِ السَّفَى ثَمَرَ الْمُنَى ^(١)
وَأَبْدُلُ فِي قَذْفِ الْحَصَى جَوْهَرَ الشُّكْرِ
وَإِنْ نَفَقْتُ عِنْدِي بِضَاعَةٌ قَانِعٍ
تَقَنَّنَعْتُ مِنْهَا فِي خَزَايَةِ مُعْتَرٍ ^(٢)
رَجَاءً لِضْمَرٍ طَالَمَا قَدْ عَهْدَتْهُ
يُرِينِي أَنَاةَ السَّهْلِ فِي الْمَسْلَكِ الْوَعْرِ
وَخَزِيًّا لَوَجْهِ هَانَ فِي صَوْنِ أَوْجِهِ
كَرِيمٍ بِهِمْ رِبْحِي لَيْمٍ بِهِمْ تَجْرِي
بَعْدَةَ أَبْرَاجِ السَّمَاءِ وَمَا سَرَى
مَدَاهَا إِلَى صُبْحٍ يُضِيءُ وَلَا فَجْرٍ
وَكَيفَ وَمَا فِيهَا مُعَرَّجُ مَنْزِلٍ
لِشَّمْسٍ تُجَلِّي لَيْلَ هَمٍّ وَلَا بَدْرٍ
وَلَكِنْ قُلُوبٌ قَسَمَتْ وَجَوَانِحُ
مَنَازِلَ مَقْدُورٍ لَهَا نُوبَ الدَّهْرِ
وَأَنْجُمُ أَنْوَاءٍ تُنَوِّءُ بِهَا النَّوَى

(١) السَّفَى : هو شوك السنابل .

(٢) خزاية المعتز : الخزاية هي الاستحياء ، والمعتز : هو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل .

وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دُمُوعِي مِنْ قَطْرِ
وَلَا مَطْلَعُ إِلَّا مَهَادِي أَوْ حَجْرِي
وَلَا مَغْرَبٌ إِلَّا ضُلُوعِي أَوْ صَدْرِي
إِذَا ازْدَحَمُوا فِي ضَنْكِ شَرِبِي تَمَثَّلُوا
بِأَسْبَاطِ مُوسَى حَوْلَ مُنْفَجَرِ الصَّخْرِ
وَلَوْ بِعَصَا مُوسَى أَفْجَرُ شُرَبَهُمْ
وَلَكِنْ بِذَلِكَ الْفَقْرُ فِي عِزَّةِ الْوَفْرِ

ابن درّاج أراد صون وجوه أبنائه بعد أن شعروا بالذل والهوان ، فرحل بهم لِيُهَيَّأَ لهم حياة كريمة بعيدة عن الفقر والحاجة مع كثرتهم ، فقد كان عددهم كبيراً بعدة أبراج السماء ، يسير بهم ودموعهم تفيض من الحزن والألم ، فكانوا إذا ازدحموا حول ماء يشربون منه كانوا مثل أسباط موسى **U** حينما ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فالشاعر متأثر بالقصص القرآني .

المعاناة كانت شديدة الإحساس بغربة أبنائه ، كان إحساساً عميقاً ، ولهذا نراه في الأبيات التالية يتحدث فيها ابن درّاج عن تشرّد أبنائه قائلاً^(١) :

وَلَا كَنْبِي سَبِيلٍ شَرَدَتْهُمْ
عَنِ الْأَوْطَانِ قَاضِيَةَ الْقَضَاءِ
عَوَاصِفُ فِتْنَةٍ غَمَّتْ بِغَيْمِ
بَوَارِقُهُ سَيُوفُ الْاِعْتِدَاءِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ .

فَأَصْنَعُ لَهُمْ بَرَاءَةَ الْمَنَآيَا

وَأَمْطِرُهُمْ شَآئِبَ الْفَنَاءِ^(١)

وَطَافَ عَلَيْهِمْ طُوفَانٌ رَّوْعٌ

أَفَاضَ بِهِمْ إِلَى الْقَفْرِ الْفَضَاءِ

سِيَّهَامٌ نَّوَى إِلَى بَرٍّ وَبَحْرٍ

وَأَغْرَضَ لِنُشَابِ الْبَلَاءِ^(٢)

سَرَوْا فَشَرَوْا بِأَفْيَاءِ ضَوَافٍ

فِيَا فِي لَا يَقِينَ مِنَ الضَّحَاءِ^(٣)

وَحُمِرَ الْمَوْتُ مِنْ خُضْرِ الْمَغَانِي

وَسُودَ الْيَدِ مِنْ بَيْضِ الْمَلَاءِ

وَمِنْ كُلِّ السُّتُورِ كِلَالٌ خُوصٍ

وَعَدَنَهُمُ النَّجَاةُ عَلَى النَّجَاءِ^(٤)

وَقَدْ جَدَعَتْ أُنُوفَ الْعِزِّ مِنْهُمْ

خُطُوبٌ سُمِّنَهُمْ أَنْفَ الْإِبَاءِ

وَأَلْبَسَهُمْ ثِيَابَ الذُّلِّ خُطْبٌ

(١) شَائِب : هو البرد وسجام المطر .

(٢) نشاب : هو النبل أو علق ووقع فيه ، ولا مخلص له منه .

(٣) الضحاء : أعلى ارتفاع للشمس .

(٤) النجاء : ما ارتفع من الأرض ، فلم يعله السيل فظننته نجاءك .

يَلِيهِمْ فِي ثِيَابِ الْكِبْرِيَاءِ
فَوْشَكًا مَا هَوَى بِهِمْ هَوَاءٌ
تَأَلَّفَهُمْ بِأَفْئِدَةٍ هَوَاءِ
وَحَالَ الْمَوْجُ دُونَ بَنِي سَبِيلِ
يَطِيرُ بِهِمْ إِلَى الْعَوْلِ ابْنُ مَاءِ
أَغْرَلَهُ جَنَاحٌ مِنْ صَبَاحِ
يُرْفِرُ فَوْقَهُ جُنْحٌ مِنْ مَسَاءِ
يُذَكِّرُهُمْ زَفِيفُ الرِّيحِ فِيهِ^(١)
تُثَاوِحُهَا بِرِيعِهِمْ الْخِلَاءُ
وَمَخَوُ الْمَاءِ مَا يَخْتَلِطُ فِيهِ
دِيَارًا خَلَّفُوهَا لِلْعَفَاءِ^(٢)
وَصَكَ الْمَوْجُ فِيهَا كُلَّ وَجْهِ
وُجُوهُهَا سَاوَرَتْهُمْ بِالْجَفَاءِ
وَعَدَمُهُمْ صَفَاءَ الْمَاءِ مِنْهُ
بُعْدَمُهُمْ لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ
بِحَيْثُ تَبَدَّلُوا بِاللَّهُوِ هَوَلًا

(١) الزفيف : صوت هبوب الريح .

(٢) العفاء : ذهاب الأثر أو التراب .

وَرَحِبَ الْمَاءِ مِنْ رَجَبِ الْفَنَاءِ
وَمِنْ قَصْفٍ وَرَاحٍ قَصْفَ رِيحٍ
وَمِنْ لَعِبِ الْهَوَى لَعِبَ الْهَوَاءِ
كَأَنَّ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ اسْتَطَارَا
تَجَارًا هَمُّهُمْ بُعْدُ الشَّاءِ^(١)
يَبِيعُونَ الرِّغَائِبَ يَبِيعَ بَخْسٍ
وَيَشْرُونَ الْمَصَائِبَ بِالْغَلَاءِ
وَلَكِنَّ الْبَضَائِعَ مِنْ هُمُومٍ
عَلَّتْ بِالرَّبْحِ فِيهِمْ وَالتَّمَاءِ
فَكَمْ طَلَبُوا الْأَمَانِي بِالْأَمَانِي
وَكَمْ بَاعُوا السَّعَادَةَ بِالشَّقَاءِ
وَكَمْ فَاضَتْ مَدَامِعُهُمْ فَمَدَّتْ
عُبابَ الْبَحْرِ بِالْمَاءِ الرُّوَاءِ
وَقَدْ وَقَدَتْ جَوَانِحُهُمْ بِشَجْوٍ
يُنَادِي الشَّمْسَ : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ^(٢)
وَكَمْ خَاضُوا كَهَمَّهُمْ بِحُورًا

(١) الشاء : هو الحبل ، ولعله يعني بذلك - كما قال محمود مكي - بعد الشاء وطول الأجل وامتداده .

(٢) الصلاة : طلب الدفء .

وَكَمْ عَدِمُوا الثَّرَى عَدَمَ الثَّرَاءِ^(١)
وَجَاءَ الْمَوْتُ مُقْتَضِيًا نُفُوسًا
لَوَتْ بِقَضَائِهِنَّ يَدُ الْقَضَاءِ
وَمَا رَدَّ الرَّدَى عَنْهَا حَنَائًا
وَلَكِنْ مَطْلَ دَاءٍ بِالْإِدْوَاءِ
فَلَأَيَّامَا أَهْلَ بِهِمْ بِشِيرٍ
إِلَى أَرْضٍ تَخِيَّلُ فِي سَمَاءِ
وَلَأَيَّامَا تَجَافَى الْيَمَّ عَنْهُمْ
تُجَافِيهِ عَنْ الزَّبَدِ الْجُفَاءِ
وَيَا عَجَبَ اللَّيَالِي أَيُّ بَحْرِ
تَغْلَغُلَ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْغُثَاءِ
وَمَنْ يَسْمَعُ بِأَنَّ نُجُومَ لَيْلٍ
هَوَتْ مَعَ بَدْرِهَا فَهُمْ أَوْلَاءِ

فقد قادتهم الفتنة إلى التشرّد عن الأوطان فرمتهم في طريق الغربة والأهوال .
وأمطرت عليهم مطر سوء وهلاك ، فحاصرهم طوفان الروع والهلع في كل حدبٍ
وصوب ، فشعروا بالذل والغربة ، فقد بدلوا حياة اللهو بالهول ، ورحب الماء برحب
الفناء ، وباعوا الرغائب بثمن بخس ، وابتاعوا المصائب والأهوال بأغلى ثمن ، وقد
كانت بضاعتهم عبارة عن هموم تزداد نماء وكثرة ، فتزداد دموعهم وتفيض حتى تمد

(١) الثرى : التراب ، الثراء : الغنى .

عباب البحر ، فتعلو أشجانهم . هكذا فقد شعر ابن درّاج بغربة أبنائه ، فعبر عن هذا الإحساس بعاطفة أبوية قوية .

ويقول - أيضاً - في وداعه لزوجته^(١) :

تَصَدَّتْ لَوْشِكِ الْبَيْنِ مِنْ جَفْوَةِ الصَّدِّ
وَحَلَّتْ قِنَاعَ الصَّبْرِ عَنْ زَفْرَةِ الْوَجْدِ
وَأَلَقَتْ إِلَى حُكْمِ الْأَسَى عِزَّةَ الْأَسَا^(٢)
فَتَمَّ بِمَا تُخْفِي تَبَارِيحُ مَا تُبْدِي
وَأَسْفَرَ رَيْبُ عَنْ صَادِقِ الرِّضَا
وَلَا حَ هَلَالُ الْوَصْلِ مِنْ مَغْرِبِ الصَّدِّ
فَوْشَكَانَ مَا لَفَتْ قَضِيًّا بِقَاضِبِ
وَأَدْنَتْ نَجَادَ السَّيْفِ مِنْ مَسْلَكِ الْعَقْدِ
فَجَرَّعَتْ مِنْ بَرْدِ الْحِيَارِ
وَزَوَّدَتْ مُرَّ الصَّبَابِ مِنْ دَائِبِ الشَّهْدِ
وَهَبَّ غَلِيلُ فِي غَلِيلِ اللَّمَى
وَسَالَ جُمَانُ الْخَدِّ فِي يَانِعِ الْوَرْدِ
وَقَالَتْ وَتَوَدِّعُ التَّفَرُّقِ قَدْ هَفَا^(٣)
بِصَدْرِ إِلَى صَدْرٍ وَخَدٍّ إِلَى خَدٍّ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٢) الأسا : الحزن .

(٣) هفا : خف وأسرع واشتد .

عَسَى قُرْبُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ فَأَلْنَا

لِمَجْنِي ثَمَارِ الْقُرْبِ مِنْ شَجَرِ الْبُعْدِ^(١)

« وهكذا فقد سخرت الأيام سخرية رقيقة بابن درّاج ، فقد بدأ مذهبه الشعري بالالتكاء على تصوير فراقه لزوجته وأطفاله وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال ، أو الأبناء حديثاً مستمداً من الواقع لا من الخيال ، وأضرته النكبة من أجلهم في الواقع لا في الخيال - أيضاً - كان غير راضٍ بالنعمة دون رضي ، فأصبح يرضى بالرزق من أي كف جاءه ، وتلك حال من الانهيار النفسي »^(٢) .

وهكذا نجد ارتباط التجربة الشعرية عند ابن درّاج بالناحية النفسية ، والناحية السياسية، والمكانية، والاجتماعية المتمثلة في غربة الناس ، والأصدقاء ، وتصوير غربة الأهل وغدر الأقرباء ، فقد خلع ابن درّاج كل تلك النواحي وجسدها في شعره الذي صور لنا ذلك الصراع بكل نواحيه التي ذكرناها سابقاً ، فعبّر عن تلك الهموم بأجل تعبير وأصدقه ، ولا سيما عند حديثه عن أبنائه ، هذا الحديث الذي تفرد به ابن درّاج عن غيره من شعراء عصره ، والذي أصبح سمة بارزة في شعره .

(١) هكذا وردت في الديوان ، والجنى : هو كل ما يجمع ، والمجنّ : هو خلط الجد بالهزل .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، للدكتور إحسان عباس ، ص ٢٣٢ .

الفصل الثاني

ألوان الغربة والاغتراب في شعر ابن درّاج

- دراسة فنية -

-
-
- | | |
|----------|------------------|
| أولاً - | البناء الفني . |
| ثانياً - | المعجم الشعري . |
| ثالثاً - | الصورة الشعرية . |
| رابعاً - | الموسيقى . |

أولاً - البناء الفني لشعر الاغتراب

نظراً لأن الاغتراب عند ابن درّاج مرتبط بقصيدة المديح لزم علينا الوقوف على قصائد المديح التي تناولت هذا الجانب لنرى كيف كان بناؤها في هذا العصر .

هل اتخذت قالباً جديداً أم أنها حافظت على الاتجاه القديم ؟ كما صرّح بذلك الدكتور / جودت الركابي ، حينما قال : « فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم ، وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر ، أو للمرأة التي أحبها ، وقلمّا شدّ بعضهم عن هذا السبيل وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشاركة »^(١) .

إذا بناؤها يتلخص في المقدمة وحسن التخلص .

فالأسلوب القديم هو الابتداء بالوقوف على الأطلال وذكر ديار الأحبة ، كما يقول ابن قتيبة : « إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكأ وتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام.....، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر

(١) في الأدب الأندلسي ، للدكتور/ جودت الركابي ، ص ١١٥ .

عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمُلّ السامعين ، ولم يقطع ، وبالنفوس ظمَاء إلى المزيد»^(١) .

ولم يكن ابن قتيبة وحده من اهتم وتحدث عن المقدمات ، وإنما اهتم بها نقاد آخرون من أمثال ابن رشيق ، في كتابه (العمدة) ، وابن الأثير في (المثل السائر) ، والقرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء) ، حيث يقول : « فأكثر ما تبدأ القصائد الأصلية بما يرجع من ذلك إلى الحب ، كالوقوف على الربوع ، والنظر إلى البروق ، ومقاساة طول الليل »^(٢) .

ولذلك حرص هؤلاء النقاد على ضرورة تحسين المقدمة أو حسن الابتداء ، وهو كما عرفه علماء البلاغة : « إذا انتقى المتكلم لابتداء كلامه الألفاظ العذبة الخالية من الثقل والتنافر ، وتخير النظم الأجود البعيد عن التعقيد ، وأتى بالمعنى الصحيح المطابق لمقتضى الحال وصف ابتداءه عندئذ بالحسن »^(٣) .

ولذلك بنى الشعراء قصائد على الطريقة التقليدية للقصيدة الجاهلية بالوقوف على الأطلال والديار ، « كانت أولى الأطلال التي تغنى بها شعراء الجاهلية . ومن ثم فإن لها مكانتها كما أن لها أهميتها في الاحتفاظ بطابع النظام الاجتماعي والخصائص الأخلاقية والاهتمامات الإنسانية التي كانت تشغل المجتمع القبلي »^(٤) . وبما أن الشعراء الأندلسيين كانوا متأثرين بالشعراء العباسيين ، ساروا حذوهم وتمثلوا بهم يقول

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٦ .

(٢) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني ، ص ٣٠٤ .

(٣) علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، بسيوني فيود ، ص ٢٥٦ .

(٤) الأطلال في الشعر العربي ، دراسة جمالية ، أ . محمد عبد الواحد حجازي ، ص ١٩٧ .

القرطاجني : « وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم شاعراً آخر لمدة طويلة ، وتعلم قوانين النظم ، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية ، فقد كان كثير أخذ عن جميل وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين المشهورين »^(١) . فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشرق بكل ما فيه ونحن لا نغلو إذا قلنا إن الأدب الأندلسي مدين في نهضته للتراث العربي العام »^(٢) . إلا أن أولئك الشعراء الذين دعوا إلى ترك ذلك النمط التقليدي تأرجحوا بين بناء قصائدهم على البناء القديم والبناء المستحدث ، ولهذا نرى ابن درّاج ينساق بشدة وراء هذا التيار ، فيتخذ شعر أبي نواس والمتنبي أنموذجاً يحذو حذوه ، فنراه تارة يبدأ بمقدمة طللية مفعمة بالحنين والشوق ، وتارة يبدأ بمقدمة تتحدث عن شكوى الدهر ، ووصف مواقف الوداع ، وذكر رموز الطبيعة على طريقة المشاركة المحددين . إذاً « كانت الفكرة الأساسية عند من يريد أن يكتب شعراً أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشاركة من القدماء العباسيين ، ومعنى ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يحاول أن يخضع الشعر العربي لشخصيته ، بل رأيناه هو يخضع له »^(٣) .

ولهذا نرى أن نستعرض بعض مقدمات ابن درّاج التقليدية والمستحدثة . فمن مقدمات الغزلية التي مزج فيها بين الغزل بمحبوبته وبين عناصر الطبيعة يقول^(٤) :

أُورُكِ أَمْ أَوْقَدَتْ بِاللَّيْلِ نَارَكَ

لِبَاغِ قِرَاكِ أَوْ لِبَاغِ جَوَارِكِ

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجني ، ص ٢٧ .

(٢) الفن ومذاهبه ، د . شوقي ضيف ، ص ٤١٢ .

(٣) الفن ومذاهبه ، ص ٤١٧ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٤ .

وَرَيَّاكَ أَمْ عَرَفُ الْمَجَامِرِ أَشْعَلَتْ

بُعُودِ الْكِبَاءِ وَالْأُلُوءَةِ نَارَكَ^(١)

وَمَبْسِمُكَ الْوَضَّاحُ أَمْ ضَوْءُ بَارِقٍ ؟

حَدَاهُ دُعَائِي أَنْ يَجُودَ دِيَارَكَ

وَخَلْخَالُكَ اسْتَضِيَّتْ أَمْ قَمَرٌ بَدَا

وَشَمْسٌ تَبَدَّتْ أَمْ أَلَحَّتْ سِوَارُكَ

وَطُرَّةٌ صُبْحٌ أَمْ جَبِينُكَ سَافِرًا

أَعَرْتَ الصَّبَّاحَ نَوْرَهُ أَمْ أَعَارَكَ

فامتزاج الطبيعة بالغزل عند ابن درّاج يتجلى فيه إبراز محاسن محبوبته ، وأدوات الزينة ، فيتساءل ابن درّاج عن نور محبوبته أهو نور وجهها ، أو أنها أوقدت النار بالليل ، ليستدل بها الضيف ، وهذه الرائحة الطيبة هل هي منبعثة منك أم أن رائحة العود والألوة الذي أوقدته فأفحت رائحته في كل مكان ؟ وهذه الابتسامة الواضحة التي تظهر بها أسنانها البراقة ، وهذا البريق والبياض الذي يظهر أهو من بريق ابتسامتها ؟ أم هو ضوء البرق الذي يبرق في ديارك ليسقيها ويجود عليها ؟

وهذا الخلخال الذي ترتدينه في ساقك حينما ظهر بياضه هل هو بياض ساقك أم القمر هو الذي ظهر ؟ أم الشمس هي التي تبدت ؟!

وهذا البياض الذي يشع من جنبك هل هو بياضك أم أنه بياض وإشراق الصباح ، فأعار هذا الصباح من ذلك النور ، وذلك الإشراق ؟ أم أنك أنت من أعرت منه ؟!

(١) الكباء : ضرب من العود يتبخر به ، وكذلك الألوة .

ابن درّاج يرى جمال محبوبته في جمال الطبيعة أو بالأصح يرى جمال الطبيعة في جمال محبوبته ، فالنّار هي التي تستمد نورها من نور محبوبته والعود والبخور ، وكل الروائح الطيبة مبعث تلك الرائحة محبوبته ، وكذلك كلاً من البرق والقمر والشمس والصباح يستمد نوره وبريقه وبياضه وإشراقه من محبوبته .
وقوله - أيضاً^(١) :

غَرَامٌ وَلَا شَكْوَى وَعَتَبٌ وَلَا عُتْبَى
وَشَوْقٌ وَلَا لُقْيَا وَصَبْرٌ وَلَا عُقْبَى
وَكَمْ حَنَّ مَعْشُوقٌ وَأَعْتَبَ عَاشِقٌ
وَقَلْبُكَ مَا قَسَى وَقَلْبِي مَا أَصْبَى
سَأَصْدَعُ أَحْنَاءَ الضُّلُوعِ بَرْفَرَةً
تُطِيرُ إِلَيْكَ الْقَلْبَ لَوْ أَنَّ لِي قَلْبًا
وَأَسْبِلُ آمَاقَ الْجُفُونِ بَعْبَرَةً
وَإِنْ حُرِمْتَ مِنْكَ الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى
وقول - أيضاً^(٢) :

شَوْقٌ شَدِيدٌ وَوَصْلٌ مِنْ حَبِيبَيْنِ
فَلَيْتَ شِعْرِي مَا خَطَبُ الْعَذُولَيْنِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

ومن مقدماته الطللية قوله عند مغادرة وطنه^(١) :

أَهْلٌ بِالْبَيْنِ فَأَنْهَلْتُ مَدَامِعُهُ
وَأَنَسَ النَّفَرَ فَاسْتَكَّتْ مَسَامِعُهُ
وَوَدَّعَ الْمَنْزِلَ الْأَعْلَى فَأَوْدَعَهُ
فِي الْقَلْبِ لَا عِجَ بَثٌّ لَا يُوَادِعُهُ
يَا مَعْهَدًا لَمْ يُضَعْ عَهْدُ الْوَفَاءِ لَهُ
مُكَسَّفُ الثُّورِ عَافِي الْقَدْرِ ضَائِعُهُ

يصور ابن درّاج في الأبيات السابقة الغرام الملهب والشوق الشديد والصبر على هجر الأحباب الذين انصرفوا عنه وهجروه ، فلم يبادلوه الغرام ، ولا الشوق ، ولم يحنوا إلى لُقياه ، كما حنَّ هو ؛ ولهذا برح به الحب وأطلق الزفرات التي كانت بمثابة الريح العاصف ، فعصفت تلك الزفرات بانحناء الضلوع ، فأسبل الدموع لأنه محروم من المودّة في قريتهم منه . أما الأبيات التالية يصور فيها ابن درّاج - أيضاً - الشوق المتأجج ، ولكن هذه المرة هناك لقاء ووصل بين حبيبين .

والسؤال : ما الذي دعا ابن درّاج إلى أن يوظف عنصر الغزل في شعره ، بالرغم من الضغوط النفسية التي يمر بها ؟ هل هو محاولة منه لجذب ممدوحه فيذكره بالعادات العربية ليجزل له العطاء ؟

وليس ثمة شك أن ابن درّاج في حاجة ملحة لينفس عن نفسه بسبب الظروف القلقة والمتوترة التي يمر بها ، ولذلك لجأ إلى المقدمة الغزلية ، وإن كان تقليدًا ، ولكنه لم يكن تقليدًا جامدًا لا حياة فيه ، وإنما هو تقليد أبدع الشاعر فيه ، فعبر عن إحساسه وانفعالاته التي تلونت بألوان الأسى والحزن ، ومن هنا تبرز سمة الذاتية في مقدمات ابن درّاج ، وليس الأمر مقتصرًا فقط في المقدمة الغزلية والحديث عن الذات وإظهار لوااعج الشوق والحنين والصد والهجر من المحبوبة فيه جذب للنفوس ، وخاصة الممدوح مما يحمله على إجابة رغائبه وتحقيق أحلامه .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٣ .

أما الأبيات التي وصفت الطلل ، فإن ابن درّاج لم يصف تلك الديار ببيان
اندثارها ، بل وصف فيها الشاعر ما يثيره الطلل (الوطن) في نفسه عند مغادرته
وتوديعه ، كما يصف ما يثيره الفراق من شجن وألم ، يقول (١) :

وَلَا ثَنَى عِبْرَاتِي عَنْ تَذْكَرَةِ

دَهْرٍ تُقَارِعُ فِي صَدْرِي قَوَارِعُهُ

حَسْبِي ضُلُوعٌ ثَوَتْ فِيهَا مَصَائِبُهُ

وَمُقْلَةٌ رَبَعَتْ فِيهَا مَرَابِعُهُ

ومن مقدماته التي يث فيها الشكوى ، قوله في رثاء شبابه (٢) :

فِيَا لِلشَّبَابِ الْغَضُّ أَنْهَجَ بُرْدُهُ

وَيَا لِرِيَاضِ اللَّهْوِ جَفَّ سَفَاهَا

وَمَا هِيَ إِلَّا الشَّمْسُ حَلَتْ بِمَفْرِقِي

فَأَغَشَى عُيُونَ الْغَانِيَاتِ سَنَاها

وَعَيْنُ الصَّبَا عَارَ الْمَشِيبِ سَوَادُهَا

فَعَنْ أَيِّ عَيْنٍ بَعْدَ تِلْكَ أَرَاهَا

سَلَامٌ عَلَى شَرْخِ الشَّبَابِ مُرَدَّدٌ

وَأَهَّا لَوْصَلِ الْغَانِيَاتِ وَآهَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

وقول - أيضاً - شاكياً ظلم الخطوب له ^(١) :

كَمْ أَسْتَطِيلُ تَضَلُّلِي وَتَلَدُّدِي
وَأَرْوَحُ فِي ظَلَمِ الْخُطُوبِ وَأَغْتَدِي
وَالْأَرْضُ مُشْرِقَةٌ بِنُورِي رَبِّهَا
وَالْفَجْرُ مُنْبَلِّجٌ لِعَيْنِ الْمُهْتَدِي

وقوله - أيضاً ^(٢) :

وَلِلْفَجَائِعِ أَقْدَارٌ وَأَفْجَعُهَا
لِلنَّفْسِ حَيْثُ تَرَى أَظْفَارَهَا تَقَعُ
كَأَنَّ لِلْمَوْتِ فِينَا ثَأْرَ مُحْتَكِمٍ
فَمَا بَغَيْرِ الْكَرِيمِ الْحُرِّ يَقْتَسِعُ

وبيث الشكوى - أيضاً - قائلاً ^(٣) :

أَصْخِ نَحْوِي لِدَعْوَةِ مُسْتَقِيلٍ
يُنَادِي مِنْ غِيَابَاتِ الْحُمُولِ
رَهِينَةَ كُلِّ هَمٍّ مُسْتَكِنٍ
وَنَهْزَةَ كُلِّ خَطْبٍ مُسْتَطِيلٍ

أما مقدماته التي يصف فيها مواقف الوداع ، منها قوله ^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٥ .

تَصَدَّتْ لَوْشَكَ الْبَيْنِ مِنْ جَفْوَةِ الصَّدِّ
وَحَلَّتْ قِنَاعَ الصَّبْرِ عَنْ زَفَرَةِ الْوَجْدِ
وَأَلَقَتْ إِلَى حُكْمِ الْأَسَى عِزَّةَ الْأَسَا^(١)
فَتَمَّ بِمَا تُخْفِي تَبَارِيحُ مَا تُبْدِي
وَأَسْفَرَ رَيْبُ السُّخْطِ عَنْ صَادِقِ الرِّضَا
وَلَا حَ هَلَالُ الْوَصْلِ مِنْ مَغْرِبِ الصَّدِّ
فَوَشَكَانَ مَا لَفَتْ قَضِيًّا بِقَاضٍ
وَأَدْنَتْ نَجَادَ السَّيْفِ مِنْ مَسَلِّكَ الْعِقْدِ
وَهَبَّ غَلِيلُ الشَّجْوِ فِي غُلْلِ اللَّامِ
وَسَالَ جُمَانُ الْخَدِّ فِي يَانِعِ الْوَرْدِ
فَجَرَعَتْ حَرَّ الشَّوْقِ مِنْ بَرْدِ الْحَيَا
وَزَوَّدَتْ مُرَّ الصَّابِ مِنْ ذَائِبِ الشَّهْدِ
وَقَالَتْ وَتَوَدِّعُ التَّفَرُّقِ قَدْ هَفَا
بِصَدْرِ إِلَى صَدْرِ وَخَدِّ إِلَى خَدِّ
وقوله - أيضاً^(٢) :

دَعِي عَزَمَاتِ الْمُسْتَضَامِ تَسِيرُ
فَتُنْجِدُ فِي غُرْضِ الْفَلَا وَتُعَوِّرُ

(١) الأسا : جمع أسوة ، أو إسوة ، وهي سلوة الحزين .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكَ مِنْ لَوْعَةِ النَّوَى

يُعِزُّ ذَلِيلٌ أَوْ يُفَكُّ أَسِيرٌ

ومن مقدماته - أيضاً - التفجع والحزن على الذات ، يقول^(١) :

بَلَّغْتَ عَبْدَكَ الْخُطُوبُ مَدَاهَا

يَوْمَ تَبْلِيغِكَ النَّفُوسَ مَنَاهَا

وَتَنَاهَى جَهْدُ الْحَيَاةِ بِمَنْ لَمْ

يَسْعَ فِيمَا رَضِيتَ إِلَّا تَنَاهَى

ومن مقدمات ابن درّاج - أيضاً - أنه جعل عناصر الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية « وهذه الصور أو الرموز الطبيعية لها تأثيرها على الشعور والخيال ، والإحساس والفكر حسب اللحظة الوجودية النفسية التي يكون عليها الشاعر ، فتترك انطباعاتها في تصوره وخياله ، إذ أنه يتذوقها تذوقاً جمالياً ، أو يستمتع بها استمتاعاً جمالياً ، وبهذا الاستمتاع تنشأ ألوان من التآلف الوجداني بين الشاعر وتلك الرموز »^(٢) ، فمن تلك المقدمات قوله^(٣) :

قُلْ لِلرَّيِّعِ اسْحَبْ مُلَاءَ سَحَائِبِ

فَاجْرُرْ ذُيُولَكَ فِي مَجَرِّ ذَوَائِبِي

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٥٩ .

(٢) الأطلال في الشعر العربي ، دراسة جمالية وفلسفية ، لمحمد عبد الواحد حجازي ، ص ٢٣٥ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٨ .

وقوله - أيضاً^(١) :

الشَّمْسُ شَاهِدَةٌ وَإِنْ تَكُ وَاحِدَةٌ
فَشَهَادَةُ الْإِفْرَارِ أَغْدَلُ شَاهِدَةٌ
عَرَفْتُكَ فَاعْتَرَفْتُ بِأَنَّكَ وَاحِدٌ
فِينَا كَمَا هِيَ فِي الْكَوَاكِبِ وَاحِدَةٌ
فَعَدَوْتَمَا صِنُونَيْنِ إِنْ يُعْهَدُهُمَا
نَأْيُ الدِّيَارِ فَمَا الصِّفَاتُ مُبَاعِدَةٌ

وقوله - أيضاً^(٢) :

كَذَا يَنْتَهِي الْبَدْرُ الْمُنِيرُ إِلَى الشَّمْسِ
وَتَمْتَزِجُ النَّفْسُ الْكَرِيمَةُ بِالنَّفْسِ

وقوله^(٣) :

إِنَّ رَوْضًا لَمْ تَسْقِهِ مُنْذُ عَامٍ
لَمْخُوفٌ عَلَيْهِ حَرُّ الْأَوَامِ

وقوله - أيضاً^(٤) :

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ
شَجِيتَ لِشَجْوِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

فَكُونِي شَفِيعِي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ

وَكُونِي رَسُولِي إِلَى ابْنِ الرَّسُولِ

هكذا بنى ابن درّاج قصائده فتنوّعت مقدماته الشعرية التي تمثلت في الوقوف على الأطلال ، وذكر الديار ، ووصف مواقف الوداع ، وبث الشكوى ، وإبراز مدى التفجع والحزن على الذات ، ومشاركة رموز الطبيعة له ، كما تمثلت - أيضاً - في المقدمات الغزلية ، وليس هناك ثمة شك أن ابن درّاج حينما وقف على تلك المقدمات كان متأثراً بالظروف السيئة التي تضح بها البلدان الأندلسية آنذاك ، ولذلك نراه حينما يبدأ قصيدته بالمقدمة الغزلية أو الطللية يريد أن يبعث النشوة والذكريات الجميلة التي تكاد أن تضحل وتندثر ، مقارنةً بالخطوب الضخمة التي واجهها ، ومن هنا كان ذكره لمواقف الوداع وإبراز التفجع ، وبث الشكوى أمراً ملائماً للظروف النفسية التي يمر بها ، والجمع بين الحالتين (الفرح والألم) من أحسن الأشياء كما قال القرطاجني : « وأحسن الأشياء التي تعرف ويُتأثر لها أو يتأثر لها إذا عرفت الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها ، أو التألم منها ، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم ، كالذكريات للعهود الحميدة المتصرّمة ، التي توجد النفوس تلتذ بتخيلها وذكرها ، وتتألم من تقضييها وانصرامها »^(١) .

« والإنسان هو الذي يشهد ويألف ويتقلب بين الفرح الذي يبشر بالرغد والسلام ، وبين الشظف الذي يقلق ويخيف »^(٢) . ولهذا نلمح في تلك المقدمات تأرجح ابن درّاج في طريقة تعبيره عن قلقه ومدى إحساسه بالغربة والاعتراب .

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن القرطاجني ، ص ٢١ .

(٢) الأطلال في الشعر العربي - دراسة جمالية وفلسفية ، محمد حجازي ، ص ٢٣٥ .

حسن التخلص :

« حرص الشعراء الأندلسيون على تحسين انتقالاتهم وتخلصاتهم من مقدمات مدائحهم إلى موضوع المديح الذي يقصدون إليه ليكون بين المقدمة والمديح ، ممازجة والتثام وانسجام ، وقد استجابوا في ذلك إلى آراء النقاد والبلاغيين »^(١) الذين عرفوا حسن التخلص بقولهم : « الانتقال مما ابتدئ به الكلام من تشبيب أو ذكر للديار ، أو وصف للخمر ، ونحو إلى الغرض المقصود منه الكلام مع رعاية الملاءمة بين ما ابتدئ به وما انتقل إليه لأنَّ المخاطب مترقبًا ومنتظرًا لهذا الانتقال »^(٢) .

ولذلك أشار القرطاجني إلى ضرورة التخلص الحسن ، يقول : « ويجب أن يكون التخلص لطيفًا ، والخروج إلى المدح بديعًا »^(٣) ، وعلل لذلك بقوله : « إن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن الكلام إلى فن مباين له من غير جامع بينهما ، وملائم بين طرفيهما ، وجدت الأنفس في طباعها نفورًا من ذلك »^(٤) ، ولا يخلو التخلص من أن يكون في شطر بيت أو في بيت بجملة ، أو في بيتين ، وكلما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ ، وقد يستحسن التخلص الواقع في البيت بأسره ، ويقع من النفوس أحسن موقع »^(٥) . « وسلك شعراء الأندلس مسالك عدة للتخلص الرقيق ، والانتقال الهادئ في قصائد المديح باستخدام أدوات للربط »^(٦) .

وبما أن موضوع الاغتراب والغربة يظهر في قصيدة المديح ، نريد أن نلاحظ كيف كان ابن درّاج يتخلص من ذلك الموضوع إلى الغرض الرئيس له . والملاحظ أنه استخدم أدوات الربط كالواو والفاء ، كما ركز على استخدام أسلوب التمني ، كما استخدم أسلوباً تميز به .

(١) قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، لأشرف نجا ، ص ١٧٣ .

(٢) علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، بسيوني فيود ، ص ٢٥٩ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن القرطاجني ، ص ٣٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٦) قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د / أشرف نجا ، ص ١٧٤ .

« وربما يستهل الشاعر الأندلسي مدحته بمقدمة يعترض في وسطها مدح قصير
لممدوحه ، ثم يعود بعد ذلك إلى مقدمته حتى يخلص منها إلى المدح ثانية ، وتبدو هذه
الظاهرة في بعض مدائح ابن درّاج خاصة »^(١) .

ومن تخلصات ابن درّاج ، قوله^(٢) :

وَمِنْ كُلِّ مَرَأَى مُحَيًّا جَمِيلٍ
تَلْقَى الْخُطُوبَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ
لَعَلَّ عَوَاقِبُهُ أَنْ تَتِمَّ
فِيْهْدَى الْغَرِيبُ سَوَاءَ السَّبِيلِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ إِلَى الطَّالِبِيِّ
إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْعَطُوفِ الْوَصُولِ

إلى أن قال :

إِلَى الْمُسْتَضَافِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ
مِنْ الْمُسْتَضَفِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلِ

فإذا كان حديث ابن درّاج عن تمني تحقيق آماله وهدايته إلى سواء السبيل لأنه
غريب ذليل ؛ ليتخلص إلى مدح ممدوحه ، فيذكره بنسبه الهاشمي وقرابته للنبي وإسماعيل
وإبراهيم - عليهم السلام ، فهو عطوف يصل الأرحام، ليعود مرة أخرى مؤكّداً أن
ممدوحه ملك كريم عزيز ، وهو ضيف غريب ذليل ، إذاً هو يستحق العطف وتحقيق
آماله لذله ومهانته .

(١) قصيدة المديح في الأندلس ، ص ١٧٧ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ - ٦٧ .

والملاحظ أن هذا التخلص مناسب للمقدمة التي بدأ بها الشاعر ، إذ يصف نفسه
بالغريب الذليل الحزين الذي تحزن الشمس لحزنه ، حيث يقول (١) :

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ

شَجَوْتُ لِشَجْوِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلِ

ومن تخلصات ابن درّاج - أيضاً - قوله (٢) :

حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ مَشْمَطًا ذَوَائِبُهُ

يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًا أَكَارِعُهُ

كَأَنَّ جَمْعَ ضَلَالٍ حَانَ مَصْرَعُهُ

وَأَنْتَ بِالسَّيْفِ يَا مَنْصُورُ صَارِعُهُ

إلى أن قال :

وَإِنْ يَرُغْ نَازِحَ الْأَوْطَانِ عَنْكَ فَقَدْ

رَاعَ الْعِدَى مِنْهُ يَوْمَ أَنْتَ رَائِعُهُ

ومنها - أيضاً - قوله (٣) :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ مِنَ الصَّبَابَةِ حَقَّهَا

فَقَضْتُ مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ مَآرِبِي

فَنَعْتَهَا الصَّبْرَ الْجَمِيلَ فَأَسْفَرَتْ

فِي آلِ (يَحْيَى) عَنْ جَمِيلِ عَوَاقِبِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

ثم يعود ابن درّاج ليتحدث عن غربته ، فيقول :

فَهَلْ يَا أَنتَ يَا زَمَنَ الرَّيِّعِ مُبْلَغٌ

بِالْمَغْرِبَيْنِ أَحْيَيِّ وَأَقْرَبِي

وبعد تسعة عشر بيتاً يعود إلى المديح ، فيقول :

وَنَظَّمْتُ يَا مَنْصُورُ ذِكْرَكَ وَسَطَهَا

نَظَّمَ الْعُقُودَ عَلَى تَرَائِبِ كَاعِبِ

فابن درّاج - كما رأينا - يتخلص من موضوع الغربة ليتحدث عن صفات ممدوحه، ثم ما يلبث أن يتخلص من ذلك الموضوع ليعود بنا إلى الحديث عن غربته ، وهذا دليل على ملازمة هذا الإحساس للشاعر، ودليل على حذقه ، كما يقول ابن الأثير: « ويعد النقاد التخلص الحسن في الشعر خاصة دليلاً على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه نظراً لاتباع الشعر نظام الوزن والقافية، مما يضيق على الشاعر مجال الكلام، فلا تواتيه الألفاظ بحسب إرادته ، ويشق عليه الانتقال من معنى إلى معنى »^(١).

وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد الشعر عليه في فكره نثراً ، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه »^(٢).

ويقول ابن رشيق : « وأولى الشعر بأن يُسمّى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول ، وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه »^(٣).

(١) المثل السائر لابن الأثير ، المجلد ٢ ، ص ١٢١ .

(٢) عيار الشعر ، لابن طباطبا ، ص ٧ .

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لأبي علي ، الحسن بن رشيق ، ص ٣٧٦ ، م ١ .

الخاتمة :

« وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكمًا لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون آخره قفلاً عليه »^(١) .

وكما اهتم النقاد بالمقدمة والتخلص اهتموا - أيضاً - بالخاتمة ، فأكدوا على ضرورة حسن الانتهاء ، ولهذا عرّفه البلاغيون بقولهم : « حسن الانتهاء يتم بمراعاة ما روعي في حسن الابتداء من تخير الألفاظ والنظم الجيد وصحة المعنى ومطابقته لمقتضى الحال »^(٢) .

والغالب في خواتيم القصائد أن تكون مدحاً أو دعاءً ، ومع تنامي إحساس ابن درّاج بالاغتراب في قصائده نرى أن نقف على خواتيم تلك القصائد لنرى أدعية ابن درّاج لمن كان يمدحه ، وماذا كان يدعو لهم ؟ وهل كانت تلك الأدعية متصلة بإحساسه بالغربة ، فيدعو لمدوحه بالاستقرار وراحة البال ؟

والحق أن أغلب قصائد ابن درّاج يختمها بالدعاء للمدوح بأن يحميه الله من غدر الزمان وتقلب الدهر عليه كما حلّ به هو ، فيدعو له بالاستقرار في الدار . ومن ذلك قوله^(٣) :

وَأَجَارَ قَدْرَكَ أَنْ يَسُوْغَ لِقَائِلِ

(جَارَ الزَّمَانُ) وَأَنْتَ مِنْهُ جَارُ

وَلَحَقُ مَنْ أَبْقَى ثَنَاءَكَ فِي الْوَرَى

أَنْ تَسْتَقِرَّ بِهِ لَدَيْكَ الدَّارُ

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق ، م ١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، لبيسيوني فيود ، ص ٢٧٤ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٠ .

وهُنَا يَخْتِمُ قَصِيدَةَ أُخْرَى يَمْدَحُ مَمْدُوحَهُ عَلَى أَنَّهُ آوَاهُ وَحَمَاهُ مِنَ التَّشَرُّدِ ،
يقول (١) :

وَكَفَى بِمَنْ آوَى إِلَيْكَ مُشَرِّدًا
قَلِقَ الرِّكَائِبِ فِي الْبِلَادِ مُغْرَبًا
حَتَّى يَرَى الْبُؤْسَ غَرَابًا أَغْصَمًا
بِنْدَاكَ وَالضَّرَاءَ عَنَقًا مُغْرَبًا

ويقول - أيضًا - أن ممدوحه ببره وعطفه قرب البعيد واستبشر الزوار بجمع
الشم (٢) :

وَبِرُّكَ لِلْأَضْيَافِ قَرَبٌ بُعْدَهَا
وَبِشْرُكَ بِالزَّوَارِ أَلْفَ شَمْلَهَا

ويقول (٣) :

فَأَصْبَحَ حَمْدِي فِيكَ مُلْتَحِمَ السَّدى
كَمَا رَاحَ شَمْلِي فِيكَ مُلْتَمِّمَ الْجَمْعِ

ويدعو - أيضًا - لممدوحه بالسقاية والرعاية ، يقول (٤) :

فَتَمَلُّوْا يَا آلَ (يَحْيَى) غَمْرَكُمْ
فِي مُلْكِ (يَحْيَى) بِالْمُنَى مَعْمُورَا

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

وَسَقَيْتُمْ وَرَعَيْتُمْ بِحَيَاتِهِ
وَوَفَيْتُمْ مَنْ فَقَدَهُ الْمُحْذَرَا

ويقول (١) :

لَا زَالَ دِينَ اللَّهِ يُؤْوِي ظَلَّكُمْ
مَا ظَلَلَتْ خُضْرُ الْعُصُونِ حَمَامَهَا

ويقول (٢) :

وَلَا مَاتَ مَنْ وَلَاكَ مِنْ غُرْبَةِ النَّوَى
وَلَا عَاشَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ عَشْرَةِ السَّيِّسِ

ويقول - أيضاً (٣) :

فَأَوَّاكُمْ ذُو الْعَرْشِ فِي ظِلِّ أَمْنِهِ
وَلَا حَلَ عَقْدَ النَّصْرِ مِنْهُ عَلَيْكُمْ
جَزَاءً لِمَا أَوْلَيْتُمَا وَكَفَيْتُمَا
وَأَوَيْتُمَا مِنْ غُرْبَةٍ وَكَنَفْتُمَا

ولا يعني أن ابن درّاج اقتصر في خواتمه على الدعاء والمدح فقط ، وإنما هناك قصائد انتهت بالثناء والشكر للمدوح جزاءً لأفضاله وكرمه ، والافتخار بقصائده الشعرية النفيسة التي يلقبها على ممدوحه ، والدعاء له بالنصر على الأعداء .

وإنما آثرنا ذكر تلك الخواتيم التي اقتصر فيها الشاعر بالدعاء للمدوح بأن يعيش حياة هادئة مستقرة ، بعيدة عن حياة الاغتراب والانتقال ، وأن يجد

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

المأوى الظليل لما له صلة بموضوعنا (الاغتراب) ولنؤكد - أيضاً - تعمق هذا الإحساس في نفس ابن درّاج الذي ذاق التشرد والهوان .

وهكذا يمكن للمتأمل في مقدمات ابن درّاج وتخلصاته وخواتيمه أن يلحظ تنامي الشعور بالغربة والاغتراب عند ابن درّاج الذي ما ينفك يتحدث عن هذا الموضوع نتيجة إحساسه بالخوف والضياع .

ومن هنا ثمة موضوع لا بد أن نتطرق للحديث عنه وهو الوحدة الفنية أو العضوية أو البناء الفني لشعر (الاغتراب) لنرى مدى تشابك تلك الأجزاء وتلاحمها ؛ لتشكيل لنا تلك الوحدة أو ذلك البناء .

الوحدة الفنية :

إن موضوع الوحدة الفنية في قصيدة الاغتراب يعتمد اعتماداً كبيراً على مجموعة من الأفكار التي يستدعيها الشاعر لتشكيل لنا تلك الوحدة . وكما قلنا سابقاً : إن موضوع الاغتراب يتماهى ويتنامى في قصيدة المديح ، ونجد من خلال استنطاق بعض الدوال التي استخدمها الشاعر وحدة نفسية تربط بين تلك الأجزاء « فتتضافر لتشكيل (كليته) و(وحدته) فيكون النص وفق هذا التصور له فكرة رئيسة يدور حولها أفكار أساسية تتكامل لتشكيل تلك الفكرة»^(١) ، فابن درّاج يعيش حالة نفسية متمثلة في القلق والتوتر والخوف من الضياع، وكان ذلك نتاج اغترابه وتغربه ، ولهذا نجد الشاعر يحاول إبراز ذلك الإحساس أو تلك الحالة النفسية في جميع أجزاء قصيدته ، وبذلك يتمثل لنا موضوع الوحدة الفنية والتي لا تتحقق « ما لم تنتظم القصيدة وحدة نفسية أو إحساس واحد ينساب في أطرافها كما تنساب العصارة الخضراء التي تغذي

(١) من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي ، د . سعيد يقطين ، ص ١٦٠ .

الشجرة جذراً وساقاً أغصاناً وأوراقاً»^(١) . ولهذا نرى صاحب عيار الشعر يعبر عن موضوع الوحدة الفنية قائلاً : « فَإِنَّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه - على تصرفه في فنونه - صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ومن الإباء والاعتياص إلى الإجابة والتسمح بالطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلًا به وممتزجًا معه »^(٢) .

إذا « لا بد أن يبدأ الشاعر بموقف عاطفي أو نفسي ليحقق تلك الوحدة ، فيظل ذلك الموقف شائعاً في لوحته غالباً على كل أجزائها إن لم يقصد قصداً إلى رسم لحظات نفسية مختلفة متداخلة ومتعاقبة »^(٣) ، وعلى هذا فإننا نلمس توفر هذه الوحدة الفنية في بعض قصائد ابن درّاج والتي تناولت موضوع الاغتراب والغربة ، فهذه الحالة النفسية تتردد في شعر ابن درّاج بالتصريح بها من خلال حديثه عن القلق والضيق والغربة والغدر به ، وتارة أخرى من خلال استخدامه للتضاد والذي أسهب الشاعر في استخدامه، ولهذا اعتبر التضاد لغة خاصة بالمغتربين يعبرون بها عن مدى إحساسهم بالغربة والقلق والتوتر . وبهذا نستطيع أن « نتخذ من التوتر عند الشاعر أساساً دينامياً لوحدة القصيدة ، فهو يسهم بنصيب كبير في تحديد الهدف والطريق إليه ، ونهاية القصيدة تكون على الدوام ذات صلة واضحة ببدايتها ، وبذلك يتم للشاعر تحقيق فصل متكامل في صميمه ينتهي في موضع شبيه بموضع بدئه ، وإن لم يكن هو بالضبط ، لأنه عود إلى هذا الموضع بعد رحلة أكسبت

(١) دراسات في الشعر والمسرح ، د . مصطفى بدوي ، ص ٧ ، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٩ م .

(٢) عيار الشعر ، لأبي الحسن ، محمد بن طباطبا ، تحقيق : د . عبد العزيز المانع ، ص ٩ .

(٣) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، د . عبد القادر القط ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٧٨ م ، ص ٦٢ .

الشاعر خبرات جديدة»^(١) . إلا أن دراسة الشعر في هذه الحالة يُشترط فيه أن تكون هذه التجربة نفسية أو أن يكون هناك « خيط نفسي دقيق يستعيره الشاعر من تجربته في مجرى عيشته »^(٢) .

وبهذا فابن درّاج يتحدث عن تجربة نفسية خاضها وهي إحساسه بالاغتراب والغربة نتيجة انتقاله ورحيله . وبما أن الشاعر الذي نحن بصدده الحديث عن تجربته تلك يحاكي الشعر العباسي ، والذي تقلب - كما قلنا سابقاً - بين الحديث والقديم ، فإننا نرى تقسيم تلك القصائد إلى لوحات وأجزاء لنرى ونلمس مدى الترابط والتفاعل بين تلك الأجزاء والتي تبدأ بالحديث عن حالة نفسية يعيشها الشاعر لتنتهي بنا - أيضاً - بتلك الحالة .

طغيان الاغتراب مع الرغبة الملحة في الاستقرار - بين الأمل واليأس .

هَلْ تَنْهِنُ غُرُوبَ دَمْعِ سَاكِبٍ
مَنْ شَامَ بَارِقَةَ الْعَمَامِ الصَّائِبِ
أَبَتِ الْعَزِيمَةَ مِنْ فُؤَادِ جَامِدٍ
أَنْ تَسْتَفِيدَ لِمَاءِ جَفْنِ ذَائِبِ
مَنْ تَرْمِيهِ حَدَقُ الْمَكَارِمِ تُصْبُهُ
عَنْ مُصْبِيَّاتِ أَحْبَةِ وَحَبَائِبِ
فَفِرَاقُ رَبَّاتِ الْخُدُورِ مُكْفَرٌ
بِلِقَاءِ نَجْمِ الْمَكْرُمَاتِ الثَّاقِبِ

(١) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، د. مصطفى سوييف ، ص ٧٩٢ ، الطبعة الثالثة - دار المعارف ، سنة ١٩٧٠ م .

(٢) في النقد التطبيقي والمقارن ، د / محمد غنيمي هلال ، ص ٢٢ ، طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر .

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْوَدَاعُ مَدَامَعًا

بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ

أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟

كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةً نَاهِبِ !

فِي كُلِّ يَوْمٍ مُتَتَوَى مَتَبَاعِدُ

يَرْمِي حُشَاشَةَ شَمْلِنَا الْمُتَقَارِبِ

وَنُتَتْ تُذَكِّرُ مُقَرَّبَاتِ سَفَائِنِ

عُدْنَا بِهَا مِنْ مُقْفِرَاتِ سَبَاسِبِ

أَيَّامَ تُؤْنِسُنَا فَلَا وَسْوَاحِلُ

عَنْ آنِسَاتِ مَقَاصِرِ وَمَلَاعِبِ

نَعَبَ الْغُرَابُ بِهَا فَطَارَ بِأَهْلِهَا

سِرْبًا عَلَى مِثْلِ الْغُرَابِ النَّاعِبِ

خَرَقُ الْجَنَاحِ إِلَى الرِّيحِ مُضَلَّلُ

بِشَمَائِلِ لَعِبَتْ بِهِ وَجَنَائِبِ

يَهْوِي بِذِي طَمْرَيْنِ مَزَقَ لِبْسَهَا

أَيْدِي لَوَاهِفَ لِلنُّفُوسِ نَوَادِبِ

فِي غَوْلٍ ذِي لُجَجٍ لِبَسْنِ دِيَاجِيَا

تَرَكَ الْحَيَاةَ لَنَا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ

قَاسَمِيَّتُهُنَّ غَوَارِبًا كَغَيَاهِبِ

وَسَرِيَّتُهُنَّ غَيَاهِبًا كَغَوَارِبِ

نَجْلُو ظِلَامَ اللَّيْلِ قَبْلَ صَبَاحِهِ
بِلَظَى زَفِيرٍ أَوْ بِرَأْسِ شَائِبٍ
يَا هَذِهِ لِّلَّهِ تِلْكَ حَدَائِقًا
زَهْرَاتُهُنَّ مَفَارِقِي وَذَوَائِبِي
مِثْلَ الرِّيَاضِ تَفْتَحَتْ أَكْمَامُهَا
عَنْ مُحْكَمَاتِ بَصَائِرِي وَتَجَارِبِي
فَذَخَرْتُ لِلْأَلْبَابِ كِفَّةَ حَابِلٍ
وَلَأَشْطَرَ الْأَيَّامَ كَفِّي حَالِبٍ
وَرَمَيْتُ آفَاقَ الْعِرَاقِ بِشُرْدٍ
لَيْسَ الْعَجَائِبُ عِنْدَهَا بِعَجَائِبٍ
مِنْ كُلِّ سَاحِرَةٍ كَأَنَّ رَوِيَّهَا
فِي أَلْسُنِ الرَّائِينَ رَيْقَةَ كَاعِبٍ
وَلَكُمْ وَصَلْتُ تَنَائِفًا بِتَنَائِفٍ
حَتَّى وَصَلْتُ مَشَارِقًا بِمَغَارِبٍ
فَكَأَنَّمَا قَفَيْتُ إِثْرَ بَدَائِعِي
فِي الْأَرْضِ أَوْ نَاوَيْتُ شَأْوَ غَرَائِبِي
أَوْ رُمْتُ حَظِّي فِي السَّمَاءِ وَقَدْ جَرَى
لِمَدَاهُ فِي فَلَكِ الْفَضَاءِ الْغَائِبِ
وَلَكِنْ دَجَّتْ لِي الْحَادِثَاتُ فَمَا أَرَى
نُورَ الْيَقِينِ بِطَرْفِ ظَنٍّ كَاذِبٍ

صَدَقْتَنِي الْأَنْبَاءُ ضَرْبَةَ لَازِمٍ
أَنْ لَيْسَ هَمُّ الدَّهْرِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ
فَشَفَيْتُ فِي حُرِّ التَّجْمُلِ غَلَّتِي
وَقَضَيْتُ مِنْ حُسْنِ الْعَزَاءِ مَآرِبِي
وَحَرَسْتُ عِرْضِي بِالتَّوَكُّلِ مَنْ نَأَى
عَنِّي بِجَانِبِهِ نَأَيْتُ بِجَانِبِي
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْجَدَّ لَيْسَ بِبَالِغٍ
وَالْعَجْزَ لَيْسَ عَنِ الصَّرَاطِ بِنَاكِبٍ
كَمْ قَدْ سَعِدْتُ بِمَا تَمَنَّى حَاسِدِي
قَدْرًا وَخَبْتُ بِمَا تَخَيَّرَ صَاحِبِي
وَوَجَدْتُ طَعْمَ السُّمِّ فِي شَهْدِ الْجَنَى
وَأَجَاجِ شُرْبِي فِي نَمِيرِ مَشارِبِي
وَرَفَلْتُ فِي النِّعَمِ السَّوَابِغِ مُلَبَّسِي
أَثْوَاهَا الدَّهْرُ الَّذِي هُوَ سَالِي
يَا رَبَّةَ الْخِدرِ اسْتَجِدِّي سَلْوَةَ
جَدِّ التَّجَاءِ بِهِائِمِ بِكَ لَاعِبِ
إِنَّمَا شَجِيتُ بِرَحْلَتِي فَاسْتَبْشِرِي
بِجَمِيلِ ظَنِّي مِنْ جَمِيلِ عَوَاقِبِي
وَلَكِنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلِ
فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آيِبِ

وَهَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالَعَا
فِي الْأُفُقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ
وَاللَّهُ مِنْ بَعْدِي عَلَيْكَ خَلِيفَتِي
وَخَلِيفَةُ هُدَيْتَ إِلَيْهِ مَذَاهِبِي
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَنْ يُلَبِّي دَعْوَتِي
دَاعِي (لَيْب) مِنْ مُنَاخِ رَكَائِبِي
وَأَهْلٍ نَحْوِ فَنَائِهِ وَعَطَائِهِ
فِيهِلَّ نَحْوِ وَسَائِلِي وَرَغَائِبِي
وَأَشِيمُ بَرَقَ يَمِينِهِ وَجَبِينِهِ
وَيَشْمُ رِيحَ أَوْصِرِي وَمَطَالِبِي
وَأَهْزَهُ بِشَوَافِعِ مَنْ عَامِرِ
تُزْرِي بِكُلِّ قَرَابَةٍ وَمَنَاسِبِ
فَهُنَاكَ جَاءَتْكَ الْخُطُوبُ خَوَاضِعَا
وَمَشَى إِلَيْكَ الدَّهْرُ مَشْيَةً تَائِبِ
وَأَنَابَ سُلْطَانُ التَّوَائِبِ وَانْشَتَ
ذُلًّا وَأَعْتَبَ كُلَّ مَوْلَى عَاتِبِ
مَلِكٌ مَتَى أَرَمَ الْحَوَادِثَ بِاسْمِهِ
تَقْتُلُ أَفَاعِيهَا سُمُومُ عَقَارِي

الرَّافِعُ الْأَعْلَامَ فَوْقَ خَوَافِي

وَالْقَائِدُ الْأَسَادَ فَوْقَ شَوَازِبِ

مَلِكُ تَكْرَمٍ عَنْ خَلَائِقِ غَادِرٍ

فَأَثَابَهُ الرَّحْمَنُ قُدْرَةَ غَالِبِ

يَقْضِي فِيمُضِي كُلِّ حَقٍّ وَاجِبِ

إِلَّا إِذَا أُعْطِيَ فَوْقَ الْوَاجِبِ

قَفْلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ مَمْنُوعٌ لَهُ

عَنْ قَلْبِ كُلِّ مُعَانِدٍ وَمُنَاصِبِ

لَا يَخْلَعُ الْإِسْلَامَ حُلَّةَ آمِنٍ

مِنْهُ وَلَا الْإِشْرَاكَ رِبْقَةَ هَائِبِ

حَرَمُ الْهَدْيِ ، سُمْ الْعِدَى ، أُمْنِيَّةُ

لِمُسَالِمٍ ، وَمَنْيَّةُ لِمَحَارِبِ

وَقَفٌّ عَلَى عِلْمِ الثُّغُورِ ، مُقَارِبُ

لِمُبَاعِدٍ ، وَمُبَاعِدُ لِمُقَارِبِ

فَمُرَاقِبُ الْإِسْلَامِ غَيْرُ مُرَاقِبِ

وَمُصَاقِبِ الْأَعْدَاءِ غَيْرُ مُصَاقِبِ

مُؤَفٍّ بِعِلْيَاءِ الثُّغُورِ لِرَغْبَةٍ

مِنْ رَاغِبٍ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْ رَاهِبِ

ثُضِحِي عَطَايَاهُ تَحِيَّةَ زَائِرٍ
وَتَيِّتُ رَوْعَتُهُ نَجِيَّةَ هَارِبٍ
يَا مَنْ يُلَاقِي التَّازِلِينَ قَبَابَهُ
بِجَبِينِ مَوْهُوبٍ وَرَاحَةِ وَاهِبٍ
وَإِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ طَاعِنٍ
وَإِذَا اسْتَحَرَّ الطَّعْنُ أَوَّلُ ضَارِبٍ
وَإِذَا تَوُوبُ الْخَيْلِ آخِرُ نَازِلٍ
وَإِذَا دَعَا الدَّاعِي فَأَوَّلُ رَاكِبٍ
كُرِّمَتْ أَيْادِيكَ الَّتِي أَنْشَأَتْهَا
أَثْرَابَ كُلِّ مُؤْمِّلٍ أَوْ رَاغِبٍ
مِنْ كُلِّ بَكْرٍ فِي يَمِينِكَ حُرَّةٍ
يَرْفُلْنَ بَيْنَ قَلَائِدٍ وَجَلَابِبٍ
هَٰذَا لِأَوَّلِ خَاطِبٍ وَلِدَائِهَا
يَهْتَفْنَ فِي الْأَفَاقِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ
وَيَجِلُّ قَدْرُكَ عَنْ وَلَادَةِ (يَافِثِ)
أَوْ قَيْصَرٍ أَوْ عَنْ أَرْوَمِ صَقَالِبٍ
بَلْ أَنْتَ بَكْرٌ غَمَامَةٍ مِنْ بَارِقٍ
لَقِحَتْ بِهِ أَوْ صَعْدَةٍ مِنْ قَاضِبٍ

قَبْلَتِكَ أَيْدِي هِمَّةٍ وَسِيَادَةٍ
وَرَضَعْتَ دَرَّ مَكَارِمٍ وَمَوَاهِبِ
فِي عِزٍّ مَهْدٍ مَا اسْتَقَرَّ مَكَائُهُ
إِلَّا بِقُرْبِ مَنَابِرٍ وَمَحَارِبِ
وَفُطِمْتَ يَوْمَ فُطِمْتَ فِي رَهْجِ الْوَعَى
عِنْدَ التِّفَافِ كَتَائِبَ بَكَتَائِبِ
حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَرَاتِبًا
تَرَكْتَ كَوَاكِبَهَا بِغَيْرِ مَرَاتِبِ
فَلَنْ تَطْلُبْتَ هُنَاكَ حَقًّا صَاعِدًا
فَلَأَنْتَ أَقْرَبُ مَنْ وَرِيدِ الطَّالِبِ
وَلَنْ وَهَبْتَ قَدْ وَهَبْتَ مَسَاعِيًا
أَصْبَحْنَ حَلِيَّ مَآثِرِي وَمَنَاقِبِي
شِيمًا بِهَا حَلَيْتُ غُرَّ قِصَائِدِي
وَجَعَلْتُهِنَّ أَهْلًا لِكُوَاكِبِي
وَذَخَرْتُ لِلْأَزْمَانِ مِنْ حَسَنَاتِهَا
مِثْلَ الْقَلَائِدِ فِي نُحُورِ كَوَاعِبِ
وَلَأَشْفِينَ بِهَا سَقَامَ تَغْرُبِي
وَلَأَسُونَّ بِهَا جِرَاحَ مَصَائِبِي

وَلَا جَعَلْنُ مِنْهَا تَمَائِمَ خَائِفٍ
مِنْ طَائِفٍ أَوْ مِنْ رَجَاءٍ خَائِبٍ
وَلَا تُرْكُنْ ثَنَاءَهَا وَجَزَاءَهَا
قُوتَ الْمُقِيمِ غَدًا وَزَادَ الرَّاكِبِ
وَسُرُورَ مَحْزُونٍ وَأُنْسَ مُعْرَبٍ
وَحُلِّيَّ أَوْتَارٍ وَرَوْضَةَ شَارِبٍ
وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَكْلَكَ جَوْهَرًا
لَا مَا قَمَشْتُ وَضَمَّ حَبْلُ الْحَاطِبِ^(١)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٩٠ - ٩٤ .

هَلْ تَشِينُ غُرُوبَ دَمْعِ سَاكِبٍ

مَنْ شَامَ بَارِقَةَ الْغَمَامِ الصَّائِبِ

القصيدة تبدأ باستهلال يفيض منه معنى القلق والحيرة ؛ إذ أن هذه البداية تنبجس وتنفجر من نفس حائرة ضائعة مغتربة .

فزوجته تشني الدموع وتوقفها ، ولكن لماذا هذا الاستفهام : (هل تشين) هذه الأداة التي يطلب بها التصديق أي معرفة النسبة . بمعنى يريد الشاعر أن يثبت أو ينفي بكاء زوجته عليه .

فالشاعر يعلم علماً يقيناً أنها ستزرف الدموع لفراقه ، ولكن شدة الضغط النفسي والقلق الحاد الذي يعيشه ابن درّاج لحظة بلحظة جعله يطلق هذا السؤال الذي يطلب فيه معرفة حال زوجته عند فراقه لها ، هل ستشني الدموع وتوقفها فالسؤال خرج إلى معنى الطلب فهو يطلب منها أن تكف دموعها ولا تغفل هنا صيغة المبالغة في (ساكب - صائب) والإجابة في قوله : (قالت وقد مزج الوداع مدامعاً بدماع . . .)

إذاً قد أنهمرت الدموع ، وفاضت وامتزجت ، وبهذا نقول أن السؤال يُجسّد مدى إحساس ابن درّاج بالاغتراب ، لماذا ؟ لأن ابن درّاج خبير وعالم بحال زوجته عندما يفارقها ، فالاستفهام قصد به معنى التوجع والتحسر ، كيف ؟ لأن زوجته ستبكي عليه بدموع ساكبة ، ولهذا سيشعر هو بالألم والوجع ، وسيتحسر لفراقها ، وهي في هذا الحال من الألم والعذاب والشجن الذي يكسو قلبها .

أَبَتْ الْعَزِيمَةُ مِنْ فُؤَادِ جَامِدٍ

أَنْ تَسْتَفِيدَ لِمَاءِ جَفْنِ ذَائِبٍ

ولكن قوة العزيمة جعلت قلبه يجمد ولا يلتفت إلى ذلك الجفن الذي
سالت دموعه ، فما الذي زاد في قوة عزمته ؟ حتى إنه صاغ قوة جمود قلبه
على وزن فاعل ، وهو من صيغ المبالغة (جامد) للدلالة على قوة تلك العزيمة .

مَنْ تَرْمِهِ حَدَقُ الْمَكَارِمِ تَصْبُهُ

عَنْ مُصَيَّاتٍ أَحَبَّةٍ وَحَبَائِبِ

إذاً مكارم ممدوحه التي أصابته فأصبتة عن حبائبه، فهو هنا يشبه مكارم
ممدوحه بعين فاتنة، أصمت فؤاده بسهامها الفاتكة حتى أصبته عن أحبته
وحبائبه، ثم يعود الشاعر ليؤكد لنا مرة أخرى قائلاً :

فَفِرَاقُ رَبَّاتِ الْخُدُورِ مُكْفَرٌ

بِلِقَاءِ نَجْمِ الْمَكْرُمَاتِ الثَّاقِبِ

ففراق ربات الخدور أمراً ليس بالسهل ، ولكن ما يسهل ويخفف عنه
حدّة ذلك الفراق هو لقاء نجم المكرمات الثاقب ، فهو هنا يشبه ممدوحه
بكرمه وعلو منزلته بالنجم الثاقب العالي المتزلة .

ابن درّاج بدأ قصيدته بقوله : « هل تثنين » ثم : « أبت العزيمة » ،
ثم : « من ترمه » ، ثم : « ففراق ربات الخدور » ، هذه الأبيات التي دار
الحديث فيها عن الاستفهام عن كف الدموع وإيقافها ، ثم نراه يذكر أنها
بكت ، ولكن لم يستجب لبكائها ؛ لقوة عزمه وجمود فؤاده ؛ لأنه سينزل
عند ملك كريم يغمره بالعطاء والكرم ؛ ليخفف عنه ألم الفراق والبعد عن
ربات الخدور .

والسؤال : هل جمد حقاً فؤاد الشاعر ، ولم يلتفت لبكاء زوجته عند
وداعه ؟ أم ضعفت عزمته وفاضت عيونه بالدموع ؟

يقول :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْوَدَاعُ مَدَامَعًا

بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ

إذا فقد مزجت الدموع بالدموع ، والدموع هي إحدى الطرق التي يعبر بها المهموم والحزين عن همه وحزنه . فالشاعر بكائه وانهمار دموعه قد ضعفت عزيمته ، ففراقه لزوجته أمرٌ مفاجئ يبعث على الهم والحزن والقلق ، ولذلك فهو بحاجة ماسة للاطمئنان ، ولذلك مزج الوداع - أيضًا - الصدور بالصدور ، إذا الشاعر يمر بظروف نفسية سيئة ، وليبرز لنا كثرة تلك الدموع عمد إلى استخدام جمع التكسير (مدامع) ، فبعد أن قال : « أبت العزيمة من فؤاد جامد » وسبب هذا الجمود هو « لقاء نجم المكرمات الثاقب » ، نراه يقول : « وقد مزج الوداع مدامعًا » فالقصيدة تحمل هنا موضوعين ، أو تزامنين وهما المديح ، والحديث عن ألم الاغتراب الذي تمثل في حدة القلق والوجع لفراق زوجته والتزامن كما يقول الرباعي : « يعني تكوين علاقة بين موضوعين فأكثر داخل القصيدة ، ومن مجموع التزامنات يتشكل معنى القصيدة ، ويستطيع الناقد أن ينظر إلى مجموع التزامنات أو العلاقات من خلال تشكيلين أساسيين للمعنى في الشعر هما : التشكيل المكاني والتشكيل الزماني »^(١) .

فما العلاقة التي تربط بين موضوع المدح وموضوع الاغتراب ؟

إنَّ ممدوحه هو الوحيد بكرمه وعطائه يستطيع أن يحو ويزيل قلق ابن درّاج وهمه الذي تكتوي به نفسه في دار الغربة ولهذا القصيدة تحمل بعدين مكاني وزماني ، فالزماني يتمثل في فراق ابن درّاج لزوجته وبكائها عليه في

(١) الصورة الفنية في النقد الشعري ، للدكتور عبد القادر الرباعي ، ص ١٦٩ .

الماضي قبل وصوله للمدوح ، أما الحاضر ، فيحمل لنا مدى الإحساس بالقلق من ردة فعل ممدوحه ، ولذلك قام الشاعر باستدعاء تلك الذكريات ووصف موقف الوداع ليرق قلب ممدوحه ويغمره بالعطاء ، ولكي يخفف - أيضاً - من حدة ذلك القلق .

ولذلك صاغت تلك النفسية القلقة سؤالاً صاغه على لسان محبوبته .

أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟

كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةً نَاهِبٍ !

أوصل بك الأمر أن تفرق وتترك كل شيء حتى منزل الغربة تفرط به وتتركه إذا هذا السؤال جسد فيه ابن درّاج البعد المكاني والذي تمثل في دار الغربة .

فبغياح ابن درّاج عن أسرته تصبح تلك الأسرة نهباً لكل ناهب وطامع ؛ ولهذا استخدم هنا (كم الخيرية) ليلقي علينا هذا الخبر الذي يجلب له ولأسرته الهم والقلق ، وليكشف لنا - أيضاً - عن كثرة أولئك الذين يتربصون به وبأسرته (كم نحن للأيام نهباً ناهب) !

وبهذا تنكشف حقيقة سؤال ابن درّاج (هل تثنين ؟) وحقيقة وصفه لموقف الوداع ، فلم يكن ذلك سؤال استفهام عابر ، ولا الوصف كذلك وصفاً تقليدياً ، وإنما أراد إظهار حقيقة اغترابه ، وإبراز مدى قلقه ، فالاستفهام تضمن معنى القلق والتوتر الذي برز في قوله : (دموع - غروب) ، ثم الصورة التشبيهية التي جاء بها ليوضح غزارة تلك الدموع (دمع ساكب - غمام - صائب) ، ثم يعود بنا الشاعر بعد الجمل الخبرية في الأبيات (أبت العزيمة) ، (من ترمه) ، (ففراق ربّات الخدور) ، (قالت وقد مزج الوداع) إلى الاستفهام مرة أخرى ، وبأداة أخرى وهي الهمزة : (أتفرق حتى بمنزل غربة) والاستفهام هنا خرج إلى معنى الإنكار .

إذا تأرجح ابن درّاج بين حمل الاستفهام والجمل الخبرية إضافة إلى الدوال اللفظية التي استخدمها ، كقوله : (تثنين - دموع - برق - فراق - وداع - غربة - نوبة ناهب) كلها دلالات تنبئ على قلق تكتظ به نفسية ابن درّاج المغتربة .

فِي كُلِّ يَوْمٍ مُنْتَوَى مَتَبَاعِدُ

يَرْمِي حُشَاشَةَ شَمْلِنَا الْمُتَقَارِبِ

فحالة القلق وموضوع الاغتراب والغربة مازال مستمراً ومتصلاً ، ففي القراءة الأولية للبيت تبرز حالة القلق (ففي كل يوم) ، وكل تفيد الشمول والعموم والرحيل كل يوم ينتج عنه التوتر .

والشعور بالضيق والإرهاق ، وكذلك حالة التضاد التي بُني عليها البيت (متباعد - متقارب) وما فيه من مد وطول تبرز إحساسه بالضيق الذي استوطن قلبه .

فالغربة ترميه في مكان سحيق شديد البعد ، ولذلك قال (متباعد)، وفي الوقت نفسه ترمي بحشاشة شمله المتقارب ، فأبنائه من أقرب الأقربين له .

هناك شدة في البعد وشدة في القرب ، فالبيت يجمع بين متضادين (القرب والبعد) ؛ ولذلك جاء البيت يفيض بالقلق والتوتر ، ولهذا تزاхمت العناصر المكونة للاغتراب والغربة .

وَنَنْتُ تُذَكِّرُ مُقَرَّبَاتِ سَفَائِنِ^(١)

عُدْنَا بِهَا مِنْ مُقْفِرَاتِ سَبَاسِبِ

(١) سفائن : مفردة سفينة .

أَيَّامَ تُؤْنِسُنَا فَلَا وَسْوَاحِلْ

عَنْ آنِسَاتِ مَقَاصِرِ وَمَلَاعِبِ

العتاب والتذكير مازال متّصلاً ، فالتذكُّر في الظروف القاسية التي يمر بها الشّاعر في أثناء رحيله ، ولربما إذا تذكر تلك الصعاب تشييه عن رغبته ورحيله ، فقطع القفاري الواسعة المتصلة ، والرحيل عبر السفائن التي تجوب بهم عباب البحر ، ليس هناك ثمة شك بأنه أمرٌ مفجع باعث على القلق والتوتر، فبقدر ما تبعته تلك الغربة وذلك الانتقال من خوف ورعب وضياح بقدر ما يشعرون به من أنس وسعادة في القصور والملاعب ، وهو ما يُسمى بالتقابل الإيحائي، ولكن تلك السعادة لم تدُم طويلاً ، وهذا ما كان يجلب الحزن والأرق لابن درّاج .

كما أن الجمع بين مكان الأنس وعدمه يبرز حالة التوتر والقلق ، فالسير في القفار والسباسب - عدم الأنس لما في تلك الأماكن من أهوال وقلق وأسى ، أما الاستقرار في المقاصر والملاعب - الأنس لما في تلك الأماكن من دلالات الرحابة والانشراح ويتابع ابن دراج في وصف الرحيل قائلاً:

لوحة الرحيل والانتقال :

نَعَبَ الْغُرَابُ بِهَا فَطَارَ بِأَهْلِهَا

سِرْبًا عَلَى مِثْلِ الْغُرَابِ النَّاعِبِ

خَرَقَ الْجَنَاحَ إِلَى الرِّيحِ مُضَلَّلٌ

بِشَمَائِلٍ لَعِبَتْ بِهِ وَجَنَائِبِ

يَهْوِي بِذِي طَمْرَيْنٍ مَزَقَ لِبْسَهَا

أَيْدِي لَوَاهِفَ لِلنُّفُوسِ نَوَادِبِ

فقد نَعَبَ غُرَابُ البين ، ونعبه يعني الرحيل والاعتراب ، وكان هذا الرحيل سريعاً (فطار بأهلها) ، فهذه الكلمة فيها من دلالات التفرق والانتشار السريع .

الشاعر هنا شبه رحيلهم المفاجئ برحيل جماعة من الغربان ، فكأنَّ هذا الرحيل بمثابة الغُرَاب الذي يمد جناحيه فيطير بهم ، فتهب عليهم الرياح ، وتنقلبهم في كل الاتجاهات ، وهذه الكلمات تنبجس فيها حدة القلق التام وتشتت الشاعر .

فالغراب : يتصف بالسوداوية ، كما يثير التشاؤم .

والسرب : الجماعات من الطيور ، واجتماعها يعني الرحيل .

مزق : وما فيه من دلالات التشتت .

في غَوْلٍ ذِي لُجَجٍ لِبَسْنِ دِياجِيَا^(١)

تَرَكَ الْحَيَاةَ لَنَا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ

قَاسَيْتُهُنَّ غَوَارِبًا كَغِيَاهِبِ^(٢)

وَسَرَيْتُهُنَّ غِيَاهِبًا كَغَوَارِبِ

نَجَلُّوْ ظِلَامَ اللَّيْلِ قَبْلَ صَبَاحِهِ

بَلْظَى زَفِيرٍ أَوْ بِرَأْسِ شَائِبِ

فالغول ظهرت لهم وتلوّنت باللون الأسود ، فكانت حياتهم كأمس الذي ذهب ومضى ، فقد لبسوا في رحيلهم دياجي المشقة والظلمة ، فكانت حياتهم كأمس الذاهب ، وحينما شعروا بهذا الإحساس كابدوا ذلك الأمر الشديد ، فتارة يغطيهم أعالي الموج ، وتارة سواد الليل ثم تتنامى وتتكدس

(١) غول : أي مشقة . ولجج : أي ظلمة .

(٢) قاسيتهن : المكابدة في الأمر الشديد . وغوارب : الماء أعاليه ، وقيل : أعالي موجه ، وغياهب : غيب ، وهو شدة سواد الليل .

السوداوية عند ابن درّاج في قوله : « نجلو ظلام الليل » ، فبعد مكابدة أمواج البحر بقوتها وهيمنتها ، وتحمل سواد الليل الحالك لم يكن بمقدورهم دفع تلك الأمواج ولا إزالة ذلك السواد ، ولكن كان بمقدورهم إطلاق الزفريات والآهات ليعبروا عن تمكن الخوف والرعب والقلق في نفوسهم مما أتاح للشيب أن يغزو رأس الشاعر .

ثم تبرز سيطرة الاغتراب في نفسية ابن درّاج في الدوال التي استخدمها الشاعر كقوله :

غول : وما فيه من كدٍّ وتعب وإرهاق .

ظلام الليل : وما يشعر فيه من رعب وقلق .

الإجلاء : محاً .

لظى : يتضمن معنى الحرقعة والعذاب .

زفير : وتحمل هذه الكلمة كل معاني الهم والغم .

ثم نلاحظ بعد هذا الانفعال الذي تضمن كل معطيات القلق والتوتر الذي شعر به ابن درّاج ، نراه ينقلنا إلى انفعال أكثر حيوية وأكثر عذوبة حيث يقول :

يَا هَذِهِ لِّلّهِ تِلْكَ حَدَائِقًا

زَهْرَاتُهُنَّ مَفَارِقِي وَذَوَائِجِي^(١)

مِثْلَ الرِّيَاضِ تَفْتَحَتْ أَكْمَامُهَا

عَنْ مُحْكَمَاتِ بَصَائِرِي وَتَجَارِبِي

(١) مفارق : مفرق الشعر .

فمن حالة وصف الهموم والحديث عن المعاناة إلى حالة وصف الحقائق والرياض التي تفتحت فيها الأزهار والورود ، فكانت تلك الأزهار مفارقة وذوائبه ، حيث شبه مفارقة وذوائبه بالأزهار التي تفتحت فملاً أريجها الكون .

ففي الوقت الذي يظهر ابن درّاج صورة الرحيل والسير في لجة الليل ولطمة الأمواج ، وبكل ما تشير إليه الدلالات التي استخدمها من قلق وتوتر وانقباض ورهبة ، أبرز صورة الرياض وما فيها من ألوان تشرح الصدر ، فهذه الحالة وما فيها من تضاد تبرز سيطرة الاغتراب على نفسية ابن درّاج .

لوحة الحديث عن الذات (التجربة الذاتية) :

فَذَخَرْتُ لِلْأَبَابِ كَفَّةَ حَابِلٍ^(١)

وَلَأَشْطَرَ الْأَيَّامَ كَفِّي حَالِبٍ

ابن درّاج كان بمثابة الصيد الثمين لكل صائد ، ذا عقل لبيب لأنه عالم بكل ما تفعله الأيام فهو حالب لتلك الأيام ومشاطرها ونلحظ الجناس في قوله (حابل - حالب) ويدلّ على حالة شعورية مضطربة ، ولهذا قال :

وَرَمَيْتُ آفَاقَ الْعِرَاقِ بِشُرْدٍ^(٢)

لَيْسَ الْعَجَائِبُ عِنْدَهَا بِعَجَائِبِ

الشعور بالاضطراب والاغتراب يمتد في نفس ابن درّاج ليصل إلى مرحلة التشرد والضياع ، فقد قصد آفاق العراق برحيله الذي لا حدّ له ولا نهاية له ، ويقول : ليس العجيب والمدّهب فيه بعجيب ، ولا مدّهب ، فما المدّهب عنده إذا ؟

(١) كفة حابل : يريد الفطن العاقل .

(٢) العراق : وسمي بذلك لأنه على شاطئ دجلة .

مِنْ كُلِّ سَاحِرَةٍ كَأَنَّ رَوِيَّهَا

فِي أَلْسُنِ الرَّائِينَ رَيْقَةَ كَاعِبٍ

فكل شيء يسحر يثير الدهشة والاستغراب لا بد أن تتناقله الألسنة ، وهنا تشبيه حيث شبه شعره الذي تتناقله الألسن بريقة فتاة كاعب ؛ ولهذا يحلو إنشاده .

وَلَكُمْ وَصَلْتُ تَنَائِفًا بِتَنَائِفٍ

حَتَّى وَصَلْتُ مَشَارِقًا بِمَغَارِبٍ

فكم تنوفة قطعها ابن درّاج حتى وصل مشارق بمغارب ، ابن درّاج في البيت السابق قال بأن شعره وصال آفاق العراق محدداً ، وهنا قطع تنائف حتى وصل المشارق بالمغارب بدون تحديد المدن التي قصدتها ، وهذا يدل على تشتت الشاعر واضطرابه ، والذي برز - أيضاً - في التضاد (مشارق - مغارب) والتكرار في (وصلت - وصلت) و (تنائف - بتنائف) .

فَكَأَنَّمَا قَفَيْتُ إِثْرَ بَدَائِعِي

فِي الْأَرْضِ أَوْ نَاوَيْتُ شَأْوَ غَرَائِبِي

فابن درّاج يفتخر بدرر شعره كما افتخر الشعراء من قبل ، فابن درّاج يقول : إنه ربما كان في رحيله يتبع إثر بدائعه ودرره الشعرية التي ملأت الآفاق وتناقلتها الألسن لسحرها وجمالها ، أو أنه يتبع البعيد والغريب من شعره ، إذا الغريب والساحر هو شعره . فما الذي دعا ابن درّاج إلى أن يفتخر في هذا الموضوع بالذات ؟ فابن درّاج حينما شعر بالتشتت والقلق أراد أن يبحث عن ذاته ، وعن وجوده ، وذاته الذي يتمثل في قصائده الشعرية ، ولكي يهيئ جواً من التوازن العاطفي والتقليل من حدة القلق لجأ إلى ذكر قصائده التي ملأت آفاق البلاد ، وقد أراد بذلك إثبات تفوقه الشعري ليوصله هذا التفوق إلى عالم الأمن والاستقرار في رحاب لبيب العامري .

أَوْ رُمْتُ حَظِّي فِي السَّمَاءِ وَقَدْ جَرَى

لِمَدَّاهُ فِي فَلَكِ الْفَضَاءِ الْغَائِبِ

ويتحدث عن حظه الغائب ، وكأنَّ الأفلاك هي التي جرت به حتى غاب عنه .
فبعد نشوة الأمل والبحث عن الذات يفجؤنا ابن درَّاج بنظرة يأس وبؤس ، وهذه النقلة
السريعة توحى وتشير إلى امتداد مرارة الاغتراب في نفس ابن درَّاج حتى بلغت مبلغاً
عظيماً فيه ، ثم استخدمه لكلمة (جرى) وما فيها من دلالات السرعة والانقضاء .

وَلَكِنْ دَجَّتْ لِي الْحَادِثَاتُ فَمَا أَرَى

نُورَ الْيَقِينِ بِطَرْفِ ظَنْ كَاذِبِ

صَدَقْتَنِي الْأَبَاءُ ضَرْبَةَ لَا زِمِ

أَنْ لَيْسَ هَمُّ الدَّهْرِ ضَرْبَةَ لَا زِبِ

وبعد تلك النظرة اليائسة يعود ابن درَّاج ليخلق جوًّا آخر ليسلي نفسه ، فيؤكد
أنه حينما تلم به الحوادث وتظلم الدنيا أمام ناظريه لا يميني نفسه بالآمال والأمان
الكاذبة الخادعة ؛ لأنه يعلم علماً يقيناً أن الدهر لا يبقى كما هو ، ولذلك يقول :

فَشَفَيْتُ فِي حُرِّ التَّجْمُلِ غَلَّتِي

وَقَضَيْتُ مِنْ حُسْنِ الْعَزَاءِ مَآرِبِي

وَحَرَسْتُ عِرْضِي بِالتَّوَكُّلِ مَنْ نَأَى

عَنِّي بِجَانِبِهِ نَأَيْتُ بِجَانِبِي

سيرضى بقضاء الله وقدره ، ويشفي علته بالصبر ، ويلتمس السلوان ، ويصون
عرضه بالتوكل على الله - عز وجل - ليحفظ كرامته وعرضه بالابتعاد عن اللثام وكل
من ابتعد عنه .

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْجَدَّ لَيْسَ بِبَالِغٍ
وَالْعَجْزَ لَيْسَ عَنِ الصَّرَاطِ بِنَاكِبٍ
كَمْ قَدْ سَعِدْتُ بِمَا تَمَنَّى حَاسِدِي
قَدْرًا وَخَبْتُ بِمَا تَخَيَّرَ صَاحِبِي
وَوَجَدْتُ طَعْمَ السُّمِّ فِي شَهْدِ الْجَنَى
وَأَجَاجَ شُرْبِي فِي نَمِيرِ مَشَارِبِي
وَرَفَلْتُ فِي النِّعَمِ السَّوَابِغِ مُلْبَسِي
أَثْوَاهَا الدَّهْرُ الَّذِي هُوَ سَالِي

وتعود نعمة اليأس والقلق مرة أخرى ، فرأى بعد تجربة وصبر أن الجاد والمجتهد هو ليس ببالغ أمله ، وقد توصل إلى هذا الأمر بعد تجربة وبرهان ، كم رأى أن يسعد في دنياه قدرًا بما تخير حاسده ، ويشقى بما أشار عليه أصحابه ، وكم وجد طعم السم في العسل ، ويغض بالماء النмир ، ويرفل في نعم الدهر السابغة بعد شطف عيش وطول سلب ، إذا التشتت والتمزق والقلق يبدو جليًا في شخصية ابن درّاج ، فتارة يحیی الأمل في نفسه ، وتارة يكبح ذلك الإحساس باليأس « والتمزق كما هو متواضع عليه حالة ازدواج في الكيان النفسي ، ينعكس معها انشطار الوعي الشخصي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية نفسية انعكاسية تتبع من تقمص تجربة ذاتية واعية ، أو غير واعية ، فالتمزق تجربة جاهزة لدى الأديب تتحول عبر الحساسية الفنية معينًا خصبًا يغذي أدبه بروح وجودي ، فيصطبغ تعبيره عن المرارة المأساوية ، وما كان للتمزق أن يستحيل مولدًا أخلاقًا لولا أنه قوة محرّكة تفجر الطاقات الكامنة في نفس الأديب ليعبر عن حاله الكائنة ، ومآله الصائر بما يصور عادة نمطًا من التجارب الإنسانية ، فإذا بالأثر الفني يتبوأ منزلة الأدب الإنساني القاطع »^(١) .

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، محمود هياجنة ، ص ١٢٢ .

كما يظهر تشتت الشاعر في قوله : (ذحرتُ - رميتُ - وصلتُ - قفيتُ - ناويتُ - رمتُ) فاستخدم هنا الفعل الماضي وتاء الفاعل ، ثم استخدم الفعل الماضي وتاء التأنيث في قوله : (دجتُ - صدقتُ) ، ثم العودة مرة أخرى للفعل الماضي وتاء الفاعل في قوله : (شفيتُ - حرسْتُ - رأيتُ - سعدتُ - وجدتُ - رفلتُ) وهذا دليل على تأرجح الشاعر واضطرابه ، كما أنه أدى إلى ظهور (الأنا) بشكل واضح ، ثم التضاد في قوله : (كاذب - صادق - الجد - العجز - السم - الشهد) والتجانس في قوله : (لازم - لازب) يوضح - أيضاً - توتر الشاعر وقلقه ، وكذلك في قوله : (ملبسي - سالي) هذه الدلالات تومئ إلى قلق لائب لازم لابن درّاج، مما جعل الإحساس بالاعتراب يتنامى ويتنامى . وبعد شعور باليأس نلحظ في قوله : (ورفلتُ في النعم السوابغ) ظهور بصيص من الأمل والتفاؤل .

لوحة الأمل والتفاؤل :

يَا رَبَّةَ الْخِدرِ اسْتَجِدِّي سَلْوَةَ

جَدِّ النَّجَاءِ بِهَائِمِ بِكَ لَاعِبِ

هنا يخاطب زوجته قائلاً : (يَا رَبَّةَ الْخِدرِ) طالباً منها أن تستبشر بالخير ، وأن تستلهم بالسلوى والتحلي بالصبر والثبات ، ونجد أن هذه اللوحة لها صلة بالمقدمة الطللية ، فهناك بدأ بالاستفهام (هل تشين) دون ذكر اسمها أو صفة من صفاتها ، وهنا يذكرها بقوله : (يَا رَبَّةَ الْخِدرِ) هذه اللوحة تعتبر امتداداً للوحة الوداع والعتاب ، ولذلك استخدم النداء للبعيد ، فقال : (يَا رَبَّةَ الْخِدرِ) فلماذا يناديها ؟

إِمَّا شَجِيتِ بِرَحْلَتِي فَاسْتَبْشِرِي

بِجَمِيلِ ظَنِّي مِنْ جَمِيلِ عَوَاقِبِي

فقد حزنّت وشجيت بسبب رحيلي ، فأبشري بالخير والعاقبة الحسنة ، فقله :
(شجيت - أنت - رحلي - أنا) أسلوب التفات ، وهو كما قال محمود هياجنة :
«هو أحد المعالم البارزة في لغة المغترّبين يتغنّون به لذكر موطنه القديم ، وموقعه الجديد
الحاضر ، وهو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر»^(١) .

وَلَيْنَ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلٍ

فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آيِبٍ

بالرغم من محاولات ابن درّاج لإحياء الأمل من جديد إلا أننا نلاحظ في القراءة
الأولية للبيت التضاد في قوله : (ترحة - فرحة - راحل - آيب) هذا التضاد يوضح
بالقلق والحيرة ، ولكي يخفف من حدته قال : (فَأَنَا الزَّعِيمُ) تأكيداً لها بأن الأتراح
والآلام ستتحول إلى سرور وسعادة .

وَهَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالِعًا

فِي الْأُفُقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبٍ

فالبدر لا بد أن يكون هلالاً ، والهلال لا بد أن يصير بدرًا ؛ لأنّ بعد النقصان
كمال ، ولذلك قال : (طالع - غارب) على وزن فاعل ، فأفاد المبالغة ، كما أننا
نلاحظ التّضاد المثير للقلق ، مصاحب لشاعرنا ، فنجد (بَدْر - هِلَال - طَالِع -
غَارِب) هذه القطعة أو اللوحة تظهر مدى رغبة ابن درّاج في تحقيق أمله ، ولذلك لا بد
من الصبر والتجلد حتى يدرك مبتغاه ، ويحقق أمله . وهذه الدعوة برزت من نفس
مغتربة تعاني القلق والاعتراب لتعالج قلقاً آخر يؤرق ويرهق زوجته وأسرته ، فهو حينما
يطلب من ربة الخدر أن تتحلّى بالصبر والسلوان والتجلد يدعو - أيضاً - نفسه ويحثّها
على الصبر كذلك ؛ ليحقق أمله ، ولكي يقترب ابن درّاج من تحقيق حلمه (الاستقرار
والأمان) لا بد له من المديح .

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، محمود هياجنة ، ص ٩٤ .

لوحة الممدوح :

والله من بعدي عليك خليفتي
وخليفة هُديت إليه مَذاهبي
بيني وبينك أن يُدبِّي دَعْوَتِي
داعي (ليب) من مُناخ رَكائبي
وأهل نَحْوِ فَنائِهِ وَعَطَائِهِ
فِيهِلَّ نَحْوِ وَسَائِلِي وَرَغَائِي
وَأَشِيمُ بَرَقَ يَمِينِهِ وَجَبِينِهِ
وَيَشُمُّ رِيحَ أَوْصِرِي وَمَطَالِي
وَأَهْزُهُ بِشَوَافِعِ مَنْ عَامِرٍ
تُزْرِي بِكُلِّ قَرَابَةٍ وَمَنَاسِبِ

نلاحظ في الأبيات بروز ذات الشاعر ، وبروز ذات ممدوحه ، فابن درّاج يقول :
بأنه سيهل نحو فناء الممدوح وعطاياه ، وفي المقابل الممدوح سيهل عليه ويستجيب
لرغائبه وآماله بالعطاء والبذل .

ثم إن ابن درّاج يشيم نحو برقه ويمينه وجبينه ، وفي المقابل - أيضاً - الممدوح
يشيم نحوه ويجمع أواصره ، ويلبي مطالبه ، ثم نرى نبرة الافتخار تعلو ، حيث هو بدوره
يهز ويضطرب ممدوحه بجواهره الشعرية التي تناقلتها الألسن .

ابن درّاج يريد أن يوضح صورة الشاعر المتفوق على نظرائه في تلك الحقبة)
وتحول الشاعر بين النفس والممدوح من صور الاغتراب (١) .

(١) الاغتراب في شعر المتنبي ، لصالح الزامل ، ص ٣ .

ولذا برز أسلوب الالتفات وهو من أساليب المغترين ، كما ذكر الدكتور محمود هياجنة .

أهل - أنا	يهل - هو
أشيم - أنا	يشيم - هو
أهزه - أنا	تروي - هي .

فَهُنَاكَ جَاءَتْكَ الْخُطُوبُ خَوَاضِعًا

وَمَشَى إِلَيْكَ الدَّهْرُ مَشْيَةً تَائِبٍ

ويعود الشاعر ليخاطب ممدوحة مرة أخرى قائلاً له : إِنَّ الْخُطُوبَ سَتَأْتِي خَاضِعَةً لَكَ ذَلِيلَةً ، وهنا استعارة ، حيث استعار الخضوع والذلة للخطوب ، فشبهها بالإنسان الذي يخضع ويذل لغيره ، وكذلك الدهر يمشي إليك تائباً عن رميك في مهب الأحوال ، وهنا - أيضاً - استعارة ، حيث شبه الدهر بالإنسان الذي يمشي كما أنه - أيضاً - جعل الدهر كالإنسان التائب من ذنب فعله .

وَأَنَابَ سُلْطَانُ النَّوَائِبِ وَانْثَنَ

ذُلًّا وَأَعْتَبَ كُلَّ مَوْلى عَائِبٍ

الدهر جاء إليه تائباً فلم يعد بمقدوره أن يلقي به في مهب الأحوال ، فجعل النيابة لسلطان النوائب وسيدها ، ولكنه - أيضاً - انثنى عن أمره وجاءه ذليلاً منكسراً ، وهنا - أيضاً - استعارة ، حيث جعل النيابة والسلطان للنوائب ، حيث شبه النوائب بالشخص الذي ينيب غيره ويعطيه الولية والسلطان . هذه الصورة التي جاء بها ابن درّاج تعكس مدى سيطرة القلق والذل في نفس شاعرنا ، إذ كانت الخطوب والنوائب والدهر في نظرته من الأمور التي قادت به إلى بوابة الاغتراب والغربة ، فيتمنى أن يتغلب على تلك الخطوب لتنتهي دوامة الاغتراب والانتقال ، ويتعد عن حياة القلق والتوتر ليستقر عند :

مَلِكٌ مَتَى أَرَمَ الْحَوَادِثَ بِاسْمِهِ

تَقْتُلُ أَفَاعِيهَا سُومُومٌ عَقَارِي

الرَّافِعُ الْأَعْلَامَ فَوْقَ خَوَافِي

وَالْقَائِدُ الْأَسَادَ فَوْقَ شَوَازِبِ^(١)

مَلِكٌ تَكْرَمَ عَنْ خَلَائِقِ غَادِرٍ

فَأَثَابَهُ الرَّحْمَنُ قُدْرَةً غَالِبٍ

يصور ابن درّاج ممدوحه في صورة البطل الذي إن ذكر اسمه فقط نال النصر ، فيقضي على الحوادث ، ويقتل الأفاعي والعقارب ، فهو دائماً مرفوع الراية ، مكللاً بالنجاح والنصر، فهو القائد الذي يقود الشجعان إلى الأماكن الضامرة اليابسة ، فهو ملك من أعظم الملوك ، فهناك ملوك كثيرون إلا أن ممدوحه تكرم وتفرّد وتميّز عن جميع الملوك لأنه ترفع عن صفة الغدر والخيانة ، فأثابه الرحمن ووهبه القدرة والغلبة .

هذه الصورة البطولية التي جسّدها ابن درّاج في ممدوحه تتماهى وتترأى فيها شخصية ابن درّاج ، وبطريقة أخرى ابن درّاج يريد إظهار ذاته عن طريق إبراز صفات ممدوحه ، فليس هناك ثمة شك أن ابن درّاج هو البطل المغترب الذي يجوب القفار مع مجموعة من الأسود الشجعان وهم أبناؤه الذين ينتقلون معه ، فيقابلون الأفاعي والعقارب السامة .

يَقْضِي فَيُمْضِي كُلَّ حَقٍّ وَاجِبٍ

إِلَّا إِذَا أُعْطِيَ فَوْقَ الْوَاجِبِ

(١) شواذب : الضامر اليابس .

قَفْلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ مَمْنُوعٌ لَهُ

عَنْ قَلْبِ كُلِّ مُعَانِدٍ وَمُنَاصِبٍ

لَا يَخْلَعُ الْإِسْلَامُ حُلَّةَ آمِنٍ

مِنْهُ وَلَا الْإِشْرَاكَ رِبْقَةَ هَائِبٍ

حَرَمُ الْهَدَى ، سُمْ الْعَدَى ، أُمْنِيَّة

لِمُسَالِمٍ ، وَمَنْيَّةٌ لِمَحَارِبٍ

وَقَفٌّ عَلَى عِلْمِ الثُّغُورِ ، مُقَارِبٌ

لِمُبَاعِدٍ ، وَمُبَاعِدٌ لِمُقَارِبٍ

ممدوح ابن درّاج قاضٍ عادل يعطي الحقَّ لأصحابه ويزيد ، فهو ناصر للإسلام ومحاربٌ لكل معاندٍ ، ولكل من ينصب العداة للإسلام ، ولذلك ساد الأمن والاطمئنان ، فقد شبه ممدوحه بالقفل المنيع الذي يمنع الأعداء من الدخول ؛ ولذلك ساد الأمن ، فقصده كل مسالم طالباً للاستقرار والأمان ، وهو - أيضاً - منية لكل محارب ومقاتل أراد الإساءة ، وبانتشار الأمن تقرّب إليه كل مباعد ، وأبعد عنه كل لئيم ، إذا الحرمان الذي يعيشه ابن درّاج جعله يلح إلحاحاً شديداً على طلب حياة الأمن والاستقرار ، فانعدامهما كان سبباً فاعلاً لإحساسه بالقلق والتوتر .

ولذلك فهو يرى في ممدوحه مبتغاه وأمله ، فالممدوح عنده يعني الاستقرار والأمان والعطاء ، فابن درّاج كان يعيش في مجتمع يضحج بالفتن والحروب والغدر ، ولهذا كان دائماً ما يضطر للرحيل بحثاً عن مكان أكثر أمناً ، ثم نرى التضاد ما زال حاضراً ، يقول : (مسالم - محارب) ، (مقارب - مباعد) والتكرار (مباعد مرتين ، ومقارب مرتين) والجناس في قوله : (أُمْنِيَّة - مَنْيَّة) .

فَمُرَاقِبُ الْإِسْلَامِ غَيْرُ مُرَاقِبٍ

وَمُصَاقِبِ الْأَعْدَاءِ غَيْرُ مُصَاقِبٍ^(١)

مُؤَفٍّ بِعَلَيَاءِ الثُّغُورِ لِرَغْبَةٍ

مِنْ رَاغِبٍ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْ رَاهِبٍ

تُضْحِي عَطَايَاهُ تَحِيَّةَ زَائِرٍ

وَتَبِيْتُ رَوْعَتُهُ نَجِيَّةَ هَارِبٍ

يَا مَنْ يُلَاقِي النَّازِلِينَ قِبَابَهُ

بِجَبِينِ مَوْهُوبٍ وَرَاحَةِ وَاهِبٍ

فممدوحه يراقب ويحمي الإسلام ، ويقا تل الأعداء الذين يقطنون في الأماكن القريبة، وغير القرية ، ويحمي الثغور ، ويعطي العطايا ، ويقابل النازلين عليه بعطايا وأموال طائلة .

ونجد - أيضاً - التّضاد في قوله : (مراقب - غير مراقب) ، (مصاقب - غير مصاقب) ، والجناس بين (رغبة - رهبة - راغب - راهب) .

وَإِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ طَاعِنٍ

وَإِذَا اسْتَحَرَّ الطَّعْنَ أَوَّلُ ضَارِبٍ

وَإِذَا تَوُوبُ الْخَيْلِ آخِرُ نَازِلٍ

وَإِذَا دَعَا الدَّاعِي فَأَوَّلُ رَاكِبٍ

(١) مصاقب : هو المكان القريب .

كُرِّمَتْ أَيَادِيكَ الَّتِي أَنْشَأْتَهَا
أَثْرَابَ كُلِّ مُؤْمَلٍ أَوْ رَاغِبٍ
مِنْ كُلِّ بَكْرٍ فِي يَمِينِكَ حُرَّةٍ
يَرْفُلْنَ بَيْنَ قَلَائِدٍ وَجَلَابِيبٍ
هَٰذِي لِأَوَّلِ خَاطِبٍ وَلِدَاتِهَا
يَهْتَفْنَ فِي الْأَفَاقِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ
وَيَجِلُّ قَدْرُكَ عَنْ وَلَادَةٍ (يَافِثِ)
أَوْ قَيْصَرٍ أَوْ عَنْ أَرْوَمٍ صَقَالِبِ

ويعود ابن درّاج - أيضاً - لصورة البطل ، فممدوحه إذا التقى
الجيشان فهو السابق في الضرب والطعن ، فهو مقدّام وشجاع ، ولذلك إذا
أريد ترويض خيل عنيد ، فهو آخر من ينزل عليه ، وإن دعي إلى امتطائه ،
فهو أول من يمتطيه ، ولم يكن ممدوحه شجاعاً فقط ، بل كريماً ، تميّز بالعطاء
والجود ، وحينما امتاز بهذه الصفات مدحه ابن درّاج بقصائد هتفت في الآفاق
والملاحظ أنه كرر (إذاً) أربع مرات ، مما أعطى الأبيات تناغماً موسيقياً
يخفف من حدة توتر الشاعر .

بَلْ أَنْتَ بَكْرُ غَمَامَةٍ مِنْ بَارِقٍ
 لَقَحَتْ بِهِ أَوْ صَعْدَةٍ مِنْ قَاضِبٍ^(١)
 قَبْلَتِكَ أَيْدِي هِمَّةٍ وَسِيَادَةٍ
 وَرَضَعْتَ دَرَّ مَكَارِمٍ وَمَوَاهِبٍ
 فِي عِزٍّ مَهْدٍ مَا اسْتَقَرَّ مَكَائُهُ
 إِلَّا بِقُرْبِ مَنَابِرٍ وَمَحَارِبٍ
 وَفُطِمْتَ يَوْمَ فُطِمْتَ فِي رَهْجِ الْوَعْيِ
 عِنْدَ التَّفَافِ كَتَائِبَ بِكَتَائِبٍ
 حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَرَاتِبًا
 تَرَكْتَ كَوَاكِبَهَا بِغَيْرِ مَرَاتِبٍ

هنا يشبهه ممدوحه ببكر غمامة ، والجامع بينهما العطاء والارتفاع وعلو المكانة ،
 ولذلك فهو صاحب هممة وسيادة ، وصاحب مكارم الأخلاق ، كما أنه خطيبٌ بارعٌ
 قريبٌ من المنابر ، شجاعٌ مقدامٌ في الحروب ، وقد فُطِمَ من الرضاع في الوعي حينما
 اشتدت المعركة والتحمت الكتائب بالكتائب ، وبهذه الصفات حلَّ أعلى المراتب ،
 فترك النجوم بغير مراتب .

ونقول : إن ابن درّاج عاجز عن توفير الأمن والاستقرار له ولأسرته ، ولهذا لجأ
 إلى إبراز صفات الممدوح ، والتي كدّس فيها كل الصفات التي يرجو ويأمل أن تتوفر في
 ممدوحه ، ولعل أهمها الشجاعة والعطاء ، فالشجاعة والإقدام والضرب على كل يد
 تعبت بأمن الدولة طريق لتحقيق الأمن والاستقرار الذي يصبو إليه ابن درّاج .

(١) لقحت : بمعنى حملت ، وقاضب : أي : الضرب أو القطع .

لوحة الثناء والأمل المرجو :

فَلَيْنُ طَلَبْتُ هُنَاكَ حَقًّا صَاعِدًا
فَلَأَنْتَ أَقْرَبُ مِنْ وَرِيدِ الطَّالِبِ
وَلَيْنُ وَهَبْتَ قَدْ وَهَبْتَ مَسَاعِيًا
أَصْبَحْنَ حَلِي مَآثِرِي وَمَنَاقِبِي
شِيمًا بِهَا حَلَيْتُ غُرَّ قَصَائِدِي
وَجَعَلْتُهُنَّ أَهْلًا لِكَوَاكِبِي
وَذَخَرْتُ لِلْأَزْمَانِ مِنْ حَسَنَاتِهَا
مِثْلَ الْقَلَائِدِ فِي نُحُورِ كَوَاعِبِ

فهو القريب المجيب له وهبه بالمآثر والمناقب والصفات الحسنة التي حلت وزينت قصائد الشاعر ، فأصبحت تلك القصائد كالهلال الذي يسطع بنوره ليضيئ الكواكب الأخرى ، فأصبحت تلك القصائد ذخراً للزمان بحسنها ، فهي مثل القلائد التي تتزين بها الكواعب .

وَلَأَشْفَيْنَ بِهَا سَقَامَ تَغْرُبِي
وَلَأَسُوْنَ بِهَا جِرَاحَ مَصَائِبِي
وَلَأَجْعَلَنَّ مِنْهَا تَمَائِمَ خَائِفِ
مِنْ طَائِفٍ أَوْ مِنْ رَجَاءٍ خَائِبِ
وَلَأَثْرُكَنَّ ثَنَاءَهَا وَجَزَاءَهَا

قُوتَ الْمُقِيمِ غَدًا وَزَادَ الرَّاكِبِ
وَسُرُورَ مُحْزُونٍ وَأُنْسَ مُغْرَبٍ
وَحُلِّيَّ أَوْتَارٍ وَرَوْضَةَ شَارِبٍ
وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَكْلَكَ جَوْهَرًا
لَا مَا قَمَشْتُ وَضَمَّ حَبْلُ الْحَاطِبِ^(١)

فبقصائده سيشفي سقام تغربه ، فيداوي جروحه ومصائبه وستصبح تلك القصائد توائم يعلقها الخائف لتحميه من خيبة الأمل ، وستكون القصائد سبباً لنيل عطاء ممدوحه ، فيصبح هذا العطاء زاداً لكل مقيم ولكل راحل ، وسيبعث السرور والسعادة لكل حزين ومهموم ، وأنس كل مغرب ، وروضة غناء لكل حزين ؛ ولذلك صاغ تلك الجواهر وجمعها وأحكم صياغتها . فاللوحة تحمل دلالات الأمل المرجو في المجد والاستقرار والأمان ، ومن المهم أن نعي أن ابن درّاج مازال يعيش في قلق لائب وتشتت لازب .

فتأرجح ابن درّاج بين الحديث عن ذاته المتمثلة في قصائده ، وبين صفات الممدوح تمثل حضوراً لحال التشتت والقلق ، ثم كثرة التضاد يجسد - أيضاً - حالة من أحوال التوتر ، كقوله : (هناك للبعيد - أقرب) ، (أشفي - سقام) ، (المقيم - الراكب) ، (سرور - محزون) ، (أنس - مغرب) . فالتضاد « يبرز من خلاله بعض ملامح واقعه المضطرب الذي يموج بالثنائيات والمتناقضات والصراعات بين محوري التجاذب ، كما يعبر عن نفسه القلقة المتوترة التي تفتقد إلى الحياة الآمنة ،

(١) قمشت : بمعنى جمعت والحاطب : الذي يجمع الخطب .

والعيش المستقر في ظل مجتمع شديد القلب والتغير»^(١)، وقصيدة أخرى تبرز سيطرة
الاغتراب والتشت الذي يكتظ به قلب ابن دراج .

الاغتراب : التشت والأرق في أحلى الأيام :

إِذَا شَتَّ كَانَ النَّجْمُ عِنْدَكَ شَاهِدِي
بِلَوْعَةٍ مُشْتَاقٍ وَمُقْلَةٍ سَاهِدِ
غَرِيبٌ كَسَاهُ الْبَيْنُ أَثْوَابَ مُدَنَفٍ
وَحَقَّتْ بِهِ الْأَشْجَانُ حَفَّ الْوَلَائِدِ
بَعِيدِ الصَّحَى مِنْ بَعْدِ إِلْفٍ مُفَارِقِ
طَوِيلِ الدُّجَى مِنْ طُولِ بَثٍّ مُعَاوِدِ
كَأَنَّ ظِلَامَ اللَّيْلِ سَدَّ طَرِيقَهُ
تَعَلَّقُ أَجْفَانِي بِرَغِي الْفَرَاقِدِ
وَقَدْ لَبَسَتْ آفَاقُهُ مِنْ دُجُونِهِ
حَدَادَ نَوَاعٍ لِلصَّبَاحِ فَوَاقِدِ
سَلِينِي عَنِ اللَّيْلِ التَّمَامِ قَطْعَتُهُ
بِزْفَرَةٍ مُشْتَاقٍ وَأَنْفَاسٍ وَاجِدِ
طَوَاكِ عَلَى طِيبِ الْكَرَى فَطَوَيْتُهُ
بِشَكْوَى سَلَى عَنْهُنَّ صُمِّ الْجَلَامِدِ

(١) قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية - عصر الطوائف ، د . أشرف محمود نجا ،

يُطَاوِلُ لَيْلُ التِّمِّ بَثِّي مُسْعِدًا
عَلَى ذِكْرِ إلفِ بَانَ غَيْرِ مُسَاعِدِ
وَيُوحِشُنِي مِلءُ السَّمَاءِ كَوَاكِبًا
إِلَى كَوَكَبٍ فِي مَغْرِبِ الْبَيْنِ وَاحِدِ
أَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الصُّبْحَ شِبْهَكَ قَبْلَهَا
فَاعْرِفَ مِنْهُ الْآنَ خُلْفَ الْمَوَاعِدِ
سَتَرَعَى وَفَاءَ الْعَهْدِ لِي إِنْ نَقَضْتَهُ
لَوَاعِجُ بَثٍّ فِي هَوَاكِ مُعَاهِدِي
وَيُوشِكُ أَنْ تُجْلَى وَجُوهُ مَطَالِبِي
بِأَزْهَرِ وَضَّاحٍ وَأَرْوَعَ مَاجِدِ
مَلِيكَ لِشَمْلِ الْمُلْكِ وَالْعِزِّ جَامِعِ
وَعَنْ حَرَمِ الْأَحْسَابِ وَالْمَجْدِ ذَائِدِ
أَغَرَّ سَمًا لِلدِّينِ فَاغْتَصَمَ الْهُدَى
بِهِ وَهَدَى الْمَعْرُوفَ سُبُلَ الْمَحَامِدِ
حَيَّا طَبَقَ الْآفَاقِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَمَا تُقْتَفَى فِي الْمَحَلِّ آثَارُ رَائِدِ
بِسَيْفٍ لِأَقْدَارِ الْحُتُوفِ مُسَاوِرِ
وَسَيِّبٍ لَتَهْتَانِ الْغُيُومِ مُجَاوِدِ
سَلِيلُ غُلَا تَنْمِيهِ أَنْسَابُ حَمِيرِ
إِلَى كُلِّ بَانَ لِلْمَفَاخِرِ شَائِدِ

هَمَامٌ لَهُ مِنْ فَخْرِ يَغْرُبَ فِي الْعُلَا
ذرى كُلِّ سَامِي السَّبَكِ رَاسِي الْقَوَاعِدِ
مُحَاتِدٌ عِزٌّ وَاعْتِلَاءٌ كَأَنَّمَا
سَنَا الشَّمْسُ مِنْ إِشْرَاقِ تِلْكَ الْمُحَاتِدِ
فَتَى أَدْعَنَ الدَّهْرُ الْأَبْيُّ لِحُكْمِهِ
فَأَضْحَى إِلَيْهِ مُلْقِيًا بِالْمَقَالِدِ
هُوَ الْبَدْرُ إِشْرَاقًا وَنُورًا وَسَيْفُهُ
مَدَى الدَّهْرِ مِنْهُ فِي مَحَلِّ عُطَارِدِ
تَدَاثَتْ مِنَ الْأَمَالِ أُنُوءَاءُ كَفِّهِ
وَبَرَزَ سَبْقًا فِي الْمَدَى الْمُتَبَاعِدِ
فَحَجَّبَ مِنْهُ الْمَلِكُ أَكْرَمَ حَاجِبِ
وَقَادَ جُنُودَ النَّصْرِ أَكْرَمَ قَائِدِ
كَتَائِبُ تَوْحِيدِ الْإِلَهِ شِعَارُهَا
وَمَا يَوْمُ خِزْيِ الْكُفْرِ فِيهَا بِوَاحِدِ
إِذَا يَمَمْتَ مِنْهُ حِمَى فَكَأَنَّمَا
أَرَبَّتْ عَلَيْهِ مُصْعِقَاتُ الرُّوَاعِدِ
لَئِنْ حَلَّ دَارَ الْمُلْكِ مِنْ بَعْدِ قَافِلًا
لَقَدْ شَدَّ أَقْصَاهَا بِرَأْيِ مُجَاهِدِ
فَشَاهَدَ عَنْهُ النَّصْرُ إِنْ لَمْ يُشَاهِدِ
وَجَالَدَ عَنْهُ الصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَجَالِدِ

رَعَى اللهُ لِلْمَنْصُورِ نُصْرَةَ دِينِهِ
فَجَازَاهُ خَيْرَ ابْنِ تَلَا خَيْرَ وَالِدِ
وَأَيَّدَ هَذَا الْمُلْكَ وَالِدَيْنِ مِنْهُمَا
بِأَيْمَنِ يُمْنِي قَدْ سَاعَدْتُ خَيْرَ سَاعِدِ
فِيَا جَامِعَ الْإِسْلَامِ شَمْلًا وَتَارِكًا
دِيَارَ الْأَعَادِي مُوحِشَاتِ الْمَعَاهِدِ
وَمُقْتَحِمِ الْأَهْوَالِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى
كَمَا بَادَرَ الظَّمَانَ عَذْبَ الْمَوَارِدِ
لِيَهْنِكَ أَنَّ الْعِيدَ وَافَاكَ قَادِمًا
بِأَوْشَكِ بَادٍ لِلْسُرُورِ وَعَائِدِ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى
وَسَاعَدَ لِلْبُشْرَى لِأَعْدَلِ شَاهِدِ
فَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ أَغْيَادَ فَضْلِكُمْ
لِكُلِّ مُوَالٍ خَالِصِ الشُّكْرِ حَامِدِ
وَلَا زِلْتُمْ مَأْوَى غَرِيبٍ وَآمِلِ
وَمَفْزَعِ مَلْهُوفٍ وَفُرْصَةِ قَاصِدِ^(١)

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٤٤ - ٣٤٦ .

لوحة : لوعة الحنين وبث الشكوى :

إِذَا شَتَّ كَانَ النَّجْمُ عِنْدَكَ شَاهِدِي

بِلَوْعَةٍ مُشْتَاقٍ وَمُقْلَةٍ سَاهِدِ

الخطاب موجه إلى زوجته ، فإن شاءت في أي لحظة من اللحظات أن تنظر إلى النجم ، فتراه نجماً ازداد في الإضاءة والإنارة بما به من لوعة الشوق وقلة السهد ، فهو مثل النجم في اللوعة والشوق .

ففي الاستهلال الأولى للقصيدة نراها مفعمة بالشوق والحنين إلى الزوجة ، وقد يخطر سؤال لدى الباحث لما بدأ الشاعر الحديث عن الشوق والحنين ، هل هو مجرد تقليد ، أم أراد شد انتباه ممدوحه ؟

لعل في طرح هذه الأسئلة ما يغني عن الجواب ، إذا علم أن المناسبة التي قيلت فيها القصيدة هي (العيد) فالعيد مناسبة عظيمة يجتمع فيه الأحباب ، وتلتقي فيه الأنساب بعد فراق وغياب طال ، ولكن ابن درّاج بالرغم ما في المناسبة من اجتماع والتقاء يقول :

غَرِيبٌ كَسَاهُ الْبَيْنُ أَثْوَابَ مُدَنَّفٍ

وَحَفَّتْ بِهِ الْأَشْجَانُ حَفَّ الْوَلَائِدِ

هو غريبٌ وحيدٌ منفردٌ لا اجتماع ولا أحباب ، وإنما لبس أثواب الممرض ، وأحاطت به الأحزان والأشجان ، كما يحف ويجمع حول الولائد ، فمتى شعر بهذا الإحساس ؟

بَعِيدِ الضَّحَى مِنْ بَعْدِ إِلْفٍ مُفَارِقِ

طَوِيلِ الدُّجَى مِنْ طُولِ بَثِّ مُعَاوِدِ

بعيد الضحى عاودته الأشجان والألم فشعر بطول الليل ، فعاوده القلق والأرق ،
فهذه صورة عكسية لما يحدث في العيد من اجتماع ولقاء ، ولكن ابن درّاج لم يشعر
بالسعادة في هذا العيد، والعلة ظاهرة، فالشاعر يشعر بالغربة والوحدة، لا لقاء
ولا أسرة، فإذا كان العيد عند الناس فرحة، فعند ابن درّاج ترحة، إذا الشاعر يقدم لنا
صورتين متناقضتين .

الأولى : ابتهاج الناس في يوم العيد بلقاء أحبابهم ، والتئام شملهم بالرغم أن
الشاعر لم يصرح بهذا الكلام ، وإنما أولّناه من كلمة (عيد) .

الثانية : اكتتابه وقلقه في يوم العيد ؛ لتشتت شمله في تلك الأيام وضخامة
همومه، ولذلك قال : (بعد إلف مفارق) مفارق على وزن مفاعل، وهو من صيغ
المبالغة ، ولهذا لا بدّ من بثّ الشكوى علّه يخفف من همه وحزنه .

كَأَنَّ ظِلَامَ اللَّيْلِ سَدَّ طَرِيقَهُ

تَعَلَّقُ أَجْفَانِي بِرَعْيِ الْفَرَاقِ

فكان ظلام الليل وسواده الدامس بمثابة الحاجز الذي حجزه ومنعه من مواصلة
طريقه . فالشاعر يوضّح شدّة عجزه ، ولذلك فضّل إطالة النظر إلى النجوم ؛ ولذلك
قال : (تَعَلَّقُ) وما فيه من دلالات القوة وطول النظر ، ثم كلمة (برعى) وما فيها
من دلالات المتابعة الدقيقة لهذه النجوم ، ولفظة (سَدَّ) وما فيها من قوة ومنعة ، كما
تنجلي حقيقة ابن درّاج القلقة المتوترة والتي تتدفق في قوله : (ظَلَامَ اللَّيْلِ) وما فيه من
سوداوية وظلمة ورهبة وخوف .

وَقَدْ لَبَسَتْ آفَاقُهُ مِنْ دُجُونِهِ^(١)

حَدَادَ نَوَاعٍ^(٢) لِلصَّبَاحِ فَوَاقِدِ

صورة الخوف والقلق في ظلام الليل مازال متصلاً بل يَنْضَافُ إليه - أيضاً -
ظلام الغيوم في الليلة الممطرة ، فسواد الليل مع ظلمة الغيوم في الليل مع الإحساس
بالقلق والخوف تظهر صورة بالغة في السواد ، فكانت هذه الظلمة القائمة بمثابة السجّان
الذي يمنعه من متابعة سيره .

سَلِينِي عَنِ اللَّيْلِ الثَّمَامِ قَطْعَتُهُ

بِزَفْرَةٍ مُشْتَاكِ وَأَنْفَاسٍ وَاجِدِ

ثم يطلب منها أن تسأله كيف قطع ذلك الليل بسواده الدامس ، فقد قطعه بزفرة
شوق وحزن .

طَوَاكِ عَلَى طِيبِ الْكَرَى فَطَوَيْتُهُ

بِشَكْوَى سَلِي عَنْهُنَّ صُمِّ الْجَلَامِدِ

فبينما هي عزمت على طيب الكرى عزم هو على بث الشكوى التي صُم عنها ،
كالصخرة التي لا ينفذ الماء فيها .

يُطَاوِلُ لَيْلُ التَّمِّ بَثِّي مُسْعِدًا

عَلَى ذِكْرِ إلفِ بَانَ غَيْرِ مُسَاعِدِ

وَيُوحِشُنِي مِلْءُ السَّمَاءِ كَوَاكِبًا

إِلَى كَوَكَبٍ فِي مَغْرِبِ الْبَيْنِ وَاحِدِ

(١) دجون : الغيم في اليوم الممطر .

(٢) حداد : ، نواع : العطش والجوع .

فَقُولِهِ : (يُطَاوِلُ) نشعر فيه من مدٍّ وشِدَّةٍ في الطول ، وكذلك قوله : (غَيْرَ مُسَاعِدٍ) فيه شدة الإعراض ، والملاحظ في الأبيات السابقة استمرار صورة الليل بسواده، وطوله ومخافة النَّوم له ، في حين غيره يهناون بنومهم . هذه الصورة تنجلي فيها دلالات القلق والحيرة .

أَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الصُّبْحَ شِبْهَكَ قَبْلَهَا

فَأَعْرِفَ مِنْهُ الْآنَ خُلْفَ الْمَوَاعِدِ

الصبح مثل محبوبته خالف للوعد ؛ لأنه شعر بطول الليل الذي يرى عدم انقضائه .

سَتَرَعَى وَفَاءَ الْعَهْدِ إِنْ نَقَضْتَهُ

لَوَاعِجُ بَثٍّ فِي هَوَاكِ مُعَاهِدِي

وَيُوشِكُ أَنْ تُجْلَى وَجْوهُ مَطَالِبِي

بِأَزْهَرِ وَضَّاحٍ وَأَرْوَعَ مَاجِدٍ^(١)

وإن نقضه العهد له فسيرعاه لواعج الشوق والحنين التي سيبيثها في معاهد أحبابه، ويوقظ الأمل في نفسه فيرى اقتراب موعد إجابة مطالبه ، وسيحلُّ عند رجل سخي كريم . إذا تتجلى لنا في هذه اللوحة صورة الأمل ، ولهذا لا بد من توفر أخلاق عظيمة لدى هذا الممدوح .

(١) أزهَر : اللبن ساحة يجلب ، وهو الوضع ، وماجد : بمعنى الكرم والسخاء .

لوحة المديح وإبراز صفات الممدوح :

مَلِكٍ لِّشَمْلِ الْمَلِكِ وَالْعِزِّ جَامِعٍ
وَعَنْ حَرَمِ الْأَحْسَابِ وَالْمَجْدِ ذَائِدٍ
أَغْرَ سَمًا لِلدِّينِ فَاعْتَصَمَ الْهُدَى
بِهِ وَهَدَى الْمَعْرُوفَ سُبُلَ الْمَحَامِدِ
حَيًّا طَبَقَ الْآفَاقِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَمَا تُقْتَفَى فِي الْمَحَلِّ آثَارُ رَائِدٍ
بِسَيْفٍ لِأَقْدَارِ الْحُتُوفِ مُسَاوِرٍ
وَسَيْبٍ لِّتَهْتَانِ الْغُيُومِ مُجَاوِدٍ
سَلِيلُ غُلًّا تَنْمِيهِ أَنْسَابُ حَمِيرٍ
إِلَى كُلِّ بَانٍ لِلْمَفَاخِرِ شَائِدٍ
هَمَامٌ لَهُ مِنْ فَخْرِ يَعْرُبَ فِي الْعُلَا
ذَرَى كُلِّ سَامِي السَّبَكِ رَاسِي الْقَوَاعِدِ

فممدوحه ملك للشمل ؛ هو قادر على جمع شمله ، الذي حكم عليه بالافتراق والانقسام ، كما أنه ملك العز والسلطان وجمع شمل المملكة ، وهو - أيضًا - جامعًا لكل الأحساب والأنساب ، فلماذا بدأ ابن درّاج بوصف ممدوحه بهذه الصفات ؟ (ملك لشمل الملك والعز - جامع الأحساب - صاحب المجد والرفعة) ؟ هل هو مجرد تقليد تعود الشاعر العربي أو الأندلسي بالذات مدح ممدوحه بها ؟ أم أن هناك دوافع نفسية وراء هذا المديح ؟

المعروف أن ابن درّاج يفتقر إلى هذه الأمور فهو في حاجة ماسة لجمع شمله وإكرامه والذود عنه ، إذًا الرغبة الملحة لشاعرنا هي التي دفعته دفعًا قويًا

للبدء بتلك الصفات ، ولا نغفل في أن المناسبة التي قيلت فيها القصيدة (عيد الأضحى) ولم تقف هذه الرغبة عند هذه الصفات فقط ، فممدوحه ناصر الدين ، ولهذا اعتصم وتمسك الهدى به ، وليس هو من اعتصم بالهدى ، ولذلك فهو الهادي إلى المعروف وطرق المحامد ومحاسن الأخلاق ، فطبق هذه المحامد في آفاق البلاد شرقاً وغرباً ، حتى لأنك لتجد آثار تلك المحاسن في كل بقعة من بقاع الأرض ، وقد استطاع القيام بذلك لشجاعته وبسالته وكرمه المجزل ، وهذا ليس بغريب عليه ، فهو سليل أسرة عريقة تتصل جذورها ونسبها بجمير التي يفخر بها كل شائد ، كما أنه من يعرب التي يفخر بها ، فهي التي قعدت قواعد الأخلاق والمكارم والعلا فهم أصل العز ، وبذلك علا شأنهم ، كما ارتفعت الشمس عن غيرها في أساس الإشراق والنور ، فهنا تشبيهه .

فَتَى أَدْعَنَ الدَّهْرُ الْأَبَى لِحُكْمِهِ

فَأَضْحَى إِلَيْهِ مُلْقِيًا بِالْمَقَالِدِ

هُوَ الْبَدْرُ إِشْرَاقًا وَنُورًا وَسِيفُهُ

مَدَى الدَّهْرِ مِنْهُ فِي مَحَلِّ عُطَارِدِ

تَدَانَتْ مِنَ الْأَمَالِ أُنُوءُ كَفِّهِ

وَبَرَزَ سَبْقًا فِي الْمَدَى الْمُتَبَاعِدِ

فَحَجَّبَ مِنْهُ الْمَلِكُ أَكْرَمَ حَاجِبِ

وَقَادَ جُنُودَ النَّصْرِ أَكْرَمَ قَائِدِ

كَتَائِبُ تَوْحِيدِ الْإِلَهِ شِعَارُهَا

وَمَا يَوْمُ خَزْيِ الْكُفْرِ فِيهَا بِوَاحِدِ

إِذَا يَمَّمْتَ مِنْهُ حِمَىً فَكَاثِمَا
أَرَبَّتْ عَلَيْهِ مُصْعِقَاتُ الرِّوَاعِدِ
لَيْتَ حَلَّ دَارِ الْمُلْكِ مِنْ بَعْدُ قَافِلًا
لَقَدْ شَدَّ أَقْصَاهَا بِرَأْيٍ مُجَاهِدِ
فَشَاهَدَ عَنْهُ النَّصْرُ إِنْ لَمْ يُشَاهِدِ
وَجَالَدَ عَنْهُ الصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَجَالَدِ

ممدوحه (فتى) ، « والفتى عند العربي يجمع القدرة على الرأي والإقدام ،
ويجتمع فيه البأس والمروءة »^(١) .
والفتوة صفتان : (هما السخاء وحب القرى من ناحية ، والشجاعة من ناحية
أخرى ، وكلتاها ينبغي أن تبلغا حد الإفراط ، فالأولى حتى الإملاق ، والثانية حتى
الجود بالنفس »^(٢) .

ولذا فهو فتى شجاع أخضع الدهر القوي الأبى بحكمته ورجاحة عقله ،
فأضحى الدهر خاضعاً ذليلاً له . إذا الصورة تشير لنا بومضات خفيفة نلمس فيها
خيطة من خيوط الاغتراب ، فابن درّاج يرى أن الدهر هو الذي دفعه نحو الغربة
والاغتراب ، فشعر بالقلق وعدم الاستقرار ، ففي اللوحة السابقة يرى ابن درّاج أن
الليل هو الذي منعه من متابعة سيره ، هذا الإحساس المؤلم جعله يشعر بنشوة الانتصار
والسعادة حينما يرى الدهر خاضعاً ذليلاً منكسراً ، كما أذله وأخضعه .

ثم إن ممدوحه بدر يزداد إشراقاً ورفعة وتوهجاً ، وبسيفه وشجاعته الباسلة أبعد

(١) بنية التراث الروحي الاجتماعي في مراثية طليطلة ، حسين خرويش ، ص ٨٨ ، المجلة العربية للعلوم
الإنسانية، دمشق ، عدد ٦٨ ، سنة ١٩٩٩ م .

(٢) المنتقى من دراسات المستشرقين فرانز تيشنر ، جمعها صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

الدهر وأقصاه وغرّبه حتى وضعه محل عطارد ، وحينما فعل ما فعل بالدهر من الإقصاء والإبعاد تدانت وقربت منه الآمال فقصده البعيد ، ثم ممدوحه أكرم حاجب ، وهو قائد لجنود النصر التي كان شعارها توحيد الله ومحاربة الكفر ، ولا نغفل هنا صيغة المبالغة في قوله : (أكرم) مبالغة في وصفه بالكرم والعطاء . ممدوح ابن درّاج حاكم شجاع استطاع أن يوطد أركان دولته بدهائه وصبره وتجلده ، وهو كريم جامعٌ لشملٍ سديد الرأي صاحب مجد وسيادة ، فهذه الصفات إذا اجتمعت في حاكم أمة ظفرت هذه الأمة بالأمن والاستقرار ، وهذا ما يصبو ويحلم به ابن درّاج ، ولهذا نسمع نبرة جمع الشمل والإيواء ما زال الشاعر يلحنها بقيثارته ، يقول :

رَعَى اللهُ لِلْمَنْصُورِ نُصْرَةَ دِينِهِ
فَجَازَاهُ خَيْرَ ابْنِ تَلَا خَيْرَ وَالِدِ
وَأَيَّدَ هَذَا الْمُلْكَ وَالِدَيْنِ مِنْهُمَا
بِأَيْمَنِ يُمْنَى قَدْ سَاعَدَتْ خَيْرَ سَاعِدِ
فِيَا جَامِعَ الْإِسْلَامِ شَمْلًا وَتَارِكًا
دِيَارَ الْأَعَادِي مُوحِشَاتِ الْمَعَاهِدِ
وَمُقْتَحِمِ الْأَهْوَالِ فِي حُومَةِ الْوَعَى
كَمَا بَادَرَ الظَّمَانَ عَذْبَ الْمَوَارِدِ
لِيَهْنِكَ أَنَّ الْعِيدَ وَافَاكَ قَادِمًا
بِأَوْشَاكَ بَادٍ لِلْسُرُورِ وَعَائِدِ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى
وَسَاعَدَ لِلْبُشْرَى لِأَعْدَلِ شَاهِدِ

فَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ أَغْيَادَ فَضْلِكُمْ

لِكُلِّ مُوَالٍ خَالِصِ الشُّكْرِ حَامِدِ

وَلَا زِلْتُمْ مَأْوَى غَرِيبٍ وَآمِلِ

وَمَفْزَعِ مَلْهُوفٍ وَفُرْصَةِ قَاصِدِ

يدعو الله أن يحفظ المنصور ويجزيه خير الجزاء لنصرته للدين ، فهو ابن خير ووالده رجل خير ، ويدعو له بأن يمدّه باليمن وبخير مساعد ومعاون ، فهو جامع لشمل الإسلام وتارك ديار الكفر موحشة ، كما أنه مقتحم الأهوال وسباق لسقاية الظمآن ، وهو الذي حرم من الماء العذب بعد طول معاناة ، فحق له الآن أن يستلذ ويروي عطشه من ماء عذب لكل شارب ووارد .

فلتهنأ (لمدوحه) ولتسعد بقدوم العيد ، ولتبشر بالخير والمنى ، فالأيام مازالت أعياد بفضلكم الذي عمّ الأرجاء ، فلکم خالص الشكر لكل من أراد الثناء والشكر ، فأنتم مازلتم - أيضاً - مأوىً لكل غريب قد تشرّد في الآفاق، وأمل كل خائف ومفزوع ، ولعلّ إحساس ابن درّاج بالاغتراب بدا واضحاً في هذه القصيدة ، فهو يحن إلى أسرته التي تمزق شملها في أجلّ المناسبات التي يتعاود فيها الناس الزيارات والاجتماعات ؛ لقضاء أسعد اللحظات ، أمّا ابن درّاج لم يشعر بالسعادة لتشتت أسرته ؛ ولذلك حاول الشاعر إبراز رغبته في جمع شمله ، فمدح ومدوحه بتلك الصفات ، فهو مأوى كل غريب تغرب عن وطنه ، وجامع للشمل .

وقصيدة أخرى تجسد الضياع والتهيه لدى الشاعر .

الاعتراب – الشعور بالضياع وفقدان الهدف :

تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ
كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ الْمُجِيبِ
يَهِيمُ إِلَيْكَ بِهِمْ شُجَاعِ
وَيَجْنُبُنْ عَنْكَ بِسْتَرِ هُيُوبِ
وَيَقْتَادُهُ مِنْكَ صِدْقُ الْيَقِينِ
فَيْرْتَابُ مِنْهُ بَظَنٍّ كَذُوبِ
أَيُّذُنْ سَمِعَكَ لِي مِنْ بَعِيدِ
وَلَحْظُكَ قَدْ رَأَيْتَنِي مِنْ قَرِيبِ
وَكَيْفَ بِأَشْجَانِ قَلْبٍ عَزِيزِ
فَيَسْعِدُهُ لَهُوَ قَلْبٍ طَرُوبِ
فَنَادَاكَ مِنْ غَمَرَاتِ التَّنَاسِي
وَنَاجَاكَ فِي ظُلُمَاتِ الْخُطُوبِ
بِبَالِغَةٍ لِلتَّرَاقِي حَادِثُهَا
إِلَيْكَ وَصَاةُ الْقَرِيبِ الْمُجِيبِ
بِمَا خُطَّ لِلجَارِ وَابْنِ السَّبِيلِ
وَأَوْجَبَ لِلْمُسْتَضَامِ الْغَرِيبِ

وَمَا قَدْ حَبَّكَ الرِّضَا مِنْ مَلِكٍ
بَلَاكَ بِلَاءَ الْحُسَامِ الرَّسُوبِ
فَحَلَّاكَ إِكْرَامَهُ فِي الْعِوْنِ
لِتَقْدُمَ أَعْلَامَهُ فِي الْحُرُوبِ
فَأَرْعَيْتَهُ صِدْقَ حُرِّ شُكُورِ
تَسْرَبَلَ إِخْلَاصَ عَبْدٍ مَنِيبِ
وَأَبْلَيْتَهُ نُصْحَ جَيْبِ سَلِيمِ
وَفِي الضَّمَانِ بَنَصْحِ الْجُيُوبِ
تَقْوُدُ إِلَيْهِ رَجَاءَ الْبَعِيدِ
وَتَتَلَوُ عَلَيْهِ ثَنَاءَ الْقَرِيبِ
وَتَلْقَى وَجُوهَ الْمُحِبِّينَ عَنْهُ
بِبَشْرِ الْمُحِبِّ وَوَصْلِ الْحَيِّبِ
وَكَمْ مَنَبَرٍ لِلْعُلَا قَدْ بَنَاهُ
لَهُ اللَّهُ مِنْ مُعْظِمَاتِ الصَّلِيبِ
حَمَيْتَ ذُرَاهُ بِأَنْفِ حَمِيٍّ
وَرَحَّبَ ذُرَاهُ بِصَدْرِ رَحِيبِ
وَصَاقَ بِمَنْ أَسْمَعَ الضَّيِّمَ عَنْهُ
فِي الْخَطِيبِ صَرِيحِ الْخُطُوبِ
قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بَعِيدِ
بَعِيدٌ عَلَى ذِكْرِ مَوْلى قَرِيبِ

وَقَدْ أَطْلَعَ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ عَنْهُ

كَوَآكِبَ تَهْوِي لِغَيْرِ الْغُرُوبِ

نُجُومًا أَضَاءَتْ بِفَضْلِ الْخَطَّابِ

لَهُ الدَّهْرُ إِلَّا مَكَانَ الْخَطِيبِ

وَعَنْهُ تَنَكَّبَتْ قَوْسَ النَّضَالِ

فَرَشَتْ لَهَا كُلَّ سَهْمٍ مُصِيبِ

فَأَوْتَرَتْهَا لِقُلُوبِ الْعُدَاةِ

وَأَغْرَقَتْ فِيهَا لِرَمْيِ الْغُيُوبِ

فَمَا لَكَ عَنْ غَرَضٍ كَالصَّبَّاحِ

تَجَلَّلَ أَفْقَ الصَّبَا وَالْجُنُوبِ

يُضَاحِكُ مِنْ رَوْضِ فِكْرِي بِذِكْرِي

أَزَاهِيرَ نُورٍ بِنُورٍ مَشُوبِ

فَلَلَهُ إِشْرَاقُ ذَاكَ الشَّبَابِ

تَأَلَّقَ فِي حُسْنِ ذَاكَ الْمَشِيبِ

فَفَاحَ تَضَوُّعُ ذَا مِنْ ضَيَاعِي

كَمَا لَاحَ مَطْلَعُ ذَا مِنْ غُرُوبِي

فِتْلِكَ نَقَائِضُ سَعْيِي وَسَعْدِي

يُنَادِينِ : يَا لِلْعَجَابِ الْعَجِيبِ !

وَتِلْكَ بَصَائِعُ نَشْرِي وَنَظْمِي

ضَوَارِبُ فِي الْأَرْضِ : هَلْ مِنْ ضَرِيبِ ؟

وَيَا لِلْخَلَائِقِ هَلْ مِنْ مُسَاوٍ
 وَيَا لِلدَّوَّائِينَ هَلْ مِنْ مُجِيبٍ ؟
 وَيَا نَشَأَتِي عَبْدِ شَمْسٍ (١)
 وَمَنْ أَعْقَبَتْ هَاشِمٌ مِنْ عَقِيبِ
 وَمَا خَطُّهُ أَثَرٌ عَنْ أَمِيرِ
 وَسَطَرُهُ أَرَبٌ عَنْ أَرِيبِ
 فَهَلْ فِي الْوَرَى غَيْرُ سَمْعٍ شَهِيدِ
 يُلَبِّيهِ كُلُّ فُؤَادٍ لَيْبِ
 وَغَيْرُ لِسَانٍ صَدُوقِ الْبَيَانِ
 يَقْرُّ لَهُ كُلُّ زَعَمٍ كَذُوبِ
 بَأَنْ لَمْ يَفْزَ قَبْلَهَا مُلْكُ مُلْكِ
 بِقَدَحٍ كَقَدَحِ مَلِكِي (تُجِيبِ)
 فَأَنْجِبْ بِمَوْرُوثِهِ مِنْ مَلِكِ
 وَأَسْعِدْ بِوَارِثِهِ مِنْ نَجِيبِ
 وَأَعْجِبْ بِأَوْفَى مَلِكٍ أَضَاعَ
 مِنَ الذِّكْرِ وَالْفَخْرِ أَوْفَى نَصِيبِ !
 لِوَاءِ ثَنَاءٍ كَبَرَقَ الْعَمَامِ

(١) يقول محمود مكي : « هكذا ورد الشطر ، وواضح أنه بهذه الصورة مختل الوزن ، ناقص المعنى ، ولعل
 صحته أن يكون : (ويا نشأتي (في ذرا) عبد شمس » ، ص ٣٩٨ .

يُهْلِلُ إِلَيْهِ لَوَاءُ الْحُرُوبِ
وَمَا قَدْ كَسَا كُلَّ بَرٍّ وَبَحْرٍ
بِذِكْرَاهُ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبِ
حَدَائِقِ مِنْ زَهْرَاتِ الْعُقُولِ
تَفُوحُ إِلَى ثَمَرَاتِ الْقُلُوبِ
تَغْنَى الْعَذَارَى بِهَا فِي الْخُدُورِ
وَتُحْدِي الْمَهَارَى بِهَا فِي السُّهُوبِ
وَقَدْ أَيْنَعَ الْحَزْنَ وَالسَّهْلَ مِنْهَا
بِشَرْبِ ذُنُوبِ مَحَا مِنْ ذُنُوبِي
بَلَاغُ حَيَاةٍ وَأَحْجَمْتُ عَنْهُ
لَعُودَ الْخِبَاءِ وَلِلْعَنَدَلِيبِ
كَمَا ابْتَرَّ صَيْدَ الْعُقَابِ الذُّبَابُ
وَصَادَ التَّعَامَ حَسِيرُ الدَّبِيبِ
وَذُلِّي أَوْدَعَ هَذَا وَهَذَا
أَظْفِيرَ لَيْثٍ وَأَيَّابَ ذِيبِ
مَظَالِمُ أَظْلَمَ حَقُّ الْمَحِقِّ
بِهِنَّ وَأَشْرَقَ رَيْبُ الْمَرِيبِ
وَأَنْتَ عَلَيْهَا شَهِيدُ الْعِيَانِ
وَحُكْمُكَ فِيهَا صَرِيحُ الْوُجُوبِ

وَوَعْدُكَ الْزَمَنِي مِنْ ذُرَاكَ
وَصَالَ الْمَحَبِّ وَرَعِي الرَّقِيبِ
فَحِينَ افْتَحْتَ بِنَصْرِ عَزِيزٍ
يُيَسِّرُ عَنْكَ بِفَتْحٍ قَرِيبِ
تَرْقَيْتَ فِي هَضْبَةِ الْعِزِّ عَنِّي
وَأَهْوَيْتَ بِي لِمَهِيلٍ كَثِيبِ
وَلَقَّيْتُكَ دُونِي غُصُونُ النَّعِيمِ
وَأَسْلَمْتُ ضَاحِي مَرْعَى جَدِيبِ
فَمَلَّيْتُهَا جَنَّةً لَا يَزَالُ
يَمِيدُ بِهَا كُلُّ عَيْشٍ خَصِيبِ
وَلَا بَرَحَتْهَا طُيُورُ السُّرُورِ
يَمِيدُ بِهَا كُلُّ غُصْنٍ رَطِيبِ
وَإِنْ شَاقَّنِي مِنْ صَبَاها نَسِيمٌ
يُفَرِّجُ عَنِّي بِرُوحِ الْهُيُوبِ
وَأَظْمَيْتُ مِنْهَا إِلَى رَشْفِ مَاءٍ
يُمَثِّلُ لِي فِيهِ رَيْقُ الْحَبِيبِ
وَكَمْ سُمْتُ أَوْرَاقَهَا فِي الرِّيحِ
لَأَخْصِفَ فِيهَا لَعَارَ سَلِيبِ
وَأَمْسَحُهَا فِي مَآقِي جُفُونِ
دَوَامِي الْقَذَى قَرَحَاتِ الْغُرُوبِ

بِمَا فَتَّ فِيهِنَّ رَمَى الْعُدَاةِ
وَمَا غَضَّ مِنْهُنَّ ذُلُّ الْعَرِيبِ
فَإِنْ رَمَدَتْ فَقَلِيلٌ لَعَيْنِ
يُقَلِّبُهَا شَجْوُ قَلْبٍ كَيْبِ
وَإِنْ قَدَحَتْ بِالْحَشَا فِي الْحَشَا
فَزُنْدًا ضِرَامٍ لِنَارِ الْكُرُوبِ
تُوجِّجُهَا حَسَرَاتُ النَّاسِي
وَتَنْفُخُهَا زَفَرَاتُ النَّحِيبِ
وَكُلًّا وَسَعَتْ بِصَبْرِ جَمِيلِ
وَبَعْضًا كَفَفَتْ بِدَمْعِ سَكُوبِ
لَأَوْقَدَ مِنْهَا مَصَابِيحَ جَمْرِ
تُنِيرُ إِلَيْكَ بِسِرِّ الْغُيُوبِ
وَلَوْ غَابَ عِلْمُكَ عَنْ بَحْرِ ظَمْءٍ
وَمَا غِيضَ مِنْ شُرْبِهِ فِي الشُّرُوبِ
لَأَغْنَاكَ عَنْ شُبْهَةِ الشَّكِّ فِيهِ
ذُبُولُ الْجَنَى فِي ذُبُولِ الْقَضِيبِ
وَحَسْبِي لَهَا مِنْكَ حُرٌّ كَرِيمٍ
وَفِي الشُّهُودِ أَمِينُ الْمَغِيبِ
وَأَرْجَى عَلِيلٍ لِبُرْءِ السَّقَامِ
عَلِيلٌ تَيَقَّنُ يُمْنُ الطَّيِّبِ

وَحُسْنُ الظُّنُونِ لَصِدْقِ الْيَقِينِ
نَسِيبٌ وَلَا كَالنَّسِيبِ الْحَسِيبِ
فَإِنْ تُنْهَ عَنِّي فَأُولَى مُجَابٍ
دَعَا لِلْمَكَارِمِ أَهْدَى مُجِيبِ
وَكُنْتُ بِذَلِكَ أَحْظَى مُثَابٍ
لَهُ مِنْ ثَنَائِي أَوْفَى مُثِيبِ
وَمَنْ يَمْنَعِ الضَّيْفَ رَحْبَ الْفَنَاءِ
فَقَدْ قَادَهُ لِلْفَضَاءِ الرَّحِيبِ^(١)

(١) ديوان ابن درّاج ، تحقيق : محمود مكّي ، من ص ٣٩٦ إلى ٤٠٠ .

لوحة الأرق (التجاهل) :

تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ

كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ الْمُجِيبِ

الشاعر لم يبدأ قصيدته بمقدمة طلبية ، بل بدأ بالحديث بقوله : (تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ) فأيقظ ذهن السامع وهيئته ليتفاعل معه ، وي طرح على نفسه أسئلة : أسمع ماذا ؟ وما هي هذه الدعوة التي كثرت وتكررت ، وقلَّ من يجيبون له ؟ ولماذا يطلب الشاعر الاستماع له ؟

وأنَّ هذه البداية توضح إحساس الشاعر بالضياع والحرمان ، أو مدى تملك اليأس فيه ، فابن درَّاج طرق أبواباً كثيرة ، وسمع لصرخاته آذان عظيمة ، ولكنها وصَّدت أبوابها ، وصمَّت آذانها ؛ ولذلك قال : (تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ) ، فمن خلال هذه الجملة نشعر بنبرة حزينة يائسة محرومة حتى من السماع لها بما تحول به أفكاره ، وبما يشعر من قلة الحيلة ، وضيق المعيشة ، وطول اغتراب ، فعدم السماع لابن درَّاج وصم الآذان عنه هو طريق نحو الغربة والاغتراب ؛ ولذلك قال : (نَاءٍ غَرِيبٍ) فهو غريب ذليل منكسر ، زد على ذلك (كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ الْمُجِيبِ) ، فقوله : (قَلِيلِ الْمُجِيبِ) هم من كان يؤمل منهم الأمن والحماية والإجابة ، فكانوا أقل من القليل ، وهذا ما كان يبعث له القلق والتوتر ، فانعكس هذا الإحساس في الألفاظ التي استخدمها كالتضاد حينما قال : (كثير الدعاء ، قليل المجيب) .

يَهِيمُ إِلَيْكَ بِهِمْ شَجَاعٍ

وَيَجْنُبُنْ عَنْكَ بِسْتَرٍ هَيُوبٍ

فِيهِمْ وَيُقْبَلُ عَلَيْهِ ، ولكنه متردد وخائف ، ولكن الهم الذي يحمله بين ضلوعه هم شجاع قوي . وهذا ما كان يبعث له القلق والأرق الذي ظهر - أيضاً - في ألفاظه ، فترى التضاد في قوله : (شجاع - جبان) ، والمجانسة في قوله : (يهيم - هم) .

وَيَقْتَادُهُ مِنْكَ صِدْقُ الْيَقِينِ

فَيَرْتَابُ مِنْهُ بِظَنِّ كَذُوبٍ

الأمّل وصدق اليقين يقودان الشاعر نحو ممدوحة بالرغم من محاصرة الشكوك والظن الكاذب به ، إذاً نغمة القلق ما زالت تتردد في التضاد في قوله : (اليقين - الظن - الصدق - الكذب) .

أَيَاذُنُ سَمْعِكَ لِي مِنْ بَعِيدٍ

وَلَحْظُكَ قَدْ رَابَنِي مِنْ قَرِيبٍ

وَكَيْفَ بِأَشْجَانِ قَلْبٍ عَزِيزٍ

فَيَسْعُدُهُ لَهْوُ قَلْبٍ طَرُوبٍ

ابن درّاج يريد أن يجسّد ما تختلج به نفسه ، وهو الحديث عن أشجانه ، وعن حظه التعيس ، ومدى خوفه من الضياع والنسيان ؛ ولذلك قال : (أَيَاذُنُ سَمْعِكَ لِي مِنْ بَعِيدٍ) باستخدام أسلوب الاستفهام الذي خرج إلى معنى الترجي ، فيطلب منه أن يأذن له سمعه ليسمعه ، وليعرف كيف بأشجان قلبه التي تسعد حينما ترى قلباً يسعد ويطرب ، فماذا يريد ابن درّاج في استخدامه للاستفهام ، أَيَاذُنُ وكيف ؟؟

الشاعر يريد أن يجعل من سماع دعوته ومعرفة أشجانه وأحزانه أمراً في غاية الأهمية ؛ ولذلك وصل به الأمر إلى حد الترجي والالتفات إليه والسماع له ، فالإنسان بطبعه وفطرته التي فطرها الله عليها يحتاج من يسمع له ، ويجب دعوته بطريقة مادية أو معنوية في كل الأحوال ، وخاصةً إذا وقع في أي ظرف قد يُعكر عليه صفو حياته ، وابن درّاج يعيش في حالة كدر وخوف وقلق وغربة ، أضف إلى ذلك كله اللامبالاة بعدم السماع له ، وليس ثمة شك أن من يعيش في مثل هذه الحالة سيشعر بالذلة والمهانة والانحطاط ، إذا لم يسمع منه وتناساه الجميع .

فَنَادَاكَ مِنْ غَمَرَاتِ التَّنَاسِي
وَنَاجَاكَ فِي ظُلُمَاتِ الْخُطُوبِ
بِبَالِغَةٍ لِلتَّرَاقِي حَدَّثَهَا
إِلَيْكَ وَصَاةَ الْقَرِيبِ الْمُجِيبِ

ينادي ابن درّاج بأقصى ما أوتي من صوت وقوة بعد أن أدلج في غمرات التناسي ، وقوقع في ظلمات الخطوب التي بلغت بها الروح التراقي في حدتها وقوتها ، فرأى الموت قد دلف منه ؛ ولذلك عليه أن يوصي القريب المجيب له فمن هو ؟؟ إنه ابن باق الذي أخذ يدعوه ويتوسل إليه بأن يسمع لدعوته ليذكر منذر بن يحيى التحيي به بعد أن غفل عنه ، والتناسي هو الموت بذاته ؛ ولذلك قال : (بِبَالِغَةٍ لِلتَّرَاقِي) ، وهنا اقتباس من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي ﴾ (١) .

لوحة التوسل – الخوف من الإعراض :

الإنهيار :

بِمَا خُطَّ لِلجَارِ وَابْنِ السَّبِيلِ
وَأَوْجَبَ لِلْمُسْتَضَامِ الْغَرِيبِ
وَمَا قَدْ حَبَاكَ الرِّضَا مِنْ مَلِكٍ
بَلَاكَ بِلَاءَ الْحُسَامِ الرَّسُوبِ (٢)
فَحَلَاكَ إِكْرَامُهُ فِي الْعِيُونِ
لِتَقْدَمَ أَعْلَامُهُ فِي الْحُرُوبِ

(١) سورة القيامة ، آية (٢٦) .

(٢) الرسوب : أي القاطع الذي يغيب في الضريبة .

وَأَذْكِي سِرَاجَكَ وَسَطَ الْقُصُورِ

لِيُعْلِي عَجَاكَ خَلْفَ الدُّرُوبِ

فَأَرْعِيَتْهُ صِدْقَ حُرِّ شُكُورِ

تَسْرُبِلَ إِخْلَاصَ عَبْدٍ مَنِيبِ

وَأَبْلَيْتَهُ نُصْحَ جَيْبِ سَلِيمِ

وَفِي الضَّمَانِ بَنَصْحِ الْجُيُوبِ

يتوسل ابن درّاج فيسأل ابن باق، فيقول : فبمقدار ما قسمت للجار وابن السبيل ، وبما أوجب للغريب الضامي ، وبقدر ما حباك به الملك من رضى ، وبقدر ما قطعت سيوفكم ، فرفعت راياتكم خفاقة ، فنلتُم بذلك الإجلال والإكرام ، فارتفع ذكركم وسط القصور ، وعلا العجاج والدروب ، فرعيتُم ذلك الذِّكْر بالصدق والشكر والإخلاص .

ابن درّاج استنفد كل المعاني التوسلية ، وهذا « يدل على انهيار معنوي تام ، حتى ليطلب حق ابن السبيل والجار المستضام »^(١) ، فماذا يريد ابن درّاج من ابن باق؟؟

تَقُودُ إِلَيْهِ رَجَاءَ الْبَعِيدِ

وَتَتَلَّوْا عَلَيْهِ ثَنَاءَ الْقَرِيبِ

وَتَلْقَى وَجْهَ الْمُحِبِّينَ عَنْهُ

بِبَشْرِ الْمُحِبِّ وَوَصْلِ الْحَبِيبِ

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

يريد منه أن يقود رجاءه وثنائه للملك بدقة ، ويذكره بالحب ووصل الحبيب ،
بعد أن غفل عنه ، وهذه الغفلة كانت تبعث في ابن درّاج القلق والانهيار ؛ ولهذا نرى
التضاد يظهر في قوله: (البعيد - القريب) .

وَكَمْ مَنَّبَرٍ لِلْعُلَا قَدْ بَنَاهُ
لَهُ اللَّهُ مِنْ مُعْظَمَاتِ الصَّلَيبِ
حَمَيْتَ ذُرَاهُ بِأَنْفٍ حَمِيٍّ
وَرَحَبَ ذُرَاهُ بِصَدْرٍ رَحِيبٍ

(كم) هنا خبرية أفادت التكثير والتعظيم من شأن ممدوحه الذي تميز عن غيره
من الملوك ، فعزه ومجده قد بناه له الله ؛ ولذلك قد حمي من كل سوء .

وَضَاقَ بِمَنْ أَسْمَعَ الضَّيْمَ عَنْهُ
فِيَا خَطِيبٍ صَرِيعِ الْخُطُوبِ
قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بَعِيدٍ
بَعِيدٌ عَلَى ذِكْرِ مَوْلَى قَرِيبٍ

فقد قلّ من سمع عن ضيمه وألمه ؛ لأنه خطيب صريع للخطوب ، كما أنه قريب
من كل مكان بعيد ، ولكنه بعيد عن ذكر ابن درّاج ، فالشاعر يجمع بين صفتين
متناقضتين في ممدوحه هي القرب والبعد ، وهذا من باب التشبيه التمثيلي ، فممدوحه
قريب يصل إلى كل الآفاق البعيدة ، وفي الوقت نفسه هو بعيد عن ذكر ابن درّاج ،
وهذا ما كان يبعث لديه القلق ، إذا النغمة الحزينة المليئة بإحساس الذل والضياع ما
زالت مستمرة .

وَقَدْ أَطْلَعَ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ عَنْهُ
كَوَاكِبَ تَهْوِي لِغَيْرِ الْغُرُوبِ

نُجُومًا أَضَاءَتْ بِفَصْلِ الْخُطَابِ^(١)
لَهُ الدَّهْرُ إِلَّا مَكَانَ الْخَطِيبِ
وَعَنْهُ تَنَكَّبَتْ^(٢) قَوْسَ النَّضَالِ
فَرَشَتْ لَهَا كُلَّ سَهْمٍ مُصِيبٍ
فَأَوْتَرَتْهَا لِقُلُوبِ الْعُدَاةِ
وَأَغْرَقَتْ^(٣) فِيهَا لِرَمْيِ الْغُيُوبِ

الشرق والغرب قد أطلعا ذلك الملك عن الكواكب التي تهوي وتتساقط في غير وقت الغروب ، فماذا يقصد ابن درّاج ؟ هل أراد بالكواكب التي تهوي تشبيهاً لأبنائه الذين عانوا الغربة والاعتراب ؟

إذا هم أبنائوه الذين أضاءت حياتهم في عهد ممدوحه ، ولذلك قال : (نُجُومًا أَضَاءَتْ بِفَصْلِ الْخُطَابِ) ، فهم استطاعوا أن يميزوا بين الحق والباطل ، ولذلك فضلوا مكان الخطيب الذي يصرع الخطوب ، فأصاب بقوسه وسهمه الأعداء . وقوله مقتبس من قوله - تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ ﴾^(٤) .

ونجد التضاد - أيضاً - يلاحقنا في هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن ممدوحه ليرز لنا قلق الشاعر ، وذلك في قوله : (الشرق - الغرب) .

(١) فصل الخطاب : هو أن يحكم بالبيّنة أو اليمين ، وقيل : معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، ويميز بين الحكم وضده .

(٢) تنكبت : بمعنى أصابه .

(٣) أغرق : أي استوفى مدها .

(٤) سورة ص ، آية (٢٠) .

فَمَا لَكَ عَنْ غَرَضٍ كَالصَّبَاحِ
تَجَلَّلَ أَفَقَ الصَّبَا وَالْجُنُوبِ
يُضَاحِكُ مِنْ رَوْضٍ فَكْرِي بِذِكْرِي
أَزَاهِيرَ نُورٍ بِنُورٍ مَشُوبِ
فَلَلَهُ إِشْرَاقُ ذَاكَ الشَّبَابِ
تَأَلَّقَ فِي حُسْنِ ذَاكَ الْمَشِيبِ
فَفَاحَ تَضَوُّعُ ذَا مِنْ ضَيَاعِي
كَمَا لَاحَ مَطْلَعُ ذَا مِنْ غُرُوبِي

فتلك عبارة عن ذكريات تجول في فكر ابن درّاج ، وهذا يعني أن ابن درّاج قد ساءت أحواله عند ابن يحيى ، فذلك النعيم الذي تحدث عنه كان في الزمن الماضي ، ولذلك قال : (أضاءت) ، وأيضاً حينما قال : (ذكري) ، فتلك عبارة عن ذكريات يستدعيها ابن درّاج ليسلو نفسه ، وتذكيراً - أيضاً - لابن يحيى الذي تناساه ، مما أوقد في نفس شاعرنا الإحساس بالضياع ، ولهذا يسأل الله أن يعيد عليه تلك الأيام المشرقة لتتألق وتضيء له في مشيبه .

ويعلل ابن درّاج سبب بث شكواه لابن باق قائلاً أن إحساسه بالضياع ودنو رحيله هو الذي جعله ييث هذه الآلام والأوجاع ، ثم التضاد - أيضاً - في قوله : (الشباب - المشيب) دليل على قلقه .

فَتِلْكَ نَقَائِصُ سَعْيِي وَسَعْدِي
يُنَادِينَ : يَا لِلْعَجَابِ الْعَجِيبِ !
وَتِلْكَ بَضَائِعُ ثَرِيٍّ وَنَظْمِي
ضَوَارِبُ فِي الْأَرْضِ : هَلْ مِنْ ضَرِيبِ ؟

ويا للخلائق هل من مساوٍ

ويا للدواوين هل من مُجيبٍ ؟

ويفتخر ابن درّاج بشعره قائلاً : (فتلك نقائص) أشار إليها بتلك للبعيد دليلاً على بعد مكانته ، تلك القصائد التي تثير الدهشة والعجب ، إذا فبعد نبرة الحزن والقلق تعلو نغمة الفخر التي يريد بها الشاعر التخلص من الضياع وفقدان الهدف ، فحديثه عن شعره تذكيراً لممدوحه بقوة شعره الذي ضرب في الآفاق ؛ ولذلك قال : (ضوارب) على وزن فواعل للمبالغة ، تلك البضائع الشعرية والنثرية تتحدى وتقول : هل من مثيل ؟ هل من مساوٍ ؟ وهل من مجيب ؟

فقوله : « (هل من مُجيبٍ) نلاحظ أن نبرة الإجابة مازالت تلاحقنا ، والسؤال : هل قصد حقاً أن الدواوين هي التي تجيبه ؟ أم ممدوحه هو الذي سيجيبه بسماع همه وضيقة ، ولندع ابن درّاج يجيب لنا على هذا السؤال .

فهذه النبرة القوية التي يفتخر فيها ابن درّاج عن إبداعه وتفوقه بعد حديثه عن ممدوحه ، وما كان يقدمه له من حسن ضيافة ، ثم فجأة قابله بالصد والنسيان تأكيداً على سيطرة القلق والإحساس بالضياع ، فالحديث أو الانتقال السريع بين ذكر صفات الممدوح ، ثم الحديث عن الذات (الشعر) يمثل صورة الاغتراب ، وتلك الحالة المثيرة لقلقه وتوتره الذي نجده لا يقف عند حدود الذات وإنسانيتها بل ينسحب إلى النص الذي فيه من الإثارات القلقة بحيث ازدحم حوله الرأي لتخلق هالة عاش شيئاً من أرقها»^(١) .

ولهذا نجد التجانس في قوله : (سعي - سعدي - العجاب - عجيب - ضوارب - ضريب) ، والتضاد الذي ينبئ بوجود حالة قلق (نثري - نظمي) .

(١) المثال : الاغتراب عند المتنبي ، د . صالح زامل ، ص ٣ .

وَيَا نَشَاتِي فِي ذُرَا عَبْدِ شَمْسٍ
وَمَنْ أَعْقَبَتْ هَاشِمٌ مِنْ عَقِيبِ
وَمَا خَطَّهُ أَثَرٌ عَنْ أَمِيرِ
وَسَطَّرَهُ أَرَبٌ عَنْ أَرِيبِ
فَهَلْ فِي الْوَرَى غَيْرُ سَمْعٍ شَهِيدِ
يُلَبِّيهِ كُلُّ فُؤَادٍ لَيْبِ
وَعَيْرُ لِسَانٍ صَدُوقِ الْبَيَانِ
يُقِرُّ لَهُ كُلُّ زَعَمٍ كَذُوبِ
بَأَنْ لَمْ يَفُزْ قَبْلَهَا مُلْكُ مُلْكِ
بِقَدْحٍ كَقَدْحِ مَلِكِي (تُجِيبِ)
فَأَنْجِبْ بِمَوْرُوثِهِ مِنْ مَلِكِ
وَأَسْعِدْ بِوَارِثِهِ مِنْ نَجِيبِ

الذي سيحييه هو ممدوحه الذي يتصل نسبه بهاشم ، ويقول : هل في الناس سميع يلبى مطالبه ، وصاحب لسان صادق يعترف بمحاسنه وأفضاله ، ويدفع عنه زعم كل كاذب يريد الإساءة له ؟ وكل الملوك قد ظفروا بمثل هذا المرء الذي يقدح شعره ليزود ويدافع عن كل ملك أجاب دعوته ولبى مطالبه ، وهذه القصائد التي صاغها ذلك الشاعر لممدوحه ستكون بمثابة الإرث الذي سيرثه أبناء ذلك الممدوح .

فكأن الشاعر هنا يشير إلى معادلة العطاء والثناء ، فبمقدار ما يعطيه الممدوح ويوفر له سبل الراحة والاستقرار بمقدار ما يجد ذلك الممدوح من ثناء وشكر ومديح ، ولهذا نرى ابن درّاج يصر ويؤكد على أهمية السامع منه ، فيقول : (فَهَلْ فِي الْوَرَى غَيْرُ سَمْعٍ شَهِيدِ) ، (وَعَيْرُ لِسَانٍ صَدُوقِ الْبَيَانِ) ، فالقضية الكبرى التي أخذت حيزاً كبيراً في هذه القصيدة هي الإجابة والسماع ، ولهذا نجد الشاعر يلح عليها إلحاحاً شديداً ،

وهذا الإلحاح يؤكد لنا قلق ابن درّاج من هذا الأمر ، ولهذا لا يغيب التضاد ولا المجانسة - أيضاً - في هذه الأبيات كقوله في التجانس : (أرب - أريب - يلي - ليب - أنجب - نجيب) .

ثم نجد يقول بعد هذا الإصرار :

وَأَعْجَبُ بِأَوْفَى مَلِكٍ أَضَاعَ

مِنَ الذِّكْرِ وَالْفَخْرِ أَوْفَى نَصِيبِ !

لِوَاءِ ثَنَاءٍ كَبَّرَقِ الْغَمَامِ

يُهْلِلُ إِلَيْهِ لِوَاءُ الْحُرُوبِ

فالشاعر يتعجب من ذلك الملك الذي أضاع نصيبه من الذكر والفخر به في قصائد ذلك الشاعر الذي سيكون ثناؤه ومدحه لذلك الملك حينما يسمع له ويحجب مطالبه ، كبرق الغمام الذي سيهل عليه ، وسيكون ذلك الثناء قويًا ساطعًا ، وسيواكب ذلك الشعر ويفخر بانتصارات وبطولات ذلك الممدوح ، وبالرغم من هذه النبرة القوية في الفخر، إلا أننا نلاحظ توترًا بسيطًا يعاني منه الشاعر ، ولهذا نلاحظ التكرار في قوله : (أوفى مرتين ولواء - أيضاً - ذكره مرتين) مع اختلاف الدلالة.

وَمَا قَدْ كَسَا كُلُّ بَرٍّ وَبَخْرٍ

بَذِكْرَاهُ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبٍ

حَدَائِقَ مِنْ زَهَرَاتِ الْعُقُولِ

تَفُوحُ إِلَى ثَمَرَاتِ الْقُلُوبِ

تَغْنَى الْعَذَارَى بِهَا فِي الْخُدُورِ

وَتُحْدِي الْمَهَارَى بِهَا فِي السُّهُوبِ

وَقَدْ أَيْنَعَ الْحَزْنَ وَالسَّهْلَ مِنْهَا

بِشَرْبِ ذُئُوبٍ مَحَا مِنْ ذُنُوبِي

وذلك الشاء والذكر الحسن للمدوح سيكسو البر والبحر ؛ لأنه سيكون نتاج عقلية شاعرية عظيمة تستطيع أن تؤثر في قلوب السامعين ، فيتناقل ذلك الشاء حتى يكسو البر والبحر ، وتتغنى به العذارى في خدورهن ، وتحذو به ألسنة الحوادي على أجود أنواع النوق وأسرعها ، فيينع السهل والحزن ، ويعذب الماء فيهما .

ابن درّاج مازال يفخر ويفخر ، ولكننا نجد التّضاد يعود بعد أن غاب في البيتين السابقين ، فنرى التّضاد في قوله : (بر - بحر - سهل - حزن) .

بَلَاغُ حَيَاةٍ وَأَحْجَمَتْ عَنْهُ

لَعَوْدِ الْخِبَاءِ وَلِلْعَنْدَلِيبِ^(١)

كَمَا ابْتَرَّ صَيْدَ الْعُقَابِ الذُّبَابُ^(٢)

وَصَادَ النَّعَامَ حَسِيرُ الدَّيِّبِ^(٣)

وَذُلِّي أَوْدَعَ هَذَا وَهَذَا

أَظْفِيرَ لَيْثٍ وَأَيَّابَ ذِيبٍ

(١) الخباء : هو الموضع الخفي ، وهي سمة للناقة ، والعندليب : طائر أصغر من العصفور ، وقيل : هو البلب ، أو الهزار .

(٢) العقاب : ذكر الحجل ، وهو نوع من الطيور .

(٣) النعام : الطائر المعروف ، والدبيب : صغير النمل .

مَظَالِمُ أَظْلَمَ حَقُّ الْمَحِقِّ

بِهِنَّ وَأَشْرَقَ رَيْبُ الْمُرِيبِ

وَأَنْتَ عَلَيْهَا شَهِيدُ الْعِيَانِ

وَحُكْمُكَ فِيهَا صَرِيحُ الْوُجُوبِ

فبعد نبرة الفخر القوية يعود ابن درّاج إلى تلحين أحزانه وهمومه ، فقد أحجمت عنه الحياة ودبّ في قلبه الرُّعب ، فصار كالطائر الذي يغرّد ، لا لفرحه ، وإنما لحزنه ، وكالعقاب الذي يصيد الذباب ، وكالنعام الذي يصيد صغير النمل . ابن درّاج يشير إلى قلة حظّه في عدم نيّله لما كان يستحقّه من حسن ضيافة وكرم ، بل وجد العكس ، وجد الإحجام عنه ، ولذلك شعر بالذل والضياع ، وأصبح مغترّباً مهدور الحق ، وهذا الاغتراب وهذه الغربة جعلته فريسة سهلة لكل ليث وذئب ، ولم تقتصر معاناة الشاعر من الغربة فقط ، بل أضف إلى ذلك إحساسه بالظلم والمهانة ، وسلب حقه الذي يستحقّه ، وابن باق شاهد على حقه الذي سلب منه ، وعالمٌ بالظلم الذي لقيه ، وكانت ردة فعله صريحة ، ثم يعود ويخاطب ابن باق قائلاً : (وَوَعْدُكَ أَلْزَمَنِي) ، فابن باق وعده بأن يذكر ممدوحه بوصاله وإعطائه حقه الذي يستحقّه ، ولكن هل استجاب ابن باق له ، وأوفى بوعده أم غدر به ؟؟

وَوَعْدُكَ أَلْزَمَنِي مِنْ ذُرَاكَ

وصال المحبِّ ورغبي الرقيب

وصال المحب من الأمور الضرورية عند ابن درّاج ، وهذا الوصال يتمثل عنده في الإجابة والسماع له ، وحسن الضيافة والكرم ، ولكننا نرى ابن باق حينما وصل إلى أعلى المراتب غفل عنه - أيضاً - ولهذا شعر بالظلم من قبل يحيى ، ومن ابن باق - أيضاً .

لوحة الخيبة وتخلي الجميع عنه :

فَحِينَ افْتَحْتَ بِنَصْرِ عَزِيزٍ
يُشِيرُ عَنْكَ بِفَتْحٍ قَرِيبٍ

فحين سمع بالانتصارات التي حققها استبشر ابن درّاج بالخير ، ورأى أن انفراج همومه وزوال أحزانه قد أوف ، ولكن هل حدث ذلك فعلاً؟؟

تَرْقَيْتَ فِي هَضْبَةِ الْعِزِّ عَنِّي

وَأَهْوَيْتَ بِي لِمَهِيلٍ كَثِيبٍ

فحينما علت منزلته ، وترقى هضبة العز والمجد والسلطان أهوى وأسقط ابن درّاج في مهيل كثيب ، إذا « حتى ابن باق نفسه قد تغير »^(١) ، وهذا التغير سبب لابن درّاج أو بالأصح زاد وأوقد فيه الإحساس بالقلق والذل ، فحينما يشعر الإنسان أنه قائم أو موجود في مكان غير مرغوب فيه سيشعر حتماً بالاغتراب والاكتراب ، ولهذا نرى التضاد يعود في قوله : (ترقيت - أهويت) .

كما أن هناك اقتباساً في قوله : (مهيل - كثيب) من قوله - تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾^(٢) .

وَلَفَّكَ دُونِي غُصُونُ النَّعِيمِ

وَأَسْلَمْتُ ضَاحِي مَرْعَى جَدِيبٍ

فَمُلِّتَهَا جَنَّةً لَا يَزَالُ

يَمِيدُ بِهَا كُلُّ عَيْشٍ خَصِيبٍ

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

(٢) سورة المزمل ، آية (١٤) .

وَلَا بَرَحَتْهَا طُيُورُ السُّرُورِ
 يَمِيدُ بِهَا كُلُّ غَصْنٍ رَطِيبٍ
 وَإِنْ شَاقَّنِي مِنْ صَبَاها نَسِيمٌ
 يُفَرِّجُ عَنِّي بِرُوحِ الهُبُوبِ^(١)
 وَأَظْمَيْتُ مِنْهَا إِلَى رَشْفِ مَاءٍ
 يُمَثِّلُ لِي فِيهِ رَيْقُ الْحَيْبِ
 وَكَمْ سُمْتُ^(٢) أَوْرَاقَهَا فِي الرِّيحِ
 لِأَخْصِفَ فِيهَا لَعَارِ سَلِيبٍ
 وَأَمْسَحُهَا فِي مَآقِي جُفُونٍ
 دَوَامِي الْقَذَى قَرَحَاتِ الْغُرُوبِ

ابن باق تجاهل ابن درّاج ، فتنعم بالنعيم تاركاً ابن درّاج في ضاحية
 مرعى جذب يابس لا خير فيه ، بينما هو في جنّة لا تبرحها الطيور ،
 ولا يبرحها السرور والنعيم ابن درّاج في كربة شديدة يشتاق إلى تفريجها ؛
 ولهذا اشتاق إلى نسيم ذلك الروض ، والذي أثار فيه تلك الذكريات هي
 أجواء الظلم والنسيان ؛ ولذا فهو بحاجة ماسة لأن يرتشف ماء تلك الجنة
 ليداوي بها كل جروحه وآلامه ، وهو بحاجة إلى أن يجمع من أوراق تلك الجنة
 التي تهب مع الرياح ليستر بها العار الذي لحق به ، بعد أن تخلّى الجميع عنه ،
 وهنا - أيضاً - اقتباس من القرآن في قصة آدم **u** وزوجه حينما أكلا من

(١) البروح : جمع برح وهو الشدة والشر . الهبوب : الرياح المثيرة للغبرة .

(٢) السمت : القصد والتعسف .

الشجرة ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (١) ، ثم التضاد في قوله : (شاقني - يفرج) ، (نعيم - جذب) .

بِمَا فَتَ فِيهِنَّ رَمَى الْعِدَاةُ
وَمَا غَضَّ مِنْهُنَّ ذُلُّ الْعَرِيبِ
فَإِنْ رَمَدَتْ فَقَلِيلٌ لَعَيْنِ
يُقَلِّبُهَا شَجْوُ قَلْبٍ كَيْبِ
وإِنْ قَدَحَتْ بِالْحَشَا فِي الْحَشَا
فَرْنَدَا ضِرَامَ لِنَارِ الْكُرُوبِ
تُوجِّجُهَا حَسَرَاتُ التَّنَاسِي
وَتَنْفُخُهَا زَفَرَاتُ النَّحِيبِ
وَكُلًّا وَسَعَتْ بِصَبْرِ جَمِيلِ
وَبَعْضًا كَفَفَتْ بِدَمْعٍ سَكُوبِ
لَأَوْقَدَ مِنْهَا مَصَابِيحَ جَمْرِ
تُنِيرُ إِلَيْكَ بِسِرِّ الْغُيُوبِ

ويبلغ الضعف والذل من القسطلبي مبلغه ؛ فقد أصابته سهام الأعداء ، فرمدت عيناه ، وسالت الدموع ليعبر بها عن شجوه وحزنه والكآبة التي أضرمت في قلبه ؛ لكثرة الأهوال والكروب التي تؤججها وتزيد في إضرارها حسرات التناسي والتجاهل ، فإذا كانت النار تشتعل بالقدح والزند ، فابن درّاج تشتعل فيه الكآبة والحزن ، ويزيد

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

في إشعالها النسيان ، فسيطر عليه الضعف ، فأصبح مسلوب الإرادة لا يملك سوى
ذرف الدموع ، وفي سكبها دلالة على الضعف والانكسار ، وإن كانت الدموع تخفف
من حدة الألم ، وقد شبه ابن درّاج شدة اشتعال تلك النار في نفسه بضوء المصابيح التي
إذا أوقدت تنير المكان المظلم بقوة ضوئها ونارها .

ثم إن هناك دلالات تشير إلى الضعف والانكسار ، كقوله :

ذل الغريب : وما نشعر فيها من المهانة والانفراد والتهيه .

حسرات التناسي : وما فيها من دلالات التجاهل والتعالي عليه .

زفرات : تشير إلى مدى امتلاك الحزن وسيطرته عليه .

الدموع : وما في سكبها من إشارات الضعف والانكسار .

الشجو : دلالة على سيطرة الحزن عليه .

كثيب : تشير إلى التوتر والقلق .

الكروب : دليل على أن المصائب والهموم محيطة به .

فكل هذه الدوال تشير - كما قلنا سابقاً - إلى مدى الضعف واستلاب الإرادة

من الشاعر حتى إنه لم يعد بمقدوره سوى البكاء والحزن ، وإطلاق الزفرات ليعبر عن
مدى الكآبة والقلق الذي يعيشه الشاعر في كنفه .

لوحة الانهيار :

وَلَوْ غَابَ عِلْمُكَ عَنْ بَحْرِ ظِمٍّ
وَمَا غِيضَ مِنْ شُرْبِهِ فِي الشُّرُوبِ
لَأَغْنَاكَ عَنْ شُبْهَةِ الشَّكِّ فِيهِ
ذُبُولُ الْجَنَى فِي ذُبُولِ الْقَضِيبِ
وَحَسْبِي لَهَا مِنْكَ حُرٌّ كَرِيمٌ
وَفِي الشُّهُودِ أَمِينُ الْمَغِيبِ
وَأَرْجَى عَلِيلٍ لِبُرِّ السَّقَامِ
عَلِيلٌ تَيَقَّنُ يُمْنَ الطَّيِّبِ
وَحُسْنُ الظُّنُونِ لَصِدْقِ الْيَقِينِ
نَسِيبٌ وَلَا كَالنَّسِيبِ الْحَسِيبِ
فَإِنْ تَنَّهُ عَنِّي فَأَوْلى مُجَابٍ
دَعَا لِلْمَكَارِمِ أَهْدَى مُجِيبِ
وَكُنْتُ بِذَلِكَ أَحْظَى مُثَابٍ
لَهُ مِنْ ثَنَائِي أَوْفَى مُثِيبِ
وَمَنْ يَمْنَعُ الضَّيْفَ رَحْبَ الْفَنَاءِ
فَقَدْ قَادَهُ لِلْفَضَاءِ الرَّحِيبِ

ابن درّاج يشير إلى مطالبه ، فهو يكفيه أن يكون رجلاً حراً كريماً ، فإن وفر له مطالبه كان هو وفي أمين له ، حتى في غيابه ، فابن درّاج يشير إلى مقابلة الإحسان بالإحسان ، فإذا كان ممدوحه قابله بالإحسان وتحقيق مطالبه ، فلا بد أن يقابله ابن درّاج - أيضاً - بالإحسان إليه بأن يكون وفيّاً صادقاً له ، يمدحه ويثني عليه ، ولذلك يطلب منه أن يداوي سقام تغرُّبه ، ويحسن الظن به ؛ لأنه حقاً شاعرٌ صادق اليقين ،

فإن لي مطالبه يكون أوّل مُجاب لأهدى مجيب ، فيحظى بمدوحه بالثناء الكثير . فابن درّاج في حالة انخيار حاد ، ولهذا نراه يلح إلحاحاً شديداً في الرغبة الشديدة في تحقيق رغباته ، فبعد أن غفل عنه يحيى وابن باق ، نراه يعود ويقول : (فإن تُنّه عني فأوّلَى مُجاب) وهذا يعني انخيار الشاعر وضعفه وتمسكه بخيط ضعيف لا أمل فيه ؛ ولهذا نراه « في آخر القصيدة يهدد وهو لم يُعدّ ذا قدرة على التهديد بأن عدم الترحيب بالضعيف يعني رحيله »^(١) .

« والظنّ قوي بأن ابن باق أصمّ سمعه عنه ، وأن يحيى شغل عن برّه ، أو لعلهما معاً سئما هذا الإلحاح المتوالي ، وأصبح ابن درّاج في سرقسطة مقيماً مملولاً لا ضعيفاً (خفيف الظل) ، وهل يمكن أن يظلّ ضعيفاً من أقام حوالي أحد عشر عاماً يوالي المدائح رجاء أن يصيب رزقاً ، وعاد ابن الثانية والسبعين يجدد التنقل ؟! »^(٢) ، بعد أن شعر بالضياع وفقدان الهدف (يحيى) الذي غفل عنه وتناساه حتى بلغ فيه الضعف والانكسار والشعور بالذلّ والمهانة مبلغه ؛ ولذلك نراه يكرر قضية السماع والإجابة أكثر من اثني عشر مرة ، كما أن هناك دوال كررها الشاعر : (الضياع - النسيان - الظلم - الكتابة) فتكرار هذه الدوال دليل على تمكن الضياع والقلق فيه ، ثم استخدامه للتّضاد في قوله : (الشهود - مغيب - برء - سقام) ، والتجانس (النسيب - الحسيب) دليل على سيطرة القلق والضعف على الشاعر .

فالقصيدة بدأت بحالة نفسية تكتظ بالقلق وعدم الإجابة له لتنتهي بأن عدم الإجابة والسماع يعني الرحيل والغربة والاغتراب .

فالشعر فروع لجذر واحد هو الشاعر، وهذه الفروع تستقي حياتها من منبعها، وهذا ما نجده واضحاً أتمّ الوضوح في قصائد ابن دارج القسطلّي ، الذي يرسم لوحاته الفنية ويصور الغربة في قصائده كأنها شاخصة أمام أعيننا تحدثنا عنه وعن حياته . وقد جاءت قصائده كأنها جزء واحد وكيان مترابط تعبر عن موضوع واحد

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

سواء أكانت البداية طللية ثم انثنت إلى المدح والوصف أو غيره من أغراض الشعر العربي.

لقد نظم ابن دراج قصائده كحبات عقد يجمعها نظم واحد فجاءت متلاحمة البنيان وإن كان يفصلها قافية أو وزن إلا إنها تكون فكراً واحداً. وعاءه وجدان واضح المعالم. فهو في القصيدة الأولى يودع زوجته التي يحبها وقد أثر فيه فراقها ويبين أن الأسى والأرق قد عرفا الطريق إليه وتبكيه الزوجة كمدا.

وفي الثانية بعدما غادر ويلازمه نفس الأحاسيس حيث تمتد الصورة وتتوالى وتتنامى في خط واحد يدفعها إلى الأمام خيط شعوري واحد هو الإحساس بألم الفراق.

ثم تنتقل إلى الفصل الثاني من هذا المشهد وهو بعد المغادرة وهو فيه الغريب الذي كساه البين ثوباً مدنفاً حيث يعيش حياة الغربة يبكي أليفته ويوحشه الأمر ويغرق في المعاناة والآلام.

وابن دراج في قصيدته الأولى يظهر علينا في صورة المفارق لزوجته البعيد عنها الذاكر لها، ومن ثم جاءت القصيدة الثانية تنمة للأولى فبعد السفر يكون بعد الزمان .

ثم تعاوده الأشجان والحنين لذكرها وهنا يتبدل الحال فيحل الحزن محل السعادة والأرق محل الراحة.

ثم تأتي الثالثة قطعة مكملية وصورة معبرة وجداراً أخيراً ليكتمل البنيان فهو بين الرجاء والأمل وبين اليأس وسوء العمل، يقوده صدق اليقين، ولكنه لا يلبث أن يرتاب بظن كذوب .

فالعلاقة البارزة في مقدمة هي التذبذب بين الشك واليقين وبين البكاء عند الرحيل وبين اللهفة على الأحبة في ليالي العيد .

وكلها يجمعها صدق في على الرغم من أن كل قصيدة مستقلة عن الأخرى إلا إنه استخدام أدوات متشابهة وصور ولوحات متشابكة وألفاظ موحية وعبارات هادفة متضافرة .

ويأتي الوجه الآخر والغرض الثاني وهو الممدوح الذي هو هدف القصيدة ومحل النظر وضوء القمر الذي يستمد منه الشاعر فكرته وشاعرنا في كل قصيدة من قصائده

الثلاث ممدوحه مثالي الأخلاق عالي الهممة صفاته تتردد في كل مرة، وقبل شروعه في بابه الرئيسي وهدفه يأخذ التوتر منه مأخذ عظيمًا ويبلغ القلق مبلغ ليس بالهين يتجلى هذا في كل لوحة فنية وتعبير إبداعي في كل قصائده فتارة نجده (الطائر خرق الجناح) الذي يهوي ويسقط وليله موحش مظلم لا يجلوه إلا بلظى زفير أو برأس شائب، وكذلك يكابد أمواج البحر، والصورة الأولى في قصيدته هذه نجدها تتشابه كثيراً مع صورة وملمح آخر في قصيدته الثانية والثالثة.

فصاحبه مثل الصبح وقد تعود شاعرنا منها خلف الوعود، وكذلك ممدوحه يرتاب منه بظن كذوب، ويجمع كل الخطوط التي مرت به قبل ذلك في القصيدة الأولى من علو موج البحر والليل حتى كأنه يلخصها في القصيدة الثالثة على عجلة تتلائم مع وزنها الموسيقي المتقارب (فهو المنادى في غمرات التناسي وهو المناجى في ظلمات الخطوب) والشاعر ينتقل ما بين غرض وغرض راسماً لوحات متتالية لا يفصلها فاصل ولا يغشاها شيء فتظهر جليلة للقارئ ينتقل من غزله لممدوحه في بساطة من غير كلفة ولا مشقة فتأتي قصائده عن الغربة كأنها لوحات متتالية ونبرات صوت حزين فهو الفاقد لأحبته في هجرته لمحوبه وممدوحه فقد ترك الأحبة للأحب والغالين للأغلى الذي يريد منه العطاء والمنوال (فهل يأذن سمع الممدوح من بعيد أم هل يراه عينيه من قريب) وتعلو نبرة التوتر حيناً آخر عندما يقول (هل من مجيب) فكأنه ينادي على سلعة ما لها رواج.

والتقدير المعنوي والمادي شيء واحد لدى الشاعر فهو يقول من أراد أن يكرمني فعليه بالعطية لأنه الصيد الثمين والشاعر القوي المتين والصديق الأمين والصاحب اللبيب يقول (فذخرت للألباب كفة حابل) وفي الثالثة (وأعجب بأوفى عليك أضاع من الذكر والفخر أوفى نصيب) وتبرق تلك الصور وترعد أمام عيني ممدوحه طمعاً في أن يزيد الشاعر ذكراً وخوفاً من أن يتعد الشاعر عنه فلا يكون له ذكراً بين الملوك ولذا جاء بتنبيه الأول كجرس عتاب أو إنذار لنيل العطاء، ففي القصيدة الأولى يقول (من كل ساحرة كأن رويها) وكذلك ينعي حظه الغائب ويرثي نصيبه المفقود (أورمت حظي في السماء وقد جرى — لمداه في فلك الغائب) وتراه لا يرى اليقين ولكن الشك هو الشيء الجلي الواضح أمام عينيه البائستين (ولئن دجت الحادثات فما أرى — نور

اليقين بطرف ظن كاذب) وتلك نظرة غير عابرة وإنما عميقة متكررة، فذلك الشك قد غطى القصيدة الأولى والثانية حتى إنه ليأتي في القصيدة الثالثة ولا يدري أقرب ممدوحه أم بعيد كل ذلك قد املاه عليه شكه المتواصل ونظراته البائسة ونبرة أخرى تجد صداها في جل قصائده هي الشعور بالذل رغم أنه لا يتناسب مع عزه واعتزازه بشعره وفنه إلا أنه جاء كرد فعل لما فعله ممدحوه من إعراض عنه.

وتأتي كذلك صورة مغايرة تماماً هي صورة الممدوح الشجاع المعطاء وكأنه يقول له إنك معطاء فلم تصدني وكريم فلم تغلق الباب دوني وسخي فلم تعرض عني.

وشاعرنا يشعر بالتردد وعدم اليقين ولكنه يبشر زوجته بالخير والأمل، وممدوحه في كل مرة يتمتع بصفات الفروسية والأخلاق المثالية، وهو يمزج ما بين عهود محبوبته وبين حال ممدوحه الذي عهده العطاء وشيمته الجود والكرم كل هذا الخضم الواسع من التذبذب والتناقض كان وليد حالته النفسية المغتربة التي لا تعرف الاستقرار ومن ثم جاء شعره وليد تجربة اغترابية صادقة تدق أبواب اليأس والرجاء معاً والحب والأمل معاً كل ذلك في آن واحد وزعها الشاعر بين أدوات وعناصر، فالزواجة أول عناصر تلك الغربة والتضاد الكثير ثاني هذه العناصر.

وأخيراً — فهذه الدراسة أبرزت خصائص شعر الاغتراب من خلال تقسيم القصائد إلى محاور ولوحات فنتج عن ذلك وجود تزامنين في شعر ابن دراج وهما المديح، والحديث عن معاناة الاغتراب وتمثل هذا في حدة القلق والألم لفراق الزوجة، وقد تمكن الشاعر في تكوين علاقة بين موضوعين فأكثر داخل القصيدة، وشاعرنا يتأرجح بين الحديث عن ذاته من خلال شعره الذي ينقل مشاعره، وبين صفات الممدوح التي تمثل حضوراً لحال التشتت والقلق، وكما يعبر عن نفسه القلقة مستخدماً التضاد والالتفات، ونجد الشاعر قد استنطق بعض الدوال ليعبر عن آلام الاغتراب داخل المديح وهذا دليل على الوحدة النفسية التي تربط بين أجزاء القصيدة ودليل على وحدة حالة الشاعر الشعورية في جميع اللوحات وهذا كله يؤكد احتواء القصائد على وحدة فنية ووحدة نفسية، فهي لوحات جزئية تجمعت لتشكيل لوحة كلية واحدة ملامحها الواضحة هي القلق والتوتر والخوف من الضياع وهذا الذي يجمع الأبيات قي نسيج واحد يحقق للقصيدة وحدتها الفنية.

ثانياً - المعجم الشعري في شعر الغربية والاعترا ب

« من الأمور البديهية في عالم الشعر أن لكل شاعر معجمه الذي يظهر لنا فيه شعوره وانفعاله ، ولعل هذا لا يكاد ينطبق إلا على الشاعر المبدع الذي لا نرى فيه صورة غيره ، وإن كنا نؤمن بوجودها في مسيرة الشاعر الشعرية قبل أن يتم له النضج»^(١). ومن الطبيعي أن يتأثر الشاعر بغيره من الشعراء ، فيضمن شعره قول غيره من الشعراء إذا كان ذلك الشعر ملائماً للحالة النفسية التي يمر بها الشاعر . وابن درّاج كغيره من الشعراء يتأثر ويؤثر في غيره ، وقد تأثر معجم الشاعر الشعري بقراءاته الدينية أو الشعرية ، فيضمن ويقتبس^(٢) ما يفصح عن تلك التجربة ، ونذكر على سبيل المثال اقتباسه من القرآن الكريم ليعبر عن الضيق والهم والفقر ، يقول^(٣) :

وَأَنِّي فِي أَفْيَاءِ ظِلِّكَ أَشْتَكِي

شَكِيَّةَ مُوسَى إِذْ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ

فهذا البيت مقتبس من قوله - تعالى - في قصة موسى **U** : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٤) .

والاقتباس من الحديث النبوي ، قول ابن درّاج شاكياً ضيق الأرض به هو وأبناءؤه^(٥) :

(١) شعر حسين سرحان - دراسة نقدية ، د . أحمد عبد الله صالح الحسن ، الطبعة (١) ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، بتصرف .

(٢) التضمن : أن يضمن الشاعر نظمه شيئاً من نظم غيره مع التنبيه عليه ، إن لم يكن من الأشعار المشهورة ، والاقتباس : هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف دون أن يشعر بذلك .

انظر : علم البديع - دراسة تاريخية وفنية ، د . بسيوني فيود ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٩ .

(٤) سورة القصص ، آية (٢٤) .

(٥) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٩ .

وَإِنْ ضَاقَ رَحْبُ الْأَرْضِ عَنْ مُتَوَاهِمُ

فَرَحْبُ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إِلَى نَحْرِي

فالشرط الثاني من البيت تضمين من قول عائشة - رضي الله عنها : « مات رسول الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي »^(١) ويوجد اقتباس من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾^(٢) أما تضمينه من قول غيره ، كقوله واصفاً حاله وفقره^(٣) :

وَتَحْتَ أَجْنَحَةِ الْإِشْفَاقِ حَانِيَةٌ

(حُمْرُ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ)

فهذا الشرط مضمن من قول الخطيئة مستعطفاً عمر بن الخطاب^(٤) :

مَاذَا أَرَدْتَ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَخٍ

حُمْرُ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ

وهذا لا يعني أن الشاعر لم يتخذ معجماً شعرياً خاصاً به ، بل اتخذ لنفسه معجمه الخاص الذي اعتمد فيه على تكرار بعض الدوال التي يفجر بها طاقاته الانفعالية القلقة التي تكتظ بها نفسه ، والذي يعيننا في هذه الدراسة هو الوقوف على معجم شاعرنا الخاص ومحاولة الإمام بالدوال التي شكلت ذلك المعجم في شعره . ولعل المتأمل في شعره سيقف على مصطلحات ودوال تنم عن انفعال مؤلم يتدافع في نفسه ليظهر ذلك التدافع في صور التضاد وصور الأسى والحزن واستخدام الشاعر للعبارات المتشحة بالسواد وتركيزه على بعض الظواهر الحسية كذكره للحيوان والطير ومظاهر الطبيعة وسنحاول الوقوف على تلك الدوال التي تفصح عن تلك الحالة.

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، ج ٦ ، ص ١٩١ .

(٢) سورة التوبة آية، ١١٨ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٥٠ .

(٤) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، ص ٣٢٨ ، الجزء الأول .

التضاد:

يلعب التضاد في المعجم الشعري للشاعر دوراً فاعلاً في إبراز الصراع النفسي إذ أن صور التضاد تبرز دلالات الاغتراب ومعاناة الشاعر فتبرز ذلك الشعور بصورة واضحة من خلال التركيز على علاقة الضد بالضد وسنحاول أن نظهر أبرز صور التضاد في شعر الاغتراب .

جدول (١) صور التضاد و علاقتها بالدلالة على (الاغتراب) و(الاستقرار).

البيت الشعري	الكلمة	دلالتها	مضاد الكلمة	دلالتة
ومن دوننا آنسات الديار نهاب الحمي موشحات الطلول	آنسات	الاستقرار	موشحات	الاغتراب
	حيث السعادة والأنس		حيث الوحشة والتفرد والقلق	
	الديار	الاستقرار	الطلول	الاغتراب
	حيث الوطن والاطمئنان .		حيث الانتقال والابتعاد عن الدار.	
ويصدع ما ضمّ الوداع تفرق كما انشعبت تحت العواصف أغصان	ضمّ	الاستقرار	تفرق	الاغتراب
	الاجتماع والترابط .		حيث التفكك والانشعاب .	
في كل يوم متنوى متباعد يرمي حشاشة شملنا المتقارب	المتقارب	الاستقرار	متباعد	الاغتراب
	حيث جمع الشمل .		التشتت والافتراق .	
وهل أبصرت عينك بداراً طالعاً في الأفق إلا من هلال غارب	بداراً طالعاً	الاستقرار	هلال غارب	الاغتراب
	اقتراب الشاعر من حياة الراحة والاستقرار.		نزوح الشاعر ورحيله .	
فإن تضايقت الدنيا بمغترب فمنذر بعد رحب الصدر واسعة	رحب	الاستقرار	تضايقت	الاغتراب
	حيث الرحابة والإنشراح.		حيث الضيق والهم.	

العبارات المتشحة بالسواد:

إن كثرة الألفاظ والدلالات المتشحة بالسواد والحافلة بالأسى والحزن لتوضح بشدة عمق الألم والمعاناة التي تقوقع الشاعر في داخلها، فظهرت تلك الألفاظ لوناً قائماً وفقاً لرؤية الشاعر وشعوره وسنحاول أن نبرز تلك العبارات في شعر الاغتراب .

جدول (٢) العبارات المتشحة بالسواد وعلاقتها بالاغتراب والغربة .

البيت الشعري	الكلمة	الدلالة الموحية
فَسَرَيْتُ فِي حَرَمِ الْأَهْلِ مُظْلِمًا ورفلت في خلج السموم مهجراً	الظلمة	العتمة و انعدام الرؤية
ظُعْنُ الْفَنِّ الْقَفَرِ فِي غَوْلِ الدُّجَى وَتَرَكْنَ مَأْلُوفَ الْمَعَاهِدِ مُقْفَرَا	الدجى - القفر	الإشارة إلى السير في القفار الموحشة والمظلمة ليلاً.
تنادي عَزِيفَ الْجِنِّ الدُّجَى وهولَ التطامِ الموجِ في لججِ البحرِ	التطام الموج - لجج البحر	الإشارة إلى مايكتظ به الموقف من سوداوية وحركة مع انعدام الرؤية .
وَإِنْ تَقَسُّ أَكْبَادُ كِرَامٍ عَلَيْهِمْ فوا كبدي مَمْنٌ تَذُوبٌ لَهُ صَخْرِي	القسوة	الإشارة إلى سواد القلب وما يحمله من ضغائن .
في جُنْحِ لَيْلٍ كَالْغَرَابِ أَطَارَ لِي عن ملتقى الأحبابِ كُلِّ غُرَابٍ	ليل - غراب	الإشارة إلى السواد الحالِك .

دوال الأسى والحزن :

تفصح هذه الألفاظ عما يشعر به الشاعر من ألم وفجعية أثناء اغترابه وغربته وسنقف على تلك الألفاظ الدلالات الإيحائية .

جدول (٣) دوال الأسى والحزن ودلالاتها الموحية على الاغتراب.

البيت الشعري	الكلمة	الدلالة الموحية
كَمَا مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ نَحْوَكُ سَاعِيًا بطائفِ سُقْمٍ من عذابٍ ومن نصبٍ	عذاب - نصب	تعميق الشعور بالمشقة .
فكم لج بحرٍ وضحضاحٍ قفرٍ تمثَّلَ لي فيه هولُ القيامةِ	هول	المشقة التي يكابدها الشاعر.
وكم أنشبت في الخطوبِ مخالبًا حتى انشنت عني بغيرِ مخالبٍ	الخطوب	دليل على شدة المعاناة .

وحدث بهم صعقات روعٍ شَرَّدَتْ أوطانَهُمْ في الأرض كل مشردٍ	المشرد	يوضح عمق البؤس والتشرد.
شدَّ الجلاء رحالَهُم فتحملتْ أفلاذَ قلبٍ بالهُموم مبددٍ	الهموم	وضوح الدلالة.
تُرَوِّعُ بالنوى والدُّعْرُ باقي وَنُفْجَأُ بالأسى والجَرْحُ دامٍ	الروع _ الذعر _ الفجع الأسى _ الجرح .	سيطرة الخوف والفجع على الشاعر.
فيا ضيق ذرعي لهُم بالزفير على ضيق ذرعي بضيقِ الشَّتاءِ	الضيق _ الزفير	شدة المعاناة.
وأحتلس الأيام خُلُسَةً فاتكٍ إلى حيثُ لي مِن غَدَرِهِنَّ خفيرٌ	الغدر	الإحساس بالخيانة.
ونادتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَ إلى القرى بأفلاذِ أكبادٍ كصالية الجزر	الشماتة	إشارة إلى عدم وجود الألفة .
ودائعُ نَفْسِي عِنْدَ نَفْسِي حَفِظْتُهَا بما ضاعَ من حقي وما هان من قدري	الضياع _ الهوان	إشارة إلى التيه والذل وفقدان الهدف.
نَحَرْتُ بنا صَدْرَ الدَّبُورِ فَأَنْطَتِ قَلَقَ المضاجع تحت جوٍّ أكْثَرَا	القلق	وضوح الدلالة.
ألاؤدُ عنها قلبَ مَكْتَبِ شَجٍ وَنَحْزُ نَحْوِي قلبَ ذي لَوْعَةٍ صَبٍّ	الاكتئاب	وضوح الدلالة.
بَسَطْنَ لِكُلِّ مَقْبُوضٍ يَدَاهُ فما فيهنَّ غير الدَّمْعِ ماءٍ وفي باكيةٍ من بُعْدٍ وصدري واحفاني بِمَنْ أبكي مِلاءُ	البكاء _ الدمع	البكاء وسيلان الدموع دليل على الحزن.
وكم زَفَرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِم بِحَسْرَةٍ أَنَارَتْ بِنَارِ السِّرِّ في عِلْمِ الجَهْرِ	الحسرة	شدة الندم.

الظواهر الحسية – ذكر الحيوان والطير:

الظواهر المادية أو الحسية نجد الشاعر يركز على أنواع معينة من الحيوان والطير
وسنقف على الغرض من ذكرها في شعر الاغتراب والغربة
جدول (٤) الحيوان والطير وعلاقتهم بشعر الاغتراب.

البيت الشعري	الحيوان والطير	علاقته بالاغتراب
سحائبٌ ترحيها الرياحُ فإنْ وَفَتْ أَنَافَتْ بِأَجْيَادِ النِّعَامِ فَيُولُ	النعام	الناحية الجمالية وترك الوطن
ظَبَاءُ سِمَامٍ مَالِهَنَّ مَفَاحِصُ وَزَرْقُ حَمَامٍ مَالِهَنَّ هَدِيلُ	الضباء حمام	الناحية الجمالية إضافة إلى ترك مواطنها وكفها عن التغريد دليلاً على الحزن
تَشْدُو بِهَا خُضْرُ الْحَمَامِ وَحَظُّهَا عَنْقَاءُ رِيْعَتِ بِالْغُرَابِ النَّاعِبِ	الغراب	النظرة التشأمية لارتباطه بالرحيل والغربة
فَكَمْ لِي بَيْنَ اللَّوْحِ وَاللَّوْحِ طَائِرًا وَأَوْكَارُهُمْ فِي طَائِرٍ غَيْرِ ذِي وَكْرٍ	طائر	حيث التغريد والطيران ولكن من غير مريض تستقر فيه
خَطِيبَاتِ خَطْبِ النَّوَى وَالْمَهْوَرِ مَهَارَى عَلَيْهَا رِحَالُ الرَّحِيلِ	المهور	ذكرها لأنه وسيلة للانتقال
وَمِنْ أَنْسَهَا بَيْنَ ظُفْرٍ وَتَرْبٍ سُرَى لَيْلَهَا بَيْنَ ذَيْبٍ وَغُولٍ	الذئب	إشارة إلى الهلاك
بُدُنٌ فَدَتْ مِنَّا دِمَاءَ نُحُورِهَا بِبِغَائِهَا فِي كُلِّ أَفْقٍ مَنَحَرَا	البدن	وسيلة للانتقال
و((الْحَارِثَ الْجَفْنِيَّ)) مَمْنُوعِ الْحِمَى بِالْخَيْلِ وَالْأَسَادِ مَبْذُولِ الْقِرَى	الخيول الأساد	إشارة إلى الجود والشجاعة
فَبَاتَ يَعْجَبُ مِنْ طَبِيِّ يُصَارِعُنِي وَقَدْ يَحْنُ عَلَى لَيْثٍ أَصَارِعُهُ	الليث	إشارة إلى المخاطر التي يواجهها

الطبيعة وأثرها في شعر الاغتراب:

ذكر الشاعر بعض الظواهر الطبيعية في شعر الاغتراب ليعبر بها عن انفعالاته وحزنه وجعل تلك الظواهر تشاركه حزنه وألمه .

وإنْ أَقْبَلُوا وَالْمِسْكُ يَنْدَى عَلَيْهِمْ

أَتَيْتُ وَقَدْ ضُمَخْتُ مِسْكَاً مِنَ الْوَحْلِ

الوحل

وَأَفْجَعَ بَمَنْ آوَى صَفِيحٌ وَجَلَمَدٌ

وَوَارَتْ رِمَالٌ بِالْفَلَاةِ وَكُثْبَانُ

الرمال - الكثبان - الفلاة.

وَمَا بَلَيْتُ فِي التُّرْبِ إِلَّا تَجَدَّدْتُ

عَلَيْهَا مِنَ الْقَلْبِ الْمُفْجَعِ أَحْزَانُ

التراب.

وَيَفْحَصْنَ فِي رَضْمِ الْحَصَى بِمَنَاسِمِ

تَهَيَّمُ إِلَى حِصْبَاءَ مِنْ لَوْلُؤٍ رَطْبِ

الحصى.

وَيَقْضَمْنَ أَطْرَافَ الْهَشِيمِ تَبْلُغاً

إِلَى الرُّوْضَةِ الْغَنَاءِ فِي الْمَشْرِبِ الْعَذْبِ

الهشيم - الروضة.

وسهلُ إلى حَزَنٍ ، و حزنٍ إلى فلاً

وسهبُ إلى بحرٍ ، و بحرٍ إلى سُهْب

السهل - الحزن - السهب - البحر .

وإن ذابحُرُ الوجهِ من حَرِنارِهِم

فما مُسْتَعَاثِي مِنْهُ إِلَّا إلى المُهْلِ

النار .

ومن شيمَةِ الماءِ القراحِ وإن صفا

إذا اضطرمتْ من تحته النارُ أن يغلي

الثرى .

يُهيِجُ فيها زَفِيرُ الرِّياحِ

مدامعَ شَجَوِ السَّحابِ المُخيلِ

وتظمُ فيها أَكْفُ البُرُوقِ

خدُودَ عِراصٍ عَلَيْنَا ثُكُولِ

الرياح - السحاب - البروق .

ثالثاً - الصورة الشعرية

لقد تأثرت الصورة الفنية في شعر الاغتراب بالتجربة النفسية ، والتي كشفت عن رغبة الشاعر في تصوير همومه ومعاناته معتمداً على صورة التشخيص والاستعارة التشبيه والكناية ، وعن طريق التقابل الإيحائي^(١) ، الذي يستعرض فيه الشاعر بين حالتين متقابلتين ، فيصف حالة حاضرة ، وحالة مضاية بكل ما فيهما من سعادة وألم.

١ - التشخيص :

يقول عبد القاهر الجرجاني : « فإنك ل ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مُبينة ، والمعاني الخفية بادية جليّة . . . ، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون »^(٢) .

فالصورة التشخيصية عبارة عن « تمثيل حسي للمعاني ، وإن شئنا قلنا إنها توليد أو استنساخ ذهني لما سبق إدراكه بالحواس ، وليس بالضرورة أن يكون ذلك المدرك مرئياً ، فتدخل مدركات الحواس الأخرى من المسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، وهذا التوليد الذهني للمدركات الحسية مجال اختلاف كبير بين البشر تبعاً لاختلافهم في أنواع التجارب ، وأكثر ما يتم هذا التوليد الذهني باللغة المجازية التي يتسع مفهومها هنا ليشمل التشبيه والاستعارة »^(٣) .

ويظهر التشخيص في « الصورة فيما يخلعه الشاعر على عينيها من حركة وحياء وصفات ومشاعر إنسانية تمثل الطبيعة تمثيلاً دقيقاً ، وتجعلها ماثلة أمام حس

(١) د. حسن النوش أشار إلى التقابل الإيحائي في كتابه التصوير الفني ، ص ٤٧٦ .

(٢) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٧٣ .

(٣) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د. شفيق السيد ، ص ٢٣٨ .

المتلقي كأنه يراها ، فتجسد المدركات المعنوية ، وتشخص المعاني المجردة ، وتحيل كلاً منها إلى عناصر حية في التجربة تحمل أحاسيس الشاعر، وتتلون بعاطفته الخاصة ، كما تؤثر في نفس المتلقي وتثير انفعاله»^(١) .

إذاً التشخيص « يُكسب المعاني المجردة وجوداً مادياً ، وتخلع الحياة على ما ليس بذى حياة»^(٢) ، « فيقوم على خلع الإنساني أو إضفاء الخصال البشرية على أشياء ، أو كانت غير إنسانية سواء كانت حية أو جامدة ، معنوية أو غير معنوية»^(٣) .

ومن صور التشخيص في قصائد الاغتراب قول ابن درّاج مصوراً غربته واغترابه ، يقول^(٤) :

وَمُعَرَّبٌ تَبْكِي السَّمَاءُ لَشَجْوِهِ

مَنْي وَتَلْهَفُ النُّجُومُ لِلْهَفِ

إذ ينفث الشاعر في السماء روح الإنسان الذي يبكي ويحزن لرحيل ذلك الغريب ، كما جعل من النجوم شخصاً يشق وتلهف لرؤية ذلك الغريب ، فالسمااء والنجوم تبكي وتلهف مثل ابن درّاج الذي يشجو لغربته ويتلهف لرؤيته أحبته .

فالشاعر أجرى أحكام من يعقل ويحس ويشعر على ما لا يعقل ولا يحس عن طريق التشخيص الذي أبرز تجربة الشاعر النفسية ، فشخصها في صورة حسية .

(١) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية ، د . أشرف نجا ، ص ٢٢٣ .

(٢) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د . شفيع السيد ، ص ٢٤٨ .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د . جابر أحمد عصفور ، ص ٢٩٤ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٥٨ .

كما يحاول الشّاعر - أيضاً - تصوير تشرده ونيل النوائب والخطوب منه ، قائلاً^(١) :

تُشَرِّدُ آفَاقُ الْبِلَادِ فَتُؤَوِّنَا

وَتَجْرَحُ أَيْدِي النَّائِبَاتِ فَتَأْسُونَا

فالشّاعر يجعل للنائبات أيدي كالإنسان، يجرح بها ويبطش ، فبث الروح والحياة في النائبات .

وتتكرر صورة اليد - أيضاً - إذ يجعل للظلم أيدي ، يقول^(٢) :

وَلَا يَدٌ غَيْرَ أَيْدِي الظُّلَمِ تَعْرِفُنَا

وَلَا بَغِيرَ دُمُوعِ الْعَيْنِ نَنْتَصِرُ

إذ يحاول الشّاعر أن يرسم صورة الظلم الذي طاله حتى إننا لنراه يجعل له أيدي يطول بها ، فينال ممن يريد ، في حين يقف من تناله أيدي الظلم وقفة الضعيف الذي ينتصر بذرف الدموع ، فالشّاعر يريد أن يبرز لنا مدى نيل الظلم منه ، فشخصه إنساناً يمتلك أيدي قوية يبطش بها ويظلم ، وهذا التشخيص نابع من إحساس ذاتي عميق .

ولا يمكننا هنا أن نتجاهل كلمة (أيدي) التي استخدمها الشّاعر في صورته، والتي يهدف من خلالها إلى (إقناع المتلقي)^(٣) بفكرة أن للظلم أيدي ؛ ولذلك لجأ إلى جمع الكثرة^(٤) ، فأيدي على وزن أفعّل، وهو للكثرة

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د / جابر أحمد عصفور ، ص ٣٦٨ .

(٤) عبد القاهر يرى أن الإتيان بالاستعارة المراد بها المبالغة ، لا نقل اللفظ عما وضع له في اللغة .

انظر : دلالات الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٤٣٢ .

ليدعي بها الشّاعر شدة تمكن الظلم منه ومدى معاناته منه، كما أنه يريد -
أيضاً - « تقوية الظن لدى المتلقي ونفي الرّيب والشكّ عن نفسه ، وإقناعه
بصحة ما ترمي إليه الصّورة من معانٍ »^(١) .

ويقول واصفاً شدة معاناته من الخطوب^(٢) :

كَمْ أَنْشَبَتْ فِيَّ الْخُطُوبُ مَخَالِبًا

حَتَّى انْثَنَتْ عَنِّي بِغَيْرِ مَخَالِبِ

فينفث الشّاعر في الخطوب روح الحيوان المفترس الذي يمتلك مخالباً
قوية يغدر بها ويفتك بضحيته (الشّاعر) الذي ترك مخالبه فيه . ولم يكتف
ابن درّاج في تصوير معاناته واغترابه في الخطوب فقط ، بل نرى سمة
التشخيص تتجلى في الرياح والسحاب والبروق ، إذ يقول^(٣) :

يَهَيِّجُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيحِ

مَدَامَعَ شَجْوِ السَّحَابِ الْمُخِيلِ

وَتَلَطِّمُ فِيهَا أَكْفُ الْبُرُوقِ

خُدُودَ عِرَاصٍ عَلَيْنَا تُكُولُ

ابن درّاج شاعر مغترب ذليل؛ ولهذا نجد أن الرياح تحزن عليه فتطلق
الزفرات مواساة له ومشاركة وجدانية ؛ لتعبّر عن مدى حزنها وألمها على
ذلك الغريب ، بل إننا نلمح صورة أخرى ، فليست الرياح وحدها التي
حزنت من أجله ، فهناك السحاب التي تنهمر دموعها لحزنها على الشّاعر

(١) قصيدة المديح - قضاياها الموضوعية والفنية ، د / أشرف نجا ، ص ٢٢٨ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

المغترب ، وكذلك البروق لها أكف تلطم بها حدود السحاب الحزينة على الشاعر .

فابن درّاج جعل من مظاهر الطبيعة أشخاصاً ليشرح حالته النفسية ، والتي استطاعت الصّورة بدورها إبرازها لنا . وفي صورة تشخيصية أخرى نلمس فيها الحركة الانفعالية للشاعر ؛ إذ يقول (١) :

حَتَّى بَدَأَ الصُّبْحُ مُشْمِطًا ذَوَائِبَهُ

يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًا أَكَارِعَهُ (٢)

إذ شخّصها في صورة الصباح الذي جعله ثوراً وحشياً أبيض ، يطارد الليل الأسود حتى انكشفت أكارعه ، إذا الليل - أيضاً - جعله حيواناً خائفاً من الصباح (الثور الوحشي) فطارده ، فجرى بسرعة مذهلة حتى تكشفت أكارعه . فالشاعر جعلنا نستحضر الصّورة ذهنيّاً ، وكأننا نرى ذلك الصباح الذي استحال ثوراً بياضه ، يطارد ذاك الليل الأسود الذي تكشفت أكارعه ، ويمضي ابن درّاج في استحضار تلك الصور في ذهن القارئ لي شاهد هنا الصباح في صورة طير يحلق في السماء ، إذ يقول (٣) :

أَغْرُلُهُ جَنَاحٍ مِنْ صَبَاحٍ

يُرْفَرِفُ فَوْقَ جُنْحٍ مِنْ مَسَاءٍ

فالشاعر جعل للصباح جناحاً يطير به ويرفرف فوق جنح المساء ، فصورة ذلك الجناح الذي يرفرف بحركته تلك دليل على سرعة انقضاء ذلك الصباح ليأتي الليل بهيمومه وسوداويته .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٦ .

(٢) مَوْشِيًا : من أوشى الفرس : أخذ ما عنده من الجري ، وأكارع : الكراع من البقر والغنم ، وهو مستدق الساق العاري من اللحم .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٧٣ .

ويقول - أيضاً - واصفاً شدة اغترابه (١) :

وَلَقَدْ كَرَرْتُ عَلَى الْمَلَامِ بَزْفَرَةَ

ذَهَلِ الْعِتَابُ بِهَا عَنِ الْإِعْتَابِ

ابن درّاج يلوم ويعتب فيطلق زفرة يذهل العتاب منها ، فالشاعر جعل العتاب شخصاً يذهل ويتعجب من قوة الزفرة التي تنبعث من أعماق ذلك القلب .

ويرى ابن درّاج في البيت التالي أن الخطوب تهتك سره ، يقول (٢) :

فَيَا عَجَبَ الْخُطُوبِ يُبْخَنَ سِرِّي

وَقَدْ أَيَقَنُّ أَنَّ بِهِ اعْتِصَامِي

فالشاعر يجعل من الخطوب شخصاً هاتكاً للسّر ، غير كتوم له بالرغم من معرفة تلك الخطوب ، فإنّ عدم إفشاء السّر يعني اعتصام الشاعر ، فهذا التشخيص ظاهر إزاء تجربة نفسية يكتظُّ بها قلب الشاعر المهموم ، ويقول - أيضاً - في صورة تشخيصية يصور فيها الدهر إنساناً يتعجب ويندهش من قوة تحمله وصبره في حين يرى هو أنه من باب أولى أن يتعجب ذلك الدهر من بقائهم على قيد الحياة بالرغم من تلك الظروف والصعاب التي مرت بهم ، فيقول (٣) :

فَإِنْ يَعْجَبِ الدَّهْرُ أَنَّا صَبَرْنَا

فَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ أَنَّا بَقِينَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

فهذه الصُّورة نابغة من إحساس وانفعال نفسي نتيجة لتلك الظروف القاسية التي تقلب فيها الشَّاعر، واستطاع تحملها مما أثار في نفسه الدهشة والاستغراب ، فشخص هذه الحالة في الدهر .

٢- **الاستعارة:** هي «ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي» (١)

ومن استعارات ابن درَّاج البعيدة قوله (٢) :

بُذُنٌ فَدَتْ مِنَّا دِمَاءَ نُحُورِهَا
بِقَائِهَا فِي كُلِّ أَفْقٍ مَنَحَرًا
نَحَرَتْ بِنَا صَدْرَ الدُّبُورِ فَأَبْطَتْ
قَلَقَ الْمَضَاجِعِ تَحْتَ جَوْ أَكْدَرَا
خَوْضٌ نَفْحَنَ بِنَا الْبَرَى حَتَّى انْشَنَتْ
أَشْلَاؤُهُنَّ كَمَثَلِ أَنْصَافِ الْبُرَى
وَصَبَتْ إِلَى نَحْرِ الصَّبَا فَاسْتَخْلَصَتْ
سَكَنَ اللَّيَالِي وَالنَّهَارِ الْمُبْصَرَا

يقول إحسان عباس «شبه البعير التي تنقلهم من مكان إلى آخر حتى أوصلته إلى ممدوحه بالهدي التي تنحر في الحج ، فهي خلقت وأوجدت لتنحر، فواجهت الدبور، فأثارت مضاجع القلق فيه في ذاك اليوم الذي كان جوه مغبراً أكدر بدت فيه تلك البعير كأنصاف البر، ثم مالت تلك البعير إلى قتل أو نحر الصبا ، فاستخلصت سكن الليالي والنهار المبصر. والملحوظ في

(١) علم البيان لعبد العزيز عتيق ، ص ١٧٥ .

(٢) ديوان ابن دراج ، ص ١٠٤ .

هذه الصُّورة تَكُفُّ ابن درَّاج في طلب المعنى يقول د . إحسان عباس : ثم تضيق هذه الحلقة بين التكلف بالمعنى والكلف بالفنون البديعية ، فإذا معاني ابن درَّاج ألغاز عسرة الحل تتطلب من القارئ تحيلاً في الفهم ، وشروداً في التصوير «^(١) .

ويقول - أيضاً^(٢) :

وَنَادَى نَدَاكَ عَلَى الْأَرْضِ حَيٍّ

عَلَى مُسْتَقَرِّ الشَّرِيدِ الطَّرِيدِ

فالشاعر يصور لنا الندى ، وقد استحال شخصاً يتكلم ويصرخ لينقذ ذلك الغريب من حياة التشرد والاعتراب .
ويقول - أيضاً - متشوقاً لأحبته وأقاربه^(٣) :

فَهَلْ أَنْتَ يَا زَمَنَ الرَّيِّعِ مُبْلَغٌ

بِالْمَغْرِبَيْنِ أَحَبَّتِي وَأَقَارِبِي

فالربيع هنا شخص يحمل رسالة من المغربين ليلبغهما ويلقها بين أحبته وأقاربه ، فالشاعر يمر بحالة نفسية ، فلجأ إلى التشخيص الذي يؤثر في النفوس - على حد قول عبد القاهر الجرجاني : « فإننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر »^(٤) .

ونستطيع أن نقول أن ابن درَّاج استطاع أن ينقل تجربته النفسية عن طريق التشخيص والاستعارة الذي جعل فيه الشاعر ما لا يعقل عاقلاً ، يشعر ويتألم ويحزن

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣٩ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٤) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٩٥ .

ويبكي ويتعجب ، فالصورة لم تقف عند حد الزينة والزخرف ، بل تجاوزت ذلك لتكون هي المتنفس الذي يكشف فيه عن كربته وألمه ، والتي استطاع الشاعر بحذقه وشاعريته أن يجعلنا نتفاعل ونتعاش معه في عالمه الكئيب الحزين ، وهذا إن دل فإنه يدل على صدق عاطفة الشاعر، إذ أنه يصف ويصور حالة نفسية يمر بها ؛ ولهذا لجأ إلى التشخيص ، يبرز به كوامن النفس وما تحمله من تعاسة وحزن .

٣- التشبيه :

وهو « صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة »^(١) ، ويقول الباقلاني : « هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل »^(٢) ، وكما ذكرنا أن التوليد الذهني باللغة المجازية يشمل التشبيه الذي يلجأ الشاعر إلى استخدامه ، فيعقد مشابهاً بين أمرين يشتركان في صفة واحدة . وهذه الصفة التي يريد ابن درّاج إبرازها هي صورة الاغتراب والإحساس بالحزن والفجعة مما يكسب الصورة جواً مشحوناً بكل طاقات الأسى والحزن ، ومن ذلك قوله مصوراً اغتراب أبنائه وغربتهم^(٣) :

بِسَبْعٍ كَسَبْعِ سَمَامِ السَّمُومِ

وَأَرْبَعَةٍ كَرُبُوعِ الْعَفَاءِ

فالشاعر يشبه اضطرار أبنائه إلى الرحيل والاغتراب بطائر السمان الذي عصفت عليه الرياح ، وهي رياح السموم لتجعله مضطراً إلى الرحيل وترك مربضه .

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن الرشيقي ، ص ٤٦٨ ، المجلد الأول .

(٢) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٢٦٢ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٧ .

ويقول ابن درّاج معبراً عن حالة الاغتراب^(١) :

أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا

سَوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سَوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ

شبه الشاعر البحر بالقبر ، كما جعل الماء أكفأنا ، وهو تشبيه بليغ يشعر فيه أن المشبه هو المشبه به ، ولذلك جاء به ابن درّاج ليرز لنا شدة معاناته ، فالبحر بمثابة القبر له ، والماء ما كان إلا كفن له ، وهذا دليل على شدة الضيق وإحساسه بدنو الموت منه ؛ ولذلك قال : (أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ ؟

ومن الصور الفنية - أيضاً - قول ابن درّاج^(٢) :

وَلَا كَبَنِي سَبِيلٍ شَرَّدَتْهُمْ

عَنِ الْأَوْطَانِ قَاضِيَةَ الْقَضَاءِ

عَوَاصِفُ فِتْنَةٍ غَمَّتْ بِغَيْمٍ

بَوَارِقُهُ سُيُوفُ الْإِعْتِدَاءِ

فَأَصْعَقَهُمْ بِرَاعِدَةِ الْمُنَايَا

وَأَمْطَرَهُمْ شَايِبُ الْفَنَاءِ

وَطَافَ عَلَيْهِمْ طُوفَانُ رَوْعٍ

أَفَاضَ بِهِمْ إِلَى الْقَفْرِ الْفَضَاءِ

فقد جعل للفتنة عواصف تعصف ، وغماماً وبرقاً ورعداً ، يصعق بالموت والفناء ، وجعل الفتنة تمطر موتاً متدفقاً لا ينجو منه إلا من هرع إلى

(١) ديوان ابن دراج ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

الفضاء المقفر الذي لا ماء فيه ولا زرع ، وعاش حياة تشرد وغربة ، فاللوحه قائمه تعكس الكآبة حينما شبّه لمعان البرق بلمعان السيوف في تلك الظلمة ، فحينما كانت الكآبة والضيق والسوداوية تحيط بهم لمع البرق وكشف عن تلك الحالة . ويقول - أيضاً - مصوراً شدة اغترابه^(١) :

فَكَمْ لُجَّ بَحْرٍ وَضَحَضَاحٍ قَفَرٍ
تَمَثَّلَ لِي فِيهِ هَوْلُ الْقِيَامَةِ

فقد شبه الشاعر الأهوال التي تعرض لها في البحر والقفر بأهوال يوم القيامة .

ويقول مصوراً تشتت أبنائه من حوله لحظة الوداع^(٢) :

وَيَصْدَعُ مَا ضَمَّ الْوَدَاعُ تَفَرُّقٌ
كَمَا انْشَعَبَتْ تَحْتَ الْعَوَاصِفِ أَغْصَانُ

فقد شبّه تصدّع شمل أسرته وتفرقهم عند وداعه لهم بتشعب أغصان الأشجار عندما تهب عليها الرياح وتفرقها .
ويقول مصوراً شدة سواد الليل^(٣) :

فِي جُنْحٍ لَيْلٍ كَالْغُرَابِ أَطَارَ لِي
عَنْ مُلْتَقَى الْأَحْبَابِ كُلِّ غُرَابٍ

شبّه شدة سواد الليل الذي منعه من لقاء أحبته بالغراب في شدة سواده ويقول واصفاً إحدى أسفاره^(٤) :

(١) ديوان ابن دراج، ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥١.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٥.

كَأَنَّ عَلَى لُجَجِ الْبَحْرِ مِنْهَا

هَوَادِجٌ تَخْفُقُ بِالظَّاعِنِينَ

فقد شبه ركوبهم على ظهر الفلك وهم فوق لجة البحر يموج بهم
ويتحرك بالهوادج التي تحمل الظاعنين يتحرك بهم ويموج. ويقول مصوراً
معاناتهم^(١) :

كَأَنَّ رَوَاحِلَنَا فِي ضَحَاهُ

صَوَادِي سَمَامٍ حَداها السَّمُومُ

شَبَّهَ معاناة رواحلهم وإحساسهم بالعطش وقت الضحى بطائر
السمام العطش في وسط السموم الذي يلفحه بلظاه .
ويصور كثرة رحيلهم حتى أن بعيرهم هزلت فيقول^(٢) :

وَقَمْنَا إِلَى أَنْقَاضِ سَفَرِ كَأَنَّهُا

وَقَدْ رَحَلَتْ شَطْرًا شَطُورُ بُرَاهَا

فابن درّاج يشبه البعير الذي يتنقلون به لهزاله وضعفه لكثرة رحيلهم بأنصاف البر .
ويصور ابن درّاج كثرة همومه وكربه إذ يقول^(٣) :

كُرْبًا كَمَوْجِ الْبَحْرِ لَا إِهْلَالُهُ

إِلَّا إِلَيْكَ بِهَا وَلَا تَهْلِيلُهُ

فهو يشبه كثرة كربه وهمومه التي تتدافع عليه بموج البحر في قوته
وتتدافعه وبهذا نستطيع أن نلمس معاناة الشاعر وانفعاله، بل استطاع الشاعر
بصورته تلك أن يجعلنا نتعرف على ماهية الكرب والمصائب بالنسبة له .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

ولم يكتفِ ابن درّاج في وصف تلك الكرب بموج البحر ، بل نراه -
أيضاً - يصور أشجان أبنائه وأحزانهم في صورة موج البحر الذي يموج بهم .
يقول (١) :

وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرِ شَجَاكُمْ
بِبحرِ حَصَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانُ

فقد شبّه كثرة أحزانهم وأشجانهم بموج البحر في قوته، وتتجلى لنا
الصُّورة التشبيهية في الأبيات التالية التي يصف فيها شدّة ذعره وخوفه في
إحدى رحلاته ؛ إذ يقول (٢) :

كَأَنَّ خُفُوقَ الْقَلْبِ مَدَّ جَوَانِحِي
بِأَجْنَحَةٍ رِيشتَ مِنَ الرُّوعِ وَالذُّعْرِ

فقد شبّه شدّة خفقان قلبه ، وامتداد الخوف والذُّعر منه بامتداد
أجنحة الطائر حينما يمدّها ليطير حينما يرى شيئاً يفرّعه ويروعه .
وهكذا يبدو للوهلة الأولى أن هذه الصور ليست مبتكرة ؛ لأن تشبيه
الليل بالغراب ، وتشبيه الهموم والكرب بموج البحر ، وتشبيه خفوق القلب
بأجنحة الطائر ، وتشبيه البعير الهزيل بأنصاف البر ، أو تشبيه أبنائه بالطيور
أو بأغصان الأشجار ، كلها صور مألوفة متداولة « ولكن الجدّة والطرافة في
تلك الأبيات تأتي من تفاعل الصُّور وائتلافها من خلال إعادة تنسيق مفرداتها
وفق إحساس الشّاعر وحرّكه النفسية » (٣) .

ونستطيع أن نقول أن التشبيه عند ابن درّاج في قصائد الاغتراب يسير
على النهج التقليدي الذي اعتمد على السهولة والوضوح .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) قصيدة المديح - قضاياها الموضوعية والفنية ، د / أشرف نجا ، ص ٢٠٨ .

٤- الكناية:

«وهو لفظ أُريدَ به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»^(١).
ولهذا كانت الكناية من «الأساليب التي لا يقوى عليها إلا كل بليغ متمرس
بفن القول»^(٢).

وتأتي مزية الكناية في إثبات المعنى - كما قال عبد القاهر الجرجاني :
« أن ليس المعنى إذا قلنا : « إنَّ الكناية أبلغ من التصريح » أنك لما كُنيت
عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد
وأشد»^(٣).

ومن صور الكناية في شعر ابن درّاج ، والذي تطرق فيه الحديث عن
غربته واغترابه قاصداً فيها إثبات وتأکید إحساسه بالاغتراب ، قوله واصفاً
شدة معاناته أثناء اغترابه «^(٤).

وَلَا أَلْقُوا عَصَا التَّسْيَارِ حَتَّى

عَفَتْ حَلَقُ الْبَطَانِ مِنَ اللَّقَاءِ

فقلوه : (حَلَقُ الْبَطَانِ) كناية عن اشتداد الأمر بهم ، فجاء جمال
الكناية في إبراز ذلك المعنى في صورة محسوسة ومرئية ، فالبطان : هو الحزام
الذي يشدُّ تحت بطن البعير ، ويكنى - أيضاً - واصفاً شدة معاناته
وحاجته ، يقول»^(٥) :

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، ص ٣٠١ .

(٢) علم البيان ، د .عبد العزيز عتيق ، ص ٢٢٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٧١ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٧٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

نَرَعَى الْمَهِشِيمَ وَنَمْتَصُّ الثَّمَارَ وَقَدْ

أَظْلَّ أَنْهَارَنَا الْأَغْصَانُ وَالْثَمَرُ

فهو يَكْنِي عن ضيق الحال إذ قال : « نرعى المهشيم ونمتص الثمار »
وفيه دلالة على اشتداد الأمر بهم حتى وصلوا لتلك الحالة الصعبة .

ويصور ابن درّاج مدى ترده ، فقال (١) :

وَتَأْخِيرَ رَجُلٍ بَعْدَ تَقْدِيمِ أُخْتِهَا

حَذَارًا لِدَهْرِ لَا يُغْمِضُ عَنْ حَرْبِي

فقوله : « تأخير رجل بعد تقديم أختها » كناية عن شدة ترده
وحيرته ، ولم يقل الشاعر : (كنت متردداً) ، بل لجأ إلى أسلوب الكناية
الذي زاد البيت زيادة في إثبات المعنى وبيان اشتداده وتأكيده ، كما أن
أسلوب الكناية جعلنا نلمس ونشاهد تلك الصفة الملازمة لتلك الحركة من
التقديم والتأخير .

فالكناية مثل التشخيص أو الاستعارة في تشخيصها للمعاني وتجسيدها
في صورة متحركة حية ، ويقول - أيضاً (٢) .

وَبَارِقَةٍ مِنْ مُقْلَتِي أَمِ مِلْدَمٍ

تَنْتَنِي صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَنْبِ

فقوله : (أم ملدم) كناية عن الحمى التي أصابته فأعجزته عن الحركة،
فجعلنا وكأننا نرى أم ملدم تنتن عليه وتكبل يديه وجنبه فصورها في صورة
محسوسة ومرئية .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

فهي تنفث سمومها فيه وتحيا على لحمه ودمه ، وتصيبه بآلام وأوجاع خارقة ، وتصليه بشدّة حرارتها . وهكذا نستطيع أن نقول إنّ الكناية التصويرية التي جاء بها ابن درّاج استطاع من خلالها أن يبرز جانباً من جوانب معاناته النفسية ، وإنّ كانت هذه الصّورة أقل وضوحاً لوصف ذلك الانفعال الشديد مقارنة بالتشبيه والتشخيص اللذان بلغت فيهما الصّورة مبلغاً عظيماً ؛ إذ استطاع الشّاعر من خلالهما الكشف عن عمق إحساسه بالغربة والاغتراب .

٥- التقابل الإيحائي:

وهو - كما ذكرنا سابقاً - إتيان الشّاعر بصورتين متقابلتين تصفان حالته في الماضي وحالته في الحاضر بكل ما فيهما من سعادة وألم .
وقد لجأ ابن درّاج إلى استخدام مثل هذا الأسلوب ليظهر لنا أوجه المفارقة بين الحالتين وليبرز - أيضاً - شدة معاناته وانفعاله ، ومن أمثلة ذلك قوله^(١) :

وَإِنْ أَعْلَقْتُ فِي حَبْلٍ مُلْكِكَ حَبْلَهَا
فَحَبْلٌ مِنَ الْأَحْبَابِ مَنْصَرْمُ الْقَطْعِ
وَإِنْ أَخَصَبْتُ فِي زَرْعٍ نَعْمَاكَ رَعِيَهَا
فَكَمْ قَدْ تَخَطَّتْ وَادِيًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ
وَإِنْ أَرَفَهَتْ فِي بَحْرِ جُودِكَ شَرِبَهَا
فَمِنْ ظِمءِ عَشْرِ فِي الْهَجِيرِ إِلَى تِسْعِ
وَإِنْ تُحْيِي يَا (يَحْيَى) حُشَاشَةَ نَفْسِهَا
فَتُنْعَبَةُ حَسْرِ الْمَوْتِ مُوشِكَةُ الْجَرَعِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

ففي الماضي كان جبل شملهم منقطع ، وفي رحاب المدوح جمع
شملهم ، وأخضبت حياتهم بعد أن كانوا في وادي غير ذي زرع ، وبعد
الظمأ والتلطي بنار الهجير ارتووا بأعذب ماء ، وبعد أن احتسوا الموت
وتجرعوا آلامه أحياهم المدوح بمنواله وبكرمه وعطائه ، فهذه الصورة
التقابلية جعلتنا نشاهد تلك الصور في صورة مرئية ، فاجتماع الشمل وعدمه
شخصه في الحب والتنعيم بالخير جسده في خصوبة الزرع والفقر شخصه في
الوادي اليابس الذي لا ماء فيه ، كما أنه جعل الموت كالماء الذي يحتسي
ويتجرع .
ويقول (١) :

وَأَنْتَ أَنتَ الصَّرِيحُ السَّمِيعُ
إِذَا صَمَّ مُسْتَمِعٌ عَنْ نِدَائِي
وَأَنْتَ دُونِي طَوْدٌ مَنِيعٌ
عَلَى الدَّهْرِ مُسْتَصَعِبُ الْارْتِقَاءِ
وَأَنْتَ أَنْتَ الشَّفِيعُ الرَّفِيعُ
بِدَائِي إِلَى مُسْعِفِ الدَّوَاءِ

إلى أن قال :

وَكَمْ عُقِرَتْ دُونَ عُقْرِ الْحِياضِ
سَوَامِي وَأَزَّتْ أَمَامَ الْإِزَاءِ
فَرُخْتُ بِهَا مُخْمِصًا فِي الْبَطَانِ
وَأَصْدَرْتُهَا مُظْمًى فِي الرِّوَاءِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

فالصورتان متقابلتان ، وتظهر هذه المقابلة بين صورة (السمع - الصم) ،
فإن كان قد صمَّ عن سماعه فقد قابل من يسمع منه ، ثم التقابل بين (الداء - الدواء)
، ثم تأتي صورة التقابل الإيحائي في قوله : (فرحت بها مخمّصاً في البطان) ،
و(أصدرتها مظمناً في الرواء) .
وقوله - أيضاً^(١) :

فَبَدَّلَنَ مِنْ بَعْدِ خَفَضِ النَّعِيمِ
بِشَقِّ الْحُزُونِ وَوَعَثِ السُّهُولِ
وَمِنْ قَصَرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الْحِجَالِ
بِهَوْلِ السَّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
وَمِنْ عَلَلِ الْمَاءِ تَحْتَ الظَّلَالِ
صِلَاءَ الْقُلُوبِ بِحَرِّ الْغَلِيلِ
وَمِنْ طِيبِ نَفْحِ بُنُورِ الرِّيَاضِ
تَلَطَّيَ لَفْحِ بَنَارِ الْمَقِيلِ
وَمِنْ أَنْسِهَا بَيْنَ ظُنُرٍ وَتَرْبِ
سُرى لَيْلِهَا بَيْنَ ذَيْبٍ وَغُولِ
وَمِنْ كُلِّ مَرَأَى مُحِيًّا جَمِيلِ
تَلَقَّى الْخُطُوبَ بِصَبْرِ جَمِيلِ

ويوظف الشاعر التقابل بين صورة الاستقرار ، وصورة الرحيل في
تركيب واحد ؛ ليرز المفارقة بين الصورتين التي تحمل خلف هذه المقابلة
إحساس متناقض يجمع بين الفرح والحزن المتمثل في خفض النعيم ووعث

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

السهول ، وبين صورة (قَصِرَ اللَّيْلُ تَحْتَ الْحِجَالِ) ، و(بِهَوْلِ السَّرَى تَحْتَ
لَيْلٍ طَوِيلٍ) ، وبين (عَلَلِ الْمَاءِ تَحْتَ الظَّلَالِ وَصِلَاءَ الْقُلُوبِ بِحَرِّ الْعَلِيلِ) ،
وبين (طِيبِ نَفْحِ بُنُورِ الرِّيَاضِ) ، و(تَلَطَّيْ لَفْحِ بِنَارِ الْمُقِيلِ) وبين الإقامة بين
(ظُنْرٍ وَتَرْبٍ) ، والسرى بين (ذِيبٍ وَغُولٍ). فهذه المفارقة صورت اختلاط
الكآبة بالفرح تبعاً لتغير الحال ، فالأبيات تصور حالة نفسية نَمَّ عنها وصرح
بها حالة الغربة والرحيل الدائم .

ويقول (١) :

فَلَنْ صَفَا مَاءَ الْحَيَاةِ لَدَيْكَ لِي
فَبِمَا شَرَفْتُ إِلَيْكَ بِالمَاءِ الصَّرَى (٢)
وَلَنْ خَلَعْتَ عَلَيَّ بُرْدًا أَخْضَرًا (٣)
فَلَقَدْ لَبِسْتُ إِلَيْكَ عَيْشًا أَغْبَرًا
وَلَنْ مَدَدْتَ عَلَيَّ ظِلًّا بَارِدًا
فَلَكُمْ صُلَيْتُ إِلَيْكَ جَوْأً مُسْعَرًا

إلى أن قال :

فَلَنْ تَرَكْتَ اللَّيْلَ فَوْقِي دَاجِيًا
فَلَقَدْ لَقِيتُ الصُّبْحَ بَعْدَكَ أَزْهَرًا

فمن الواضح هنا أن التقابل يقوم على وصف حياة الشاعر القائمة
على المتناقضات، فجمع بين (صَفَاءِ الْمَاءِ - مَاءِ الصَّرَى) ، وبين (بُرْدًا
أَخْضَرُ) وبين (عَيْشًا أَغْبَرُ) وبين (ظِلًّا بَارِدًا - جَوْأً مُسْعَرًا) ، وبين

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٥ .

(٢) الصرى : هو الماء الذي طال استنقاؤه .

(٣) بردًا : الثياب التي ليست لينة ولا دقيقة .

(ليل الدجى - الصبح الزاهر) . فنشأت المفارقة التصويرية لحال النعيم وحالة الضيق والفقر ، فصفاء الماء دلالة على رغد العيش ، أما ماء الصرى دليل على الحاجة والفاقة ، وقوله : (برداً أخضر) دليل على الغنى ، فاللون الأخضر يدل على الخير ، وكذلك ثياب البرود ، أما العيش الأغبر دليل على الفقر ، وهاتان الدالتان لا تظهران إلا بإعمال الذهن والتوسل إلى المعاني الخفية لتلك الدوال ، أما الصور الأخرى ، فسمات التقابل فيها تعتمد على الوضوح والتصريح ، كما اعتمدت على التقابل الحسي بين الطرفين .

ويقول أيضاً^(١) :

وَكَمْ بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ رَاعٍ وَحَافِظٍ
وُجُوهَ الْمَنَايَا السُّودِ وَالْحَدَقِ الْحُمْرِ
وَمَنْ رَفَرَفِ الْأَسْتَارِ دُونَ حِجَالِهَا
تَرْفَرَقَ لَمْعُ الْآلِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ

فالتقابل قائم بين (وَجْهِ رَاعٍ وَحَافِظٍ) ، وبين (وجوه المنايا) ، وبين (رَفَرَفِ الْأَسْتَارِ دُونَ الْحِجَالِ) ، و (تَرْفَرَقَ لَمْعُ الْآلِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ) ، فالرعاية والحفاظ دليل على الخلود والبقاء ، وهو مقابل للمنايا السود التي تحاول الفتك به . ورفرف الأستار فمن باب المعرفة أن الأستار تكون في الحجول والقصور ، وهو دليل على الخير والاستقرار والراحة ، في حين تأتي الصورة التقابلية في تفرق ، ولمعان النجوم في القفر الموحش دليل على الغربة ، وفي كلتا صورتين تظهر المفارقة التي تبرز الحالة النفسية للشاعر ، فالرعاية والاستقرار في الحجال يظهر حالة الفرح والسرور ، في حين أن وجوه المنايا السود ، والسير في القفر الموحش يظهر حالة الحزن والقلق والتوتر . والملاحظ في تلك المفارقات اعتماده على الصور الحسية والمعنوية ،

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٨ .

ففي البيت الأول قابل بين المعنوي والمعنوي ، فالشعور بالرعاية والاهتمام أمر معنوي ، والشعور بقرب الأجل شيء معنوي ، أمّا في البيت الثاني فقابل بين حسي وحسي ، فرفرفة الأستار في القصور أمر حسي يُبصر ويُشاهد ، كما أن ترقق لمع الآل في القفر شيء محسوس أيضاً . وهكذا نستطيع أن نقول : إنَّ التقابل الإيحائي في شعر الاغتراب عند ابن درّاج اعتمد فيه على التفصيل أو الإطناب المفيد المصور للحالتين المتناقضتين ، فلم يكتف الشّاعر بذكر صورة واحدة ، بل اعتمد على عدّة صور لتصوير كل حالة من الحالتين المتناقضتين ، فمثلاً حينما أراد الشّاعر أن يصور حياة النعيم والاستقرار اعتمد على وصف قصر الليل في الحِجَال ، وعلل الماء والظلال الوارفة وطيب النّفح الذي ينبعث من الرياض ، والنور والأنس والسعادة التي يشعر بها بين ظئر وترب ، ثم جاء بالصّورة المقابلة للنعيم والاستقرار ، فصور الرحيل والاغتراب ، فوصف طول الليل وصلاء القلوب والبحر الغليل والتلطي بنار المقيّل الذي يلفحه ويحرقه ، ثم السري بين الغول والذئاب . وبهذا فالشّاعر يجعل المتلقي كأنه يشاهد لوحتين تبرزان حالة التّضاد التي برزت في المقابلة والتي بدورها أظهرت المفارقة بين الطرفين سواء كان حسيّاً أو معنويّاً .

٦- المقابلة :

« هي ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً وآخره ما يليق به آخرًا ، ويأتي في الموافق بما يوافقه ، وفي المخالف بما يخالفه ، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة »^(١) . والمقابلة « قد تأتي في هذا الشكل التقليدي القائم على التّضاد بين معنيين ، وقد تبدو في صورة اختيار حتمي لأحد أمرين وفقاً لرؤية الشّاعر ، وإن لم يكونا كذلك في الواقع وهي في كل الحالات تكسب المعنى الشعري عمقاً وتنفت حوله شيئاً من التوتر »^(٢) .

(١) العمدة في صناعة الشعر ، لابن رشيق ، ص ٥٨٣ ، المجلد الأول .

(٢) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د / شفيع السيد ، ص ١٧ .

إذاً المقابلة كالتضاد والفرق بينهما أن التضاد يكون بين لفظتين ، أمّا المقابلة تكون بين جملتين متناقضتين، وكلاهما (التضاد والمقابلة) يصور أن حالة نفسية محتبسة في أعماق الشّاعر، فيأتي بالمقابلة أو التضاد ليعبر عن هذا القلق والتوتر الذي يتدثر به ، ومن أمثلة المقابلة :

قول ابن درّاج (١) :

فهلّت اليَسَارَ يُيسِرَى جَوَادٍ

وَحُطَّتْ الذَّمَارَ يُؤْمَنَى بِخَيْلٍ

ويقول متحدثاً عن غربته (٢) :

مِنْ كُلِّ مَفْجُوعٍ بَتَّرَحَةٍ رَاحِلٍ

لَمْ يُسْلِهِ طَمَعٌ بِفَرَحَةٍ آيِبٍ

ففي المثال الأول المقابلة بين (يسرى جواد - يمين بخيل) والمثال الثاني بين (ترحه راحل - فرحة آيب) هذه المقابلة أكسبت الأبيات السابقة إيقاعاً ونغمًا موسيقيًا يتناسب مع شعور الشّاعر المتوتر . وبهذا فالصورة الشعرية في شعر ابن درّاج كشفت عن معاناة كامنة عميقة استطاعت الصورة أن تصل إلى تلك المعاناة الغائرة في النفس لتكشف عنها بعدة صور تمثلت في التشخيص والاستعارة والتشبيه والكناية والتقابل الإيحائي والمقابلة.

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

رابعاً - الموسيقى

الشعر يقوم على إيقاعات موسيقية تؤثر على قلوب السامعين «ومعلوم أن الموسيقى هي إحدى المقومات الفنيّة الضرورية للشّعر ، وهي أداة بالغة الأهمية لكل شاعر في أي موضوع يطرقه»^(١) ، ولهذا يقول ابن طباطبا : « وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه ، وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى ، وعذوبة اللفظ ، فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تم قبوله واشتماله عليه ، وإن نقص جزء من أجزائه التي يكمل بها ، وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه»^(٢) . ويمكن أن نستعرض خصائص التشكيل الموسيقي في شعر الاغتراب اعتماداً على الظواهر الأسلوبية اللفظية والمعنوية . والتي تتفاعل معها النفوس خاصة إذا كان الشّاعر يصف حالة نفسية عنهاها واكتوى بها ، فمن خلال الألفاظ وما تصدره من إيقاعات موسيقية تقوم بعملية جذب تجعل السامعين يتفاعلون مع الشّاعر ويشعرون بألمه وحزنه ، وكلّما كان الإيقاع الموسيقي نابغاً عن طبع دون تكلف كان أثره أقوى وأكثر تأثيراً على السامعين ، ولهذا يقول عبد القاهر الجرجاني : « ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخرأ ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيّتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس إلا ما يزينها»^(٣) .

وسنقوم بتحليله الجانب الموسيقي من خلال الألفاظ المفردة اعتماداً

(١) التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، ص ٥١ .

(٢) عيار الشعر ، لابن طباطبا ، ص ٢١ .

(٣) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٥ .

على التردد الصوتي ، والقافية ، والتصريع ، والجناس ، والتكرار .

- الظواهر الأسلوبية في شعره

أولاً: الظواهر اللفظية:-

١ - التردد والتصدير^(١) :

« وهو أن يأتي الشاعر بلفظة معلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها معلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسيم منه »^(٢) .

ويقول ابن مُنْقَذٌ : « اعلم أن التردد هو رد أعجاز البيوت على صدورها ، أو ترد كلمة من النصف الأول في النصف الثاني »^(٣) .

« والتصدير قريب من التردد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي ، ترد على الصدور ، ولا تجد تصويراً إلا كذلك ، حيث وقع من كتب المؤلفين وإن لم يذكروا فيه فرقاً ، والترديد يقع في أضعاف البيت »^(٤) .

وقد اعتمد ابن درّاج على الإيقاع الموسيقي في التردد بقصائد الاغتراب على النحو التالي :

(١) ابن منقذ يجعل التردد والتصدير شيئاً واحداً ، وجعلهما في باب واحد تحت مسمى التردد ، ويسمى التصدير . انظر : ص ٥١ .

ومنهم من يطلق عليه المشاكلة ، وهي ذكر المعنى بلفظ غيره ، أو بلفظ مضاد للفظ الغير ، أو مناسب له لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا .

انظر : علم البديع ، لسيبوني فيود ، ص ١٩٠ .

(٢) ومنهم من يُطلق عليه رد العجز إلى الصدر ، وهو أن يكون أحدهما في آخر البيت ، والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخر أو صدر الثاني . انظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، ص ١٠٢ ، المجلد ٢ .

(٣) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، ص ٥١ .

(٤) العمدة ، لابن رشيق ، ص ٥٦١ ، الجزء الأول .

ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني ،
قول ابن درّاج متحدثاً عن حاجته والتي كانت سبباً في غربته واغترابه ،
يقول^(١) :

وإنْ نَفَقْتُ عِنْدِي بِضَاعَةً قَانِعٍ
تَقَنَّنْتُ مِنْهَا فِي خَزَايَةِ مُعْتَرٍ
ويقول واصفاً مدى إحساسه باليأس^(٢) :

وإنْ غَزَتْ الْآمَالُ نَفْسِي صَرَمْتُهَا
بِصَارِمٍ يَأْسٍ فِي يَمِينٍ تُقَى حُرٌّ

ما وافق أول كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني ،
كقول ابن درّاج مخاطباً الشمس لتكون شفيعاً له عند ممدوحه ، يقول^(٣) :

فَكُونِي شَفِيعِي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ
وَكُونِي رَسُولِي إِلَى ابْنِ الرَّسُولِ
ويتحدث عن إصابته بالحمى في دار الغربة قائلاً^(٤) :

تَحَمَّلْتُهَا فِي حَرِّ صَدْرِي وَأَضْلَعِي
وَتَحْمِلُ أَحْشَائِي عَلَى الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ

ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول آخر كلمة في المصراع الثاني

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

قول ابن درّاج متحدثاً عن غربة أبنائه^(١) :

وَحَدَّثَ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ
أَوْطَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّ مُشَرَّدٍ

ويقول متحدثاً عن أهوال غربته^(٢) :

فَبَاتَ يَعْجَبُ مِنْ ظَنِّي يُصَارِعُنِي
وَقَدْ يَحِنُّ عَلَى لَيْثٍ أَصَارَعُهُ

ويقول - أيضاً - متحدثاً عن الرحيل^(٣) :

ظُعُنٌ سَرَيْنَ اللَّيْلَ ضَرْبَةَ لَازِمٍ
وَسَرَى إِلَيْهَا هَمٌّ ضَرْبَةَ لَازِبٍ

- ما وافق أول كلمة في المصراع الأول آخر كلمة في المصراع الثاني،
قول ابن درّاج متحدثاً عن الغدر^(٤) :

غَدَرْتُ بِهِ أَيَّامٌ قَدْ وَفَى
أَنَّ الْوَفَاءَ بَعْهْدِهِ غَدَارٌ

- ما جاء في آخر المصراع الأول موافقاً حشو المصراع الثاني ، كقول
ابن درّاج واصفاً اغترابه وغربته في البحر^(٥) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

وَفِي كُلِّ بَحْرٍ - كَمَا قِيلَ - خَلَقَ

صَغِيرٌ يُهَاقِظُهُ خَلْقٌ عَظِيمٌ

- ما وقع في حشو المصراع الأول ، ووافق أول كلمة في المصراع الثاني ، كقول ابن درّاج واصفاً صعوبة تحقيق آماله (١) :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ مِنَ الصَّبَابَةِ حَقَّهَا

فَقَضْتُ مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ مَا رِبِي

- ويصف اغتراب أبنائه ، يقول (٢) :

وَتَخَاذَرَتْ عَنْهَا الْعُيُونُ فَأَبْرَزَتْ

عَنْ أَعْيُنٍ بِدُمَائِهِنَّ سَوَاكِبِ

- ما جاء حشواً في المصراع الأول موافقاً آخر كلمة في المصراع الثاني ، كقول ابن درّاج واصفاً غربة أبنائه وكثرة عددهم (٣) :

أَخُو ظَمَاءٍ يَمْصُ حَشَاهُ سَبْعَ

وَأَرْبَعَةَ وَكُلُّهُمْ ظَمَاءٌ

ويقول ابن درّاج مودعاً زوجته (٤) :

لَنْ وَدَّعْتَ مِنِّي غُيُورًا فَإِنِّي

عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغُيُورٌ

- ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول حشو المصراع الثاني ، كقول

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

ابن درّاج في إحدى مقدماته الغزلية^(١) :

دَعَوْتُ لَهَا سُقْيَا الْحَيَا وَدَعَا الْهُوَى

وَبَرَحُ الْهُوَى دَمْعِي لَهَا فَسَقَاها

- ما وافق حشو المصراع الأول حشو المصراع الثاني ، كقول ابن درّاج واصفاً أهوال الغربة والرحيل^(٢) :

وَشَفَيْتُ سُمَّ عَقَارِبِ بِأَسَاوِدِ

وَدَفَعْتُ سُمَّ أَسَاوِدِ بِعَقَارِبِ

- ما وافق أول كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني وآخر كلمة فيه ، كقول ابن درّاج^(٣) :

وَأِنْ يَرُعْ نَارِحَ الْأَوْطَانِ عَنْكَ فَقَدْ

رَاعَ الْعِدَى مِنْهُ يَوْمَ أَنْتَ رَائِعُهُ

- ترديد الكلمة في المصراع الأول كقول ابن درّاج متحدثاً عن أبنائه في دار الغربة^(٤) :

قَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ

بَأْنِي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

- ترديد الكلمة في المصراع الثاني ، كقول ابن درّاج واصفاً اغترابه ،

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

يقول^(١) :

بَوَارِقُ ظُلْمَاءٍ ظَلَمِ تُسِيحُ

دُمَيٍّ مِنْ حَمَىٍّ أَوْ دَمًا مِنْ قَتِيلٍ

٢ - التكرار :

وهو إعادة النطق بالكلمة مما ينتج عنه إيقاع موسيقيًا ، « فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل فإذا تكرر اللفظ والمعني جميعاً فذلك الخذلان بعينه »^(٢) ، والتكرار يقوم على شروط يجب على الشاعر أن يتقيد بها، وإن لم يفعل كان تكراره ذاك من باب العبث لا قيمة له ، ولهذا يقول صاحب العمدة : « ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشويق والاستعذاب إن كان في تغزل ونسيب ، أو على سبيل التنويه والإشادة أن كان مدحاً ، أو على سبيل التقريع والتوبيخ ، وفي معنى التكثير والتعظيم ، أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاباً موجعاً ، أو على وجه التوجع والتفجع إن كان رثاءً وتأبيناً »^(٣) ، وغيرها من الأحوال التي تجعل الشاعر يكرر لفظاً معيناً .

وإذا نظرنا إلى الألفاظ التي يكررها ابن درّاج نجدها تصف مدى توجعه وألمه، ولهذا يكررها ليفيد بها معنى التكثير والتعظيم، ومدى عمق اغترابه .

يقول ابن درّاج واصفاً عمق الأسى والحزن الذي يتجرعه في غربته^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٥ .

(٢) العمدة ، لابن رشيق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩٨ ، وما بعدها .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٩ .

وَهَا أَئَذَا مَا إِنْ أَمُوتُ مِنَ الْأَسَى

بِوَقْرِ عَلَى وَقْرِ وَثَقْلٍ عَلَى ثَقْلٍ

فالشاعر كرر لفظ (وقر) وكرر (ثقل) ليصف لنا عمق ودرجة تمكن الحزن والأسى منه ليعطي البيت جرساً موسيقياً كما جعلنا نشعر بعظم الأسى وثقله الذي تجاوز المعقول بثقل على ثقل ، ويقول واصفاً مدى حزنه وغربته حتى أن الشمس تشاركه هذا الحزن^(١) :

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ

شَجِيَتْ لِشَجْوِ الْغَرِيبِ الدَّلِيلِ

فكرر كلمة (شجو) ليوضح مدى حزنه وتفاعل الغير معه ، مما أكسب البيت إيقاعاً موسيقياً حزيناً .

كما يصف الشاعر وداعه لأبنائه ، ولكي يوضح لنا حرارة ذلك الوداع عمد - أيضاً - إلى التكرار الذي أكسب البيت - أيضاً - إيقاعاً موسيقياً تشجو النفوس له ، يقول^(٢) :

نُودِّعُهُمْ شَجْوًا بِشَجْوٍ كَمِثْلَمَا

أَجَابَتْ حَفِيفَ السَّهْمِ عَوْجَاءُ مِرْنَانُ

ويصف غربتهم التي كانت بمثابة الموت لهم ليوضح لنا عظمة الأحوال والمصائب التي واجهتهم ، عمد إلى تكرار لفظة (الموت) ، يقول^(٣) :

(١)ديوان ابن درّاج ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣)المصدر السابق ، ص ٧٦ .

هُمْ اسْتَخْلَفُوا الْأَحْبَابَ أَمْوَاجَ لُجَّةٍ
هِيَ الْمَوْتُ أَوْ فِي الْمَوْتِ عَنْهُمْ سُلُوانٌ

ويصف ابن درّاج اغترابه ورحيله ، فيلجأ إلى التكرار ليوضح لنا كثرة رحيله،
يقول^(١) :

فَلِيلٌ إِلَى صُبْحٍ ، وَصُبْحٌ إِلَى دُجَى
وَكَرْبٌ إِلَى رَوْحٍ ، وَرَوْحٌ إِلَى كَرْبٍ

ويصف مدى إحساسه بالوحشة والافتراق في دار الغربة ، وعمق هذا
الإحساس فضلاً عما تتضمنه الكلمة المكررة من عمق (الجب) ، يقول^(٢) :

وَأَعْظَمُ تَأْنِيْسًا لِدَهْرِ يَمْنِ الْمُنَى
وَأَوْحَشُ مِنْهُ مِنْ فَتَى الْجُبِّ فِي الْجُبِّ

ويصف موقفاً من مواقف الوداع لزوجته ، فيعمد إلى تكرار (ذراف
الدموع) ، و(التحام الصدور) ، يقول^(٣) :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْوَدَاعُ مَدَامَعًا
بِمَدَامِعِ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ

وهذا التكرار الذي عمد إليه الشاعر قصد به إظهار معنى التوجع والتفجع ،
كما أعطى هذا التكرار نغماً موسيقياً تنساب له الدموع .

وفي خضم الإحساس بالاغتراب والغربة يحن ابن درّاج لموطنه الذي ابتلي
بالرحيل عنه ، فكان هذا الرحيل فاجعة له ، ولهذا يكرر كلمة (البلاء) ليحسد لنا
فاجعته وألمه ، يقول^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

لِلّهِ مِنْ وَطَنٍ قَلْبِي لَهُ وَطَنٌ
يَبْلَى وَأَبْلَى وَمَا تَبْلَى فَجَائِعُهُ

أما تكراره لكلمة (وطن) يوضح لنا فيه عظمة ومكانة هذا الوطن الذي ابتلي بالرحيل عنه .

ويصف ابن درّاج أسفاره ، فيكرر مما بعث في البيت نغمًا موسيقيًا ، يقول^(١) :

سَرَيْتَ فَأَلْحَقْتَ لَيْلًا بِلَيْلٍ
وَسَرْتَ فَوَصَّلتَ بَيْدًا بِبَيْدٍ

فتكرار ابن درّاج لكلمة (الليل) و (البید) توضح لنا مدى ضخامة معاناته، كما أن هذا التكرار - كما قلنا سابقًا - أعطى البيت جرسًا موسيقيًا حزينًا .

٣ - القافية :

هي « الحروف التي تبدأ بمحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت ، وتكون القافية كلمة أو كلمتين »^(٢) ، فالقافية إذا عبارة عن « المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة ، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت ، فأول بيت في قصيدة الشعر (الملتزم) يتحكم في بقية القصيدة من حيث الوزن العروضي ، ومن نوع القافية »^(٣) .

وحيث إنَّ الشعر « قد وجد في الأصل للغناء أي للتلحين ، واللحن فيه نقرات موسيقية أو نغمات متكررة كان من الضروري وجود مثل هذه النقرات في الشعر، وما هذه النقرات سوى القوافي المتكررة »^(٤) .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٨٤ .

(٢) شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل : العروض والقافية ، د / محمود مصطفى ، ص .

(٣) علم العروض والقافية ، د . عبد العزيز عتيق ، ص ١٣٤ .

(٤) الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، د . معروف الرصافي ، ص ٨٩ ، بغداد عام ١٩٥٦ م .

فالقافية — كما يقول ابن رشيق : «هي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية»^(١) . « فوجود القافية ضروري لوجود شعر دقيق في تكوينه الموسيقي ، ولذلك بوسعنا أن نعتبر الشعر العربي أدق أشعار الدنيا من حيث الروعة الموسيقية ؛ لما يلتزمه الشاعر من قواعد في أجزاء القافية فضلاً عن تفاعيل البحر الذي ينظم فيه ، وهو ما لا تجده في عروض كثير من اللغات الأخرى »^(٢) .

وسميت القافية بهذا الاسم « لأنها تقفو إثر كل بيت ، وقال قوم : لأنها تقفو أخواتها »^(٣) . والقافية « تركز بشكل أساسي على حروف الروي ، وهو جزء لا يتجزأ منها ، يتكرر بحركته في أواخر أبيات القصيدة ، وعليه تبنى القصيدة ، وإليه تنسب ، فيقال همزية ، أو بائية ، تبعاً لحرف رويها »^(٤) .

فحلاوة قوافي الشاعر هي التي تمنح القصيدة كلها جمالاً خاصاً ، ومتى استطاع الشاعر أن يسيطر على القوافي سيطرة دقيقة تمكن من تملك ناصية النظم الأصيل دون منازع »^(٥) . والحلاوة هذه تزيد كلما كان استدعاء تلك القوافي من غير تكلف — كما يقول قدامة بن جعفر ، حينما تحدث عن عيوب ائتلاف المعنى والقافية : « منها التكلف في طلب القافية ، وهي أن تكون القافية مستدعاة قد تكلف في طلبها ، فاشتغل معنى سائر البيت بها »^(٦) .

فالقافية حينما تأتي في القصيدة بطريقة عفوية دون تكلف يصدر منها جرساً موسيقياً يلائم الموقف والحالة النفسية التي يكون فيها الشاعر ،

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، ج ١ ، ٢٤٣ .

(٢) فن التقطيع الشعري والقافية ، د . صفاء خلوصي ، ص ٢١٥ .

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، ص ٢٤٧ ، م ١ .

(٤) القافية في العروض والأدب ، د . حسين نصار ، ص ٤٠ — ٤١ ، دار المعارف — القاهرة ، ١٩٨٠ م .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٦) نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، ص ٢٢٣ .

وحينما تتبعنا قصائد ابن درّاج يصف فيها اغترابه وغربته وجدّها قد سيقّت على ثلاثة عشر صوتاً من حروب الروي .

والروي: هو الحرف الذي بنيت عليه القصيدة - كما ذكرنا سابقاً - تنوعت ما بين حروف مجهورة ومهموسة، وقد تمثلت الحروف المجهورة في تسعة حروف، وهي^(١) :

- اللام : « فإنها صوت جانبي مجهور ، ينطق بأن يلتصق طرف اللسان باللثة، ويرتفع فيسد المجرى الأنفي عن طريق اتصاله بالجدار الخلفي للحلق ، مع حدوث ذبذبات للأوتار الصوتية »^(٢) .

- الباء : « فهي صوت شديد مجهور مرقق ، يتم نطقه بضم الشفتين ورفع الطبق ليغلق ما بين الحلق والتجويف الأنفي ، مع ذبذبة الأوتار الصوتية »^(٣) .

- الدال : « فإنها صوت شديد مجهور مرقق ، ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة ، والأسنان العليا التصاقاً يمنع مرور الهواء ، ورفع الطبق ليسد التجويف الأنفي مع ذبذبة الأوتار الصوتية ، وبقاء مؤخرة اللسان في وضع أفقي يزال يسد بانخفاض مقدمة اللسان ، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج »^(٤) .

(١) الأصوات المجهورة : هي التي يحدث في تكوينها أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف معهما أحياناً دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء ، فيحدث احتكاكاً مسموعاً ،

المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث ، د . رمضان عبد التواب ، ص ٤٢ .

(٢) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

- الميم : « فإنه صوت أنفي مجهور ينطق بأن تنطبق الشفتان تمامًا ، فيحبس خلفهما الهواء، ويخفض الطبقة ليمكن الهواء من الخروج عن طريق الأنف مع حدوثذبذبة في الأوتار الصوتية وبقاء اللسان في وضع محايد »^(١) .
 - العين : « صوت رخو مجهور مرقق نطقه بتضييق الحلق عند لسان المزمار ، ونتوء لسان المزمار إلى الخلف حتى ليكاد يتصل بالحائط الخلفي ، وفي الوقت نفسه يرتفع الطبقة ليسد الجرى الأنفي وتهتز الأوتار الصوتية »^(٢) .
 - الياء : « صوت مجهور بينه وبين صوت الكسرة الخالصة فرق يسير »^(٣) .
 - الراء : « صوت تكراري مجهور يتم نطقه بأن يترك اللسان مسترخياً في طريق الهواء الخارج من الرئتين فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه في اللثة ضربات متكررة مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية »^(٤) .
 - الثون : « صوت أنفي مجهور يتم نطقه بجعل طرف اللسان متصلاً بالثة مع خفض الطبقة ليفتح الجرى الأنفي وإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية »^(٥) .
 - الألف : « صوت مجهور يحدث عن النطق به ذبذبة للأوتار الصوتية » .
- أذا الصوت المجهور تنتج عند ذبذبات صوتية مما يكسب الكلام إيقاعاً وسيقياً. والأصوات المهموسة التي اعتمد عليها الشاعر عند حديثه عن الاغتراب والغربة أربعة أصوات ، وهي :
- السين : « فهو صوت رخو مهموس مرقق لا يفترق عن الزاي في نطقه إلا أن الأوتار الصوتية تهتز مع الزاي ولا تهتز معه »^(١) .

(١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

- الهاء : « فإنها صوت رخو مهموس مرقق يتم نطقه بأن يحتك الهواء الخارج من الرئتين بمنطقة الأوتار الصوتية دون أن يحدثذبذبة الأوتار ويرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي »^(٢) .

- الحاء : « فهو صوت رخو مهموس مرقق لا يحدث أي ذبذبات صوتية للأوتار »^(٣) .

- التاء : « صوت شديد مهموس مرقق يتميز بعدم إعمال الأوتار الصوتية »^(٤) .

« أما الهمزة فهي ليست بالمجهور ولا بالمهموس »^(٥) .

والملاحظ بعد هذا الاستقراء للقوائد التي تناولت الحديث عن الاغتراب والغربة اعتمادها بشكل كبير على الأصوات المجهورة والتي تتسم بالقوة والشدّة ، ولعل الظروف القاسية التي عاشها هذا الشّاعر وراء هذا الاختيار الموسيقي الصّاحب ، فالشّاعر - كما قلنا سابقاً - يعاني حالة اغتراب وغربة ، وهو في حاجة ماسة للاستقرار والهدوء ، ولذلك جاء هذا الانفعال شديداً ، فواكب بذلك الحالة الشعورية للشاعر . كما أنّ للظروف التي نُظمت القصائد لأجلها (المديح) سبباً في ظهور هذا الصوت المجهور ، فهذا الصوت لا بد أن « ترسم بإيقاعه الواضح أجواءً أثيرية أسطورية تواكب معاني القوة والشجاعة والشرف والكرم والبطولة والفروسية والمجد

(١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٥) سيبويه يعد هذا الصوت مجهوراً ، بينما الباحثون مثل : د. إبراهيم أنيس وكمال بشر يعدونه صوتاً لا بالمجهور ولا بالمهموس . للوقوف على تلك الآراء انظر كتاب المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د. رمضان عبد التواب ، ص ٥٦ .

والمثالية ، التي تخلع على الممدوح»^(١) . ولهذا « فبعض العلماء يعزّون تطور الأصوات من شدّة إلى رخاوة أو العكس إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الشعب ، فالشعب حين يميل إلى الدعة والاستقرار تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدة إلى الرخاوة ، فإذا اعتز الشعب بقوته وجبروته مال إلى العكس»^(٢) . ولكن هذا الحكم لا يمكن الاعتماد عليه في كل الأحوال ، فابن درّاج مثلاً الذي اعتمد على الأصوات المجهورة عند حديثه عن الاغتراب والغربة نراه - أيضاً - يصوغ أبياتاً تتناول الموضوع نفسه، ولكن بأصوات مهموسة . وهذا يعني أن هذه الأصوات سواء كانت مجهورة أو مهموسة إنما تدل على الحالة النفسية التي يعانيتها الشّاعر من خلال مجاورتها لأصوات أخرى ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أشرف نجا ، حيث يقول : « لا يوجد ثمة صوت بمفرده يدل على البهجة والرقّة، وآخر يدل على الحزن والعنف ، فالصوت يكتسب دلالاته من خلال مجاورته لأصوات أخرى»^(٣) . كما أن درجة انفعال الشّاعر هي التي تحدّد الصوت الذي يصوغ به قافيته، فإذا كانت درجة الانفعال والإحساس بالاغتراب عالية جدّاً ، والتي وصفت اغترابه بالصوتين المجهور والمهموس. ومن أمثلة القوافي المجهورة قول ابن درّاج في إحدى قصائده متشوقاً لأسرته وهو في دار الغربة مخاطباً الربيع ؛ لينقل شوقه ودموعه الساكبة قائلاً^(٤) :

قُلْ لِلرَّبِّيعِ اسْحَبْ مُلَاءَ سَحَابِ

فاجْرُرْ ذُبُولَكَ فِي مَجَرٍّ ذَوَائِي

لَا تُكْدِينَنَّ وَمِنْ وَرَائِكَ أَدْمُعِي

مَدَدًا إِلَيْكَ بِفَيْضِ دَمْعٍ سَاكِبِ

(١) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية - عصر الطوائف . د . أشرف نجا ، ص ٢٦٦ .

(٢) الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنس ، ص ٢٣٤ .

(٣) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية ، د . أشرف نجا ، ص ٢٦٧ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٨ .

ويقول - أيضاً - واصفاً عدم الإجابة له كونه غريب بعيد عن وطنه ، فكان
يكثّر من الدعاء ، ولكن ليس هناك من يجيب لدعوته تلك ، ولهذا الشّاعر في حالة
نفسية شديدة الانفعال والاضطراب والقلق ، فجاءت قافية القصيدة مبنية على صوت
الباء الشديد بالإضافة إلى الكسرة كذلك ، يقول^(١) :

تَسْمَعُ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ
كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ الْمُجِيبِ

ويقول متحدثاً عن غربته فجاءت القافية على حرف الدّال يتسم بالشدة
إضافة إلى الكسرة ، مما أكسب القصيدة إيقاعاً موسيقياً قوياً^(٢) :

غَرِيبٌ كَسَاهُ الْبَيْنُ أَثْوَابَ مُدَنَّفٍ
وَحَفَّتْ بِهِ الْأَشْجَانُ حَفَّ الْوَلَائِدِ

وتزداد رغبة ابن دارج في انجلاء الأسى والحزن لتأتي القافية - أيضاً - شديدة
الانفعال والقوة إذا صيغت الأبيات بحرف اللام المجهور مع الكسرة ، يقول^(٣) :

فَلَعَلَّ غَايَاتِ الدُّجَى أَنْ تَنْتَهِيَ
وَعَسَى غِيَابَاتُ الْأَسَى أَنْ تَنْجَلِي

ويمدح ابن درّاج ممدوحه بأنّ كل مغترب قد تجرّع حر القيظ فيبشر بالماء
البارد ، فالشّاعر في حالة انفعال شديد، فهو بحاجة ماسّة إلى ذلك الماء الذي يزيل
عنه حرارة الاغتراب والغربة ، فجاءت القافية بحرف الميم المجهور مع الكسرة ؛ ليؤكد
شدة تلك الرغبة المسيطرة عليه مما أعطى البيت - أيضاً - إيقاعاً موسيقياً عنيفاً ،
يقول^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ .

مَتَى تَجَرَّعَ حَرَّ الْقَيْظِ مَغْتَرِبًا

فَأَبْشَرَ لُغْثَهُ بِالْبَارِدِ الشَّبِمْ

ويقول مخاطبًا زوجته بأن رحيله ذلك ربما سيجني من ورائه العزَّ ، ويتخلص من قيود الغربة والاعتراب ، فجاءت القافية مبنية على حرف الراء المجهور والضممة ليوضح رغبته في التخلص من تلك القيود ، يقول (١) :

لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكَ مِنْ لَوْعَةِ النَّوَى

يُعَزُّ ذَلِيلٌ أَوْ يُفَكِّ أَسِيرٌ

وقول ابن درّاج مادحًا ممدوحه بأنه كان مشردًا في آفاق البلاد وجرحته المصائب والأهوال ، فهوّن عليه مصائبه، فجاءت القافية قائمة على حرف النون والألف الممدودة ، يقول (٢) :

تَشْرَدُ آفَاقُ الْبِلَادِ فَتُؤَوِّنَا

وَتَجْرَحُ أَيْدِي النَّائِبَاتِ فَتَأْسُونَا

ويتحدث ابن درّاج عن غربته في دار الغنى والتي لم يجن منها غير الحسرة والأسى ، فجاءت القافية مبنية على حرف العين المكسور ، يقول (٣) :

وَلَا زَادَ مِنْ دَارِ الْغِنَى غَيْرُ حَسْرَةٍ

تَجَرَّعَهَا حَسِيٌّ وَكَظَمِي لَهَا شَرْعِي

ويمدح ممدوحه بأنه مجيب لكل صرخة صارخ يستغيث به ، فنظم البيت على قافية انتهت بحرف الياء المجهور مع الألف الممدود ، يقول (٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

وَلَا أَقْعَدْتُهُ عَنْ إِيَابَةِ صَارِخٍ
(ثَجِيبُ) وَلَوْ حَبَوًّا إِلَى الطَّعْنِ أَوْ مَشْيًا

أما القافية المهموسة فقوله يمدح ممدوح له بأنه آواه، فجاءت القافية مبنية على حرف الحاء المهموس مع الكسرة ، يقول^(١) :

وَأَوَانِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ
وَأَوْفَى بِي عَلَى أَمَلٍ مُتَّاحٍ

ويتحدث عن أبنائه الذين يجوبون الصحاري مغتربين، فكانت القافية على حرف الهاء والألف الممدودة، يقول^(٢) :

جُسُومًا أَقَلَّتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ تَدَعْ
لَهُنَّ مِنَ الْأَرْوَاحِ إِلَّا أَقَلَّهَا

ويقول متحدثاً عن حظ الغريب عند ذلك الممدوح ، فجاءت القافية بحرف التاء المهموس مع الكسرة ، يقول^(٣) :

وَمَا كِدْتُ أَبْسُطُ لَحْظَ الْغَرِيبِ
وَمَا أَنْ حَلِّي عِقَالِ الْأُنَاةِ

ويتحدث ابن درّاج عن آماله في جمع شمله ، فجاءت القافية مبنية على حرف السين المكسور ، يقول^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣٢ .

وَيَجْمَعُ شَمْلَ الْوَصْلِ مِنْ فُرْقَةِ الْقَلَى

وَيُرْفَعُ بِنْدَ الْوَصْلِ مِنْ مَصْرَعِ النَّكْسِ

وما كان ليس بمهموس ولا مجهور كالهزمة قول ابن درّاج متحدثاً عن اغترابه
وغربته ومدى تمكن الحزن فيه ، يقول^(١) :

تَجُوبُ التَّنَائِفَ خَرْقًا فَخَرْقًا

وَحَاجَاتِهَا فِي عُثْوِ الْعَنَاءِ

بِكُلِّ حَزِينٍ بَعَالِي الْحُزُونِ

وَمُقَوِّ بِكُلِّ بِلَادٍ قَوَاءِ

فالقافية همزية مكسورة، والملاحظ في تلك القوافي سواءً المجهورة أو
المهموسة، وما ليس بمجهور ولا مهموس اعتمادها على القافية المطلقة^(٢) في معظم
قصائد الاغتراب والغربة، بينما تمثلت القوافي المقيدة^(٣)، والتي تناولت الحديث عن
هذا الموضوع شيئاً بسيطاً لا يذكر ، وهذا يؤكد « حرص الشاعر على اختيار
القافية المطلقة أكثر منه على القافية المقيدة »^(٤).

وليس هناك ثمة شك أن القافية المطلقة تضج بالحركة والموسيقى أكثر من
غيرها ، وهذه الحركة تلائم الحالة الشعورية الانفعالية المصاحبة للشاعر وهي
الإحساس بالاغتراب والغربة .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٤ .

(٢) القافية المطلقة : هي ما كانت متحركة الروي ، أي : بعد رويها وصل بإشباع .

(٣) القافية المقيدة : هي ما كانت ساكنة الروي ، انظر : علم العروض والقافية ، د. عبد العزيز عتيق،

ص ١٦٤ .

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ، د / تمام حسان ، ص ١٧١ .

٤ - التصريح :

هو « أن يكون البيت مسجوعاً »^(١) ، وعرفه قدمة بن جعفر بقوله : « ومن نعوت الوزن التصريح ، وهو أن يتوخى فيه تصوير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد في التصريف »^(٢) .

« وسبب التصريح مبادرة الشاعر القافية ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ولذلك وقع أول الشعر وربما صرَّع الشاعر في غير الابتداء ، وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتي إلى قصة أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتي حينئذٍ بالتصريح إخباراً بذلك وتنبيهاً عليه »^(٣) ويدل التصريح على تملك الشاعر اللغة .

ومن أمثلة التصريح الذي وقع في قصائد الاغتراب قول ابن درَّاج متحدثاً عن اغترابه وغربته^(٤) :

أَخْفِضًا نَوْتَ فِينَا النَّوَى وَلَعَلَّهَا
أَجَدَّ بِهَا طُولُ السُّرَى فَأَمَلَّهَا
وَحَاشَى لِأَصْدَاءِ الْفَلَا أَنْ تَصُدَّهَا
بِنَا أَوْ أَضَالِيلِ الدُّجَى أَنْ تُضِلَّهَا
وَأَحْقَرِ بِهِوْلِ الْبَحْرِ أَنْ يَسْتَكْفَهَا
وَأَهْوُونَ بِغَوْلِ الْقَفْرِ أَنْ يَسْتَنْزِلَهَا

وقوله متحدثاً عن رحيله واغترابه^(٥) :

(١) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، ص ١١٦ .

(٢) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، ص ٤٠ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

أَهْلَ الْبَيْنِ فَأَنْهَالَتْ مَدَامِعُهُ
وَأَنَسَ النَّفَرَ فَاسْتَكَّتْ مَسَامِعُهُ

ويقول - أيضاً - متحدثاً عن رحيله^(١) :

أَرْحَلِي مَحْمُولٌ عَلَى الْعُتْقِ النَّجَبِ
يُؤْمُكَ ، أَمْ سَارٍ عَلَى الْقُتْمِ النَّكَبِ ؟

وهكذا لا يخفى على القارئ ما أكسبه التصريح لتلك الأبيات قيمة موسيقية رائعة إذ « أنه شاكل في أحوال كثيرة بين الكلمتين الأخيرتين في البيت كأنه يجعل له قافيتين (قافية داخلية) و (قافية خارجية) ولم يدفعه إلى ذلك إلا أنه يريد أن يرتفع بالصوت في مقطعين متقاربين وهو لذلك يخرج هذا الإخراج المنظم المقطع تقطيعاً صوتياً دقيقاً »^(٢) .

٥ - التجانس :

عرفه ابن رشيق بقوله : « التجنيس ضروب كثيرة منها : المماثلة وهي أن تكرر اللفظة باختلاف المعنى »^(٣) . و « هو ما كان تركيب حروف ألفاظه من جنس واحد ، وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً »^(٤) ويقول الخطيب القزويني : « هو تشابههما في اللفظ »^(٥) . ويقول أبو موسى : « السجع إيقاع صرف ونغم بحت ، وموسيقى خالصة ، وليس فيه كلمة تسربت بثوب هفهاف كانت قد تسربت به أخرى حتى خدعت وختلت ، ففتحت للشيخ باب الاجتهاد »^(٦) .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٩ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د / شوقي ضيف ، ص ٥٠ .

(٣) العمدة ، لابن رشيق المجلد الأول ، ص ٥٣٠ .

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، ص ٣٤٢ .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، المجلد الثاني ، ص ٩٠ .

(٦) مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، لحمد أبي موسى ، ص ١٢٤ .

والجناس أو التجانس لا يحقق غرضه إلا إذا صدر عن طبع وجاء عفواً كان له وقعـه وأثره في المعنى أما إذا تكلف وتصنع بدا ثقیلاً ورغبت النفوس وجافته الأذواق»^(١) .

فالجناس لابد أن يكون عفويًا حتى يحقق إيقاعًا موسيقيًا له علاقة بالمعنى، ولهذا يقول عبد القاهر الجرجاني: «أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً»^(٢) .

ولهذا قسّم العلماء الجناس إلى جناس تام وجناس ناقص، والناقص يشمل عدة أنواع .

التجانس التام: «وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور: نوع الحروف وعددها وهياكلها وترتيبها»^(٣) .

وما دونه أي ما اختلف في أي أمر من تلك الأمور الأربعة يسمى جناس ناقص .

«والجناس كلما كان تاماً كان إيقاعه الموسيقي متطابقاً، وإن كان الجناس ناقصاً كان الإيقاع ناقصاً أو مختلفاً»^(٤) .

وينهض الجناس عند ابن درّاج متمثلاً في تلك الأقسام، مما أكسب قصائده إيقاعاً موسيقيًا .

١ - الجناس التام (الإيقاع الموسيقي التام) .

كقوله متحدّثاً عن آماله عند المنصور، والتي يرغب فيها بانتهاء حياة الارتحال، والتنعم بالراحة والاستقرار^(١):

(١) علم البديع، دراسة فنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، لبسيوني فيود، ص ٢٧٧ .

(٢) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، ص ١٠ .

(٣) علم البديع، لبسيوني فيود، ص ٢٧٩ .

(٤) البديع تأصيل وتجديد، د. منير سلطان، ص ٧٦، دار المعارف الإسكندرية، سنة ١٩٨٤ .

وَعَسَى رَاحَةُ الْمَنْصُورِ تُعْقِبُ رَاحَةً
وَحَتْمٌ لَأَمَالِ الْعُفَاةِ عَسَاهَا
ويقول - أيضاً - متغزلاً^(٢) :

سِرُّ سَرَى لَجَوَانِحِي فَسَرَى بِهَا
وَهَوَى هَوَيْتُ لَطَوَعِهِ فَهَوَى بِي

إذا تأملنا المثالين السابقين وجدناهما متحدا الإيقاع (الجناس التام)، ففي المثال الأول : يربط الشاعر بين لفظتين اتحدتا حتى وصلتا إلى درجة المساواة في نفس الشاعر مع اختلاف في المعنى ، فكلمة (راحة) التي صاغها الشاعر تنبئ عن شدة رغبة الشاعر في الراحة والاستقرار، وهذا ما دعا الشاعر أن يعيد اللفظة نفسها بحروفها وهياكلها وترتيبها حتى ليتوهم السامع أو القارئ بأن اللفظة نفسها قد أعيدت إليه ، ولكن حينما يعمل الذهن يجد أن هناك معنى آخر للكلمة ، وهذا من مميزات الجناس الذي يستدعيه المعنى كما أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة^(٣) فينتج عن ذلك جرس موسيقي يؤثر على نفوس السامعين . هذا الجرس الموسيقي الذي أثر على الشاعر ، فجعله يشعر القارئ بأن كلمة (راحة) هي نفسها بالرغم من أن راحة الأولى بمعنى الشعور بالسكون والاطمئنان، وراحة الثانية قصد بها كف الممدوح الذي يجود عليه بالنعم ، وهذه النعم هي التي تعبت الراحة والسكون والاطمئنان لديه .

وفي المثال الثاني يجمع الشاعر بين لفظتين اتحدتا في عدد الحروف وهياكلها وترتيبها، كما اتحدتا في عدد الحروف - أيضاً - في نفس الشاعر الذي يرى في لفظة (هوى) معنى السقوط والهلاك، فالأولى جاءت بمعنى الحب والشوق والهيام

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٧ .

الذي يلهث الشَّاعر في البحث عنه، وعن ملذاته التي غلبته، فأسقطته في الهلاك والدمار، والكلمة الثانية (هوى) كانت بمعنى السقوط والوقوع في الهلاك - أيضاً ، وهكذا فإنَّ الجناس التَّام حينما يأتي به الشَّاعر عن طبع دون تكلف ينتج عنه اتحاد تام في إحساس الشَّاعر « فإذا أرسلت المعاني على سجيته رامت هذه اللغة ذات الإيقاع، وكما توجد الألفاظ مرتبة في اللفظ على وفق معانيها في النفس ، فإنه توجد - أيضاً - مع هذه الألفاظ هذه الأحوال الصوتية لتواكب بهذا الرنين الحال الذي وجدت المعنى قائماً عليه في نفسك ومصاحباً له ، وكأنه يحيط به ويحفه »^(١) .

٢ - الجناس الناقص (مختلف الإيقاع) :

كقول ابن درَّاج متحدثاً عن نهاية غربته^(٢) :

فَخَتَمْتُ طُولَ تَقَلُّبِي بِتَقَبُّلِي

وَجَزَيْتُ غِرَ غَرَائِي بِرَغَائِبِ

فالإيقاع الموسيقي في (تقلب - وتقبل) فالكلمة الأولى بمعنى اختلاف هيئة الشيء وانتقاله من الجيد إلى الرديء والعكس ، والكلمة الثانية بمعنى القبول والرضا ، وهناك جناس آخر في (غرائب - رغائب) فالكلمة الأولى بمعنى كل شيء يثير الدهشة ، والكلمة الثانية تشير إلى الطموح وكل ما يرغب المرء في تحقيقه ، فالجناس هنا ناقص ويسمى جناس القلب أو العكس ، وهو ما اختلف فيه اللفظتان في ترتيب الحروف ، فعدم ترتيب الحروف في الكلمتين نتج عنه إيقاع موسيقي مختلف بالإضافة إلى اختلاف في المعنى .

ويقول شاكياً من الدَّهر الذي لم يغض الطرف عنه لا في نعمة ولا في نقمة^(٣) :

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، د. محمد أبو موسى ، ص ١٢٦ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

فَأَنَا الَّذِي لَمْ تُغْضِ عَيْنُ الدَّهْرِ عَنْ

نُعْمَى وَلَا نُقْمَى يَنَامُ حَسُودُهَا

فالجناس بين (نعْمَى - نُقْمَى) فالكلمة الأولى بمعنى رغد العيش ، ونُقْمَى يعني المصائب وضيق العيش ، فالجناس ناقص ويسمى المضارع ، وهو ما اختلف فيه اللفظتان في نوع الحرف ، ففي كلمة (نعْمَى) نجد حرف العين الذي حلَّ موضع القاف في كلمة (نُقْمَى) وحرف العين من الحروف المجهورة التي ينتج عنها ذبذبات صوتية للأوتار وهو صوت حلقي ، أمَّا القاف هو صوف لهوي شديد مهموس ، فهناك مسافة بين مخرج الغين ومخرج القاف ، وهذه المسافة ينتج عنها إيقاع موسيقي .

ويقول ابن درَّاج متحدثاً عن غربة أبنائه وضعفهم^(١) :

فِي سِتَّةٍ ضَعُفُوا وَضَعَّفَ عَدُّهُمْ

حَمَلًا لِمَبْهُورِ الْفُؤَادِ مُبَلَّدِ

فالجناس بين (ضَعُفَ - وَضَعَّفَ) ، فالكلمة الأولى بمعنى عدم القدرة ، والكلمة الثانية بمعنى كثرة العدد . الجناس هنا ناقص ويسمى محرف ، وهو ما اختلف في اللفظتين في هيئات الأحرف ، فالضمة تختلف عن الكسرة ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي ، فالكسرة ينتج عنها « مسافة بين الحبس والانفجار يمكن للآذان أن تقدرها »^(٢)، ويقول متحدثاً عن غربته واغترابه^(٣) :

أَهْلًا سَفَرٍ وَقَفَرٍ قَطَعْنَا

إِلَيْكَ الشُّهُورَ بِهَا وَالسَّنِينَ

(١) ، ديوان ابن درَّاج ص ٦٣ .

(٢) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، للدكتور / رمضان عبد التواب ، ص ٩٨ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٥ .

الجناس بين (سفر وقفر) فالسفر بمعنى الرحيل والانتقال ، وقفر هو المكان البعيد الذي لا ماء فيه ولا زرع ، فالجناس هنا ناقص ويسمى المضارع أو اللاحق ، وهو - كما ذكرنا سابقاً - ما اختلف فيه في نوع الحرف ، فالسين والقاف حرفان مختلفان لاختلاف مخارجهما ، فالقاف حرف لهوي شديد مهموس ، أما السين فهو أسناني لثوي مرقق مهموس ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي . ويقول - أيضاً - واصفاً كثرة اغترابه وغربته^(١) :

كَلَّا وَقَدْ آنَسْتُ مِنْ (هُودٍ) هُدًى

وَلَقِيتُ (يَغْرُبُ) فِي الْقِيُولِ وَ (حَمِيرًا)

(هود) هم قوم هود **u** ، و (هدى) بمعنى الهداية والرشاد الجناس - أيضاً - ناقص ، وهو ما يسمى المضارع ، فحرف الدال من الحروف الأسنانة اللثوية ، أما حرف الألف فمن الحروف الحنجرية .

ويقول واصفاً كثرة المصائب التي تعترضه في غربته^(٢) :

وَلَكُمْ أَصَابَتْنِي الْخُطُوبُ بِشَكَّةٍ

تُعْيِي التَّجَلُّدَ وَاحْتَسَبْتُ مُصَابِي

(فأصاب) بمعنى نال منه ، و (مصاب) بمعنى الأمر الجلل العظيم ، فالجناس ناقص مضارع لاختلاف مخرج الحرفين (الألف - الميم) الألف حرف حنجري ، بينما الميم حرف شفوي مجهور متوسط الجهر أنفي ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي مختلف .

٦- الجرس الذي قبل الجناس :

ونقصد به الحالة الانفعالية التي توجب على الشاعر تكرار حرف معين مما يعطي البيت جرساً إيقاعياً ، وهذا التكرار من الجرس الذي قبل الجناس ، والذي لا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

يجوز إهداره كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد أبو موسى في كتابه (مدخل إلى كتابي عبد القاهر)^(١) ، فمن أمثلة هذا النوع من الجناس قول ابن درّاج متحدثاً عن اغترابه وهو يودع موطنه^(٢) :

وَوَدَّعَ الْمَنْزِلَ الْأَعْلَى فَأَوْدَعَهُ

فِي الْقَلْبِ لَا عِجَبَ بَثٌّ لَا يُوَادِعُهُ

فالجناس بين (ودّع - أودع) ودّع بمعنى الفراق ، وأودع بمعنى ترك فيه ، فالكلمتان بمعنى الترك والفرق ، ثم التكرار أكسب البيت إيقاعاً موسيقياً ، فقد كرر حرف الواو والعين (ودع - أودع - يوادع) ثم تكرر حرف العين دون الواو في قوله : (لاعج - الأعلى) والعين - كما قلنا سابقاً - من الأصوات المجهورة ، ومخرجه وسط الحلق كما ينتج عنه ذبذبات في الوترين ، أما الواو فهو من حروف اللين التي ينتج عند النطق به فراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك ، فيترتب على ذلك اختلاف مسافة الإيقاع بين المتجانسين ، فيتحقق بذلك معنى المفارقة في إبراز حالة الشّاعر المتدهورة وحالة موطنه بعد الرحيل عنه .

ويقول متحدثاً عن الخوف والشعور بالاغتراب عند مغادرة الأوطان^(٣) :

وإنَّ يَرُغَ نَازِحَ الْأَوْطَانِ عَنْكَ فَقَدْ

رَاعَ الْعِدَى مِنْهُ يَوْمَ أَنْتَ رَائِعُهُ

نجد فيه - أيضاً - تكرار حرفي الراء والعين في (يرع - راع - رائع) وكما ذكرنا سابقاً أن العين من الحروف المجهورة الحلقية ، والتي نسمع لها قوة وانفجاراً بينما حرف الراء من الحروف التي تنحصر بين أول اللسان والثنايا العليا ، ولا نسمع لها إلا صوتاً خفيفاً ، إذا العين والراء بعيدان من ناحية المخرج ، فينتج عنهما إيقاع

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، د / محمد أبو موسى ، ص ١٢٢ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

موسيقى ، فتظهر - أيضاً - المفارقة ببيان حال الشاعر المغترب النازح الخائف ،
وصورة الممدوح الرائع الجالب لكل شيء يثير الدهشة والاستغراب .

ويقول متحدثاً عن غربة أبنائه حينما يغادرون ديارهم^(١) :

تَنْبُو الدِّيَارُ بِهِمْ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ

غَرَضُ الْمَصَائِبِ مَا بِهَِا دِيَارُ

فتكرار حرفي الدال والياء في (الديار - ديار - ديار) فالدال من الحروف
الأسنانية واللثوية شديد الجهر مرقق ، والياء غاري متوسط الجهر ، فالجمع بين الشدة
ومتوسط الشدة ينتج عنه ملامح موسيقية.

٧ - الازدواج : « هو أن تتزوج الكلمات والجمل بكلام عذب وألفاظ
عذبة حلوة »^(٢) ، والتزوج بين هذه الكلمات « ينجم عنه إيقاع متماثل يتردد
بانتظام يعزز موسيقى البيت ويوصلها »^(٣) .

ومن أمثلة الازدواج كقول ابن درّاج متحدثاً عن غربته واغترابه^(٤) :

وْغَرِيبٌ تَهْوِي بِهِ كُلُّ أَرْضٍ

وَشَرِيدٌ يَنْوِي بِهِ كُلُّ وَادٍ

وقوله - أيضاً - مادحاً يحيى بن المنذر بأنه قام بتقريب كل مغترب^(٥) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٢٩ .

(٢) البديع في نقد الشعر ابن منقذ ، ص ١١١ .

(٣) موسيقى الشعر العربي ، د / شكري عياد ، ص ٢٦٩ ، دار المعرفة - القاهرة .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

يا مُدْنِي الأملِ البعيدِ وإن نأى
ومُبْعَدِ الخطْبِ الجليلِ وإن دنا

ويقول متغزلاً^(١) :

غَرَامٌ وَلَا شَكْوَى وَعَتَبٌ وَلَا عَتَبَى
وَشَوْقٌ وَلَا لَقِيَا وَصَبْرٌ وَلَا عُقْبَى

ويقول مادحاً بعد أن غلبه اليأس^(٢) :

إِلَى أَيْ ذِكْرٍ غَيْرِ ذِكْرِكَ أَرْتَاحُ
وَمِنْ أَيْ بَحْرٍ بَعْدَ بَحْرِكَ أَمْتَحُ

وهكذا فإذا نظرنا الأبيات السابقة لوجدنا ظهور الإيقاعات الموسيقية في تلك الأبيات بشكلٍ واضحٍ ممثل الازدواج الذي بنيت عليه تلك الأبيات .

ثانياً- الظواهر الأسلوبية المعنوية:

١ - التَّضَاد : « هو الجمع بين الشيء وضده في كلام أو في بيت شعر »^(٣) .

« ومغزى الجمع بين الأمور المتضادة يعود إلى ما في الجمع بين الأمور المتضادة مما يُكسب الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونقاً ، فالضد - كما قالوا - يظهر حسنه الضد، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف ، وتلك الزينة التشكيلية - بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلا بد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين »^(٤) . ويقول ابن مُنْقِذ : « اعلم أن التطبيق هو أن تكون الكلمة ضد

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٣) علم البديع ، لبيسيوني فيود ، ص ١٣٥ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٦ .

الأخرى»^(١) . وقد يكون التّضاد أو الطّباق بين اسمين أو فعلين أو حرفين أو اسم وفعل .

ومن أمثلة التّضاد والذي وقع في شعر ابن درّاج :

١ - قوله متحدثاً عن ضيق الحال^(٢) :

وَضَيْفٌ بِحَيْثُ الطَّيْرُ تُدْعَى إِلَى الْقَرَى

يَضِيقُ بِهِ رَحْبُ الْمَاءِ وَالتُّزْلُ

٢ - وقوله مادحاً بأن ثملته المشتت قد جمع في ظل ممدوحه^(٣) :

وَأَنْسَ شَمْلٌ بِالتَّفَرُّقِ مُوَحِّشٌ

وَحَنَّ خَلِيطٌ بِالصَّبَابَةِ حَنَّانٌ

٣ - ويقول في بعض خواتيم قصائده متحدثاً عن العز والغنى^(٤) :

وَلِنِعْمَ حَبْرُ الْفَقْرِ مِنْ بَعْدِ الْغِنَى

وَالذُّلُّ بَعْدَ الْعِزِّ آلُ مُحَمَّدٍ

٤ - وقوله عن شدة اغترابه وكثرة الأهوال والمصائب التي تعرض لها^(٥) :

فَأَذْهَلَ مُرْضِعَةً عَنْ رَضِيعٍ

وَأَنْسَى الْحَمَائِمَ ذِكْرَ الْهَدِيلِ

(١) البديع في نقد الشعر ، لابن منقذ ، ص ٣٦ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

٥ - ويقول واصفاً غربته وتغير الحال^(١) :

وطيب نَفْحِ بُنُورِ الرِّياضِ

تَلْظَى لَفْحِ بِنَارِ المَقِيلِ

٦ - ويصف غربتهم ورحلتهم في البحر^(٢) :

كما افْتَسَمَتْ أَخْدَانَهُنَّ يَدُ النَّوَى

فَهُنَّ لِلرَّدَى وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَخْدَانُ

٧ - ويقول محاولاً لإحياء الأمل في قلبه من جديد^(٣) :

وَلَا قَنْطُ وَالْيُسْرُ لِلْعُسْرِ غَالِبُ

وَفِي الْعَرْشِ رَبُّ بِالْخَلِائِقِ رَحْمَانُ

٨ - ويصف العزم الذي قاده نحو الممدوح قائلاً^(٤) :

وَلِلَّهِ مِنْ عَزْمٍ إِلَيْكَ اسْتِقْدَانِي

فَأَفْرَطُ فِي بَعْدٍ وَفَرَطُ فِي قَرَبٍ

٩ - ويتحدث عن غربته والذعر الذي حاط بهم حتى وصل إلى ممدوحه الذي

خفف عنه ذلك ، يقول^(٥) :

أَسْرَى إِلَى الرَّوْعِ فِي تَأْمِينِ رَوْعَتَنَا

وَسَاوَرَ الْمَوْتَ فِي تَمْهِيدِ مَحْيَانَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

١٠ - ويقول واصفاً الأهوال والفجائع^(١) :

لَهَا مِنْ أَعَاصِيرِ الشَّمَالِ إِذَا هَوَتْ

خَوَافٍ وَمِنْ عَصْفِ الْجُنُوبِ قَوَادِمُ

١١ - ويقول متغزلاً^(٢) :

فَغَيَّيْتُ بَيْنَ ضِيَائِهِ وَظِلَامِهِ

مُعْرِى الْجُفُونِ بِطَرْفِهِ الْمَغْرِى بِي

١٢ - ويقول واصفاً غربته واغترابه^(٣) :

ذَعَرَتْ بِحَسِّ الْإِنْسِ تَحْتَ حِجَالِهَا

وَاسْتَأْنَسَتْ بِضِرَاحِمٍ وَذِيَابِ

١٣ - ويتحدث عن غزو الشيب لرأسه بسبب كثرة الهموم^(٤) :

وَبُحُورُ هَمٍّ كَمْ وَكَمْ دَاوَيْتُهَا

بُبُحُورٍ يَمٍّ أَوْ بُحُورٍ سَرَابِ

وَشَبَابُ لَيْلٍ طَالَمَا بَلَّغْتُهُ

تَخْطِيطِ شَيْبٍ أَوْ نُصُولِ خِضَابِ

فاستخدام الشاعر للتضاد يوضح حالة الصراع النفسي الذي يعانيه الشاعر، كما يبرز لنا من خلاله حالة القلق والتوتر الذي يشعر به نتيجة غربته واغترابه، فتظهر لنا مفارقة باستخدامه هذا التضاد. ففي المثال الأول : نلاحظ شعور ابن درّاج بالضيق والكدر بالرغم من رحابة المكان ، ولكن اللامبالاة والإعراض عنه هو الذي جعله

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

يشعر بهذا الإحساس ، فعبر الشاعر عن همه ذلك بواسطة التّضاد بين (الضيق -
الرحب) .

أما المثال الثاني : ابن درّاج تفرق شمله ، ولهذا كان يشعر بالوحشة والانفراد،
بينما يجد في جمع الشمل من الأنس والمودة ، عكس التشتت ، فذكر اللفظتين ليعبر
عن تلك الحالة النفسية المقلقة (أنس - موحش) .

في المثال الثالث : طابق ابن درّاج بين (الفقر - الغنى - الذل - العز) .
وابن درّاج في غربته عانى الفقر والذلّ ؛ ولهذا عبّر عن هذه الحالة ليوضح لنا
المفارقة بين الفقر والغنى ، والذلّ والعزّ ، بما فيه من رفعة وانحطاط .

في المثال الرابع : طابق ابن درّاج بين (النسيان - والذكر) ليعبّر - أيضاً -
عن حالة نسيان تعرض لها الشاعر مما دفعه دفعاً نحو حياة الاغتراب والغربة .

أما المثال الخامس : ظهر التّضاد بين (نور - نار) ليوضح لنا شدّة اغترابه
وكثرة الأهوال التي كانت بمثابة النّار الذي يكتوي به بعد أن كان في الرياض يلفحه
نوره ويتنعم بالدعة والاستقرار .

المثال السادس : التّضاد كائن بين (البر - البحر) فابن درّاج صادف
الأهوال والمصائب في البر والبحر .

المثال السابع : التّضاد كائن بين لفظتين (اليسر - العسر) ليعبر به الشاعر
عن رغبته الملحة في الاستقرار وتيسير أموره .

المثال الثامن : التّضاد بيّن يبرز لنا شخصية الشاعر القلقة ، فالعزم أفرط في
البعد عنه ، كما فرط في القرب ، وهذا دليل على سيطرة اليأس على الشاعر .

المثال التاسع : التّضاد بين (الموت - الحياة) .

المثال العاشر : بين (الشمال والجنوب) .

المثال الحادي عشر : بين (الضياء - الظلام) .

المثال الثاني عشر : بين (الذعر - واستأنس) .

المثال الثالث عشر : التَّضاد بين (شباب - شبيب) .

فكل علاقة مفارقة تنهض بين متضادين هنا تصور لوَّنا من التَّنَاقُض النفسي والاجتماعي^(١) .

فابن درَّاج من خلال المتضادات التي برزت في شعره يمثل لنا جانباً من حالته النفسية القلقة ، فأراد أن يفجر تلك الطاقة القلقة المحتبسة في نفسه في صورة التَّضاد الذي لم يكتفِ فقط بالصُّورة الزخرفية أو الشكلية ، وإنما تجاوز ذلك ليفصح لنا عن تجربة نفسية تحتاج قلب الشَّاعر، ولتظهر لنا تلك التجربة على شكل إيقاعات موسيقية حزينة .

٢- مراعاة النظر :

« قوامة الجمع بين الأمور المتناسبة وهو الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التَّضاد »^(٢) .

ويقول الخطيب القزويني : « مراعاة النظر وتسمى التناسب والائتلاف والتوفيق ، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتَّضاد »^(٣) .

وقد عمد ابن درَّاج إلى توظيف هذا الفن في قصائده التي تناولت موضوع الغربة والاغتراب ، فنذكر على سبيل المثال :

١ - قوله في قلة حظه من العطاء^(٤) :

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية - عصر الطوائف ، د . أشرف نجا ، ص ٢٧٨ .

(٢) علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، د / بسيوني فيود ، ص ١٥٦ .

(٣) بغية الإيضاح ، للخطيب القزويني ، ص ١٩ ، المجلد الثاني .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤١ .

وَدَوْحَةٌ عِلِمٌ فِي السَّمَاءِ غُصُونُهَا

تَرْفُ بِلَا سُقْيَا سِوَى بَغْشِ الطَّلِ^(١)

٢ - وقوله أيضاً^(٢) :

وَدَوْحَةٌ لِلَّهِ زَكِيَّةٌ غَرَسَهَا فَزَكَتْ

أَكْلًا وَظِلًّا وَأَشْجَارًا وَأَغْصَانًا

٣ - ويقول متحدثاً عن الأشجان^(٣) :

وَإِنْ تُسْعِدِ الْيَوْمَ أَشْجَانِي نَوَائِحُهُ

فَكَمْ وَكَمْ سَاعَدَتْ شَجْوِي سَوَاجِعُهُ

٤ - ويقول متذكراً تلك الأيام التي تمتع فيها برغد العيش^(٤) :

وَطَالَمَا أَيْنَعْتُ حَوْلِي حَدَائِقُهُ

وَالْعَيْشُ غَضُّ أَنْيُنِ الرُّوضِ يَانِعُهُ

٥ - ويقول عن غربته ورحيله^(٥) :

قَدْ طَيَّرْتُ غُرْبَانُ كُلِّ مُعَرَّبٍ

وَعُرَابُهُمْ لِلْبَيْنِ لَيْسَ يُطَارُ

» وتكشف البنية التركيبية لهذه الظاهرة السياقية عن علاقة التلازم المعنوي التي تتشكل من خلالها مفردات الصورة ، حتى تصوير خلقاً جديداً متآلفاً يتلاءم مع

(١) بغش : المطر القليل الضعيف .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

حركة النفس في بحثها الدائب عن الانسجام والتوازن والتوافق في الطبيعة والمجتمع
«(١) .

فابن درّاج يرى في المثال الأول ذلك التّوازن مع الطبيعة والذي تمثّل هنا في تلك الدوحة التي علت غصونها حتى وصلت إلى السماء مرفرفة ، ولكن كان المطر الذي يهطل عليها قليلاً وضعيفاً لا يوازي مكانتها ، وكذلك ابن درّاج، فالبرغم من علو منزلته الأدبية إلا أنّ حظه كان قليلاً ، فالمراعاة كانت بين (دوحة - غصون - سقيا - بغش) .

أما المثال الثاني : نرى التوافق بين (دوحة - غرس - ظل - أشجار - أغصان) ، ابن درّاج هنا يبحث عن عالم جديد مريح بعيد كل البعد عن حياة التغرّب والاعتراب ، فوظف تلك الألفاظ ليعبّر عن مدى رغبته في الانتماء إلى ذلك العالم .

وفي المثال الثالث : نرى التوافق بين (أشجان - نوائح - شجوى - سواجع) يكشف لنا الشّاعر عن سيطرة الحزن عليه .

وفي المثال الرابع نلاحظ مراعاة النظير بين (أينعت - حدائق - غص - الرّوض - يانع) .

وفي المثال الخامس وقعت المراعاة في (غربان - مغرب - غراب - البين) وكلها دلالات يظهر فيها التوازن والتوافق بين تلك الألفاظ ، وبين الحالة النفسية للشّاعر ، ليشكل لنا نوعاً من التأثير على السامع والقارئ مع وجود إيقاع موسيقي مؤثر .

(١) قصيدة المديح - قضاياها الموضوعية والفنية ، ص ٢٨١ .

٣ - المبالغة :

« هي أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًّا مستحيلًا أو مستبعدًا لئلا يُظنَّ أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف »^(١) . ويقول ابن قدامة بن جعفر : « أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلى فيما قصد له »^(٢) . وإذا نظرنا إلى أبيات ابن درّاج نلاحظ استخدامه لبعض صيغ المبالغة ليعبر بها عن شدة اغترابه وغربته ، يقول^(٣) :

وطلاب مأوى قبل حين أوانه
فالدَّهرُ أجمعه لي استنفارُ

أجمع : على وزن أفعل .

وقوله عن غربته واغترابه^(٤) :

حذاراً على إلف الهوى غربة التوى
وما إلفها إلا الوغى والملاحمُ

حذار : على وزن فَعَال .

ويتحدث ابن درّاج عن اللوم ، يقول^(٥) :

(١) بغية الإيضاح ، للخطيب القزويني ، ص ٦٠ .

(٢) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، ص ١٤١ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

وَلَبِستُ لِلْيَوْمِ لَأُمّةً خَالِعٍ

مَسْرُودَةً بِصَبَابَةٍ وَتَصَابٍ

خالع : على وزن فاعِل .

ومما جاء على هذا الوزن - أيضاً - قوله (١) :

فَمَقْعَصٌ نَاشِزٌ عَنْهُ حَلَائِلُهُ

وَمُرَضَعٌ ذَاهِلٌ عَنْهُ مَرَضِعُهُ

ذاهل : على وزن فاعل ، وقوله عن شدة غربته ونزوحه (٢) :

فَمَنْ الْمُبْلَغُ عَنْ غَرِيبٍ نَازِحٍ

قَلْبًا يَكَادُ عَلَيَّ أَنْ يَتَفَطَّرَا

نازح : على وزن فاعل . ويقول واصفاً تردده (٣) :

وَتَأْخِيرَ رَجُلٍ بَعْدَ تَقْدِيمِ أُخْتِهَا

حَذَارًا لِلدَّهْرِ لَا يُغْمِضُ عَنْ حَرْبِي

حذار : على وزن فَعَال . ويقول عن عذابه (٤) :

كَمَا مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ نَحْوَكُ سَاعِيًا

بِطَائِفِ سَقَمٍ مِنْ عَذَابٍ وَمِنْ نَصَبٍ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

ساعي - طائف على وزن فاعل .

ويصف إحدى أسفاره قائلاً^(١) :

يَقُودُ بِهَا هَادٍ إِلَى الْأَمْرِ وَالْمُنَى

وَيَحْدُو بِهَا حَادٍ عَلَى الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ

حاد : على وزن فاعل .

فهذه الصيغ التي استخدمها ابن درّاج أفادت المبالغة والتكثير من معاناته ومصابه .

٤ - جمع التكسير :

وهو من الجموع الدالة على الكثرة ، فاستخدمه ابن درّاج ليوضح كثرة اغترابه وجلل مصابه ومعاناته ، فمن ذلك قوله واصفاً غربته وتشرده في البيد ليلاً مع شدة الظلمة التي تنعدم معها الرؤية^(٢) :

بَوَارِقُ ظُلُمَاءٍ ظَلَمَ تَبِيحُ

دُمَى مِنْ حِمَىٍّ أَوْ دَمًّا مِنْ قَتِيلِ

ويصف غربة أبنائه ومدى سيطرة الحزن عليهم قائلاً^(٣) :

وَاسْتَوْطَنُوا فِرْعَاً إِلَى بَحْرِ النَّدَى

أَهْوَالِ بَحْرِ ذِي غَوَارِبِ مُزِيدِ

ويتحدث عن غربته^(٤) :

يَهِيحُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيحِ

مَدَامَعِ شَجْوِ السَّحَابِ الْمَخِيلِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

ويتحدث عن غرائب الغريب قائلاً^(١) :

وفي طيّ أسْمالِ الغَريبِ غرائبُ

سَكَنَ شَغافَ القلبِ شيبٌ وولْدانُ

إذا المعاناة كانت شديدة وكثيرة ، والجمع الذي جاء به الشاعر ليدل على عمق الحدث وعظمته ، كقوله : (بوارق - غوارب - مدامع - غرائب) .

٥ - القصر :

لُغَةً : الحبس والإلزام ، تقول : قصرت نفسي على الشيء؛ إذا حبستها وألزمته إياه ، كما تقول : قصرت الشيء على كذا ، إذا لم يتجاوز به غيره^(٢) .

وللقصر نوعان : قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة ، وله (القصر) أدوات : لا وإلا وإنما ، وأداة العطف لا ولكن وبل ، وتقديم المفعول على الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم الجار والمجرور على فعلهما ، ويُطلق عليه البلاغيون تقديم ما حقه التأخير .

والملاحظ أن ابن درّاج وظف القصر في قصائده التي تناولت موضوع الاغتراب ليدعي أنه لا أحد قد بلغ مبلغه في التغرب والتشرد والضياع ، ونذكر على سبيل المثال قوله واصفاً اغتراب أبنائه ، قائلاً^(٣) :

١ - وَأَنْجُمُ أَنْوَاءِ تَنْوُءٍ بِهَا التَّوَى

وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دُمُوعِي مِنْ قَطْرِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٤ .

(٢) علم المعاني ، لعبد العزيز عتيق ، ص ١٤٦ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ١٦٠ .

ولا مَطْلَعٌ إِلَّا مَهَادِي أَوْ حِجْرِي

ولا مَغْرِبٌ إِلَّا ضُلُوعِي أَوْ صَدْرِي

وقوله في غربة أبنائه^(١) :

٢ - ولا خُلَّةٌ إِلَّا الهَجِيرُ إِذَا انْتَضَى

فكَانَ لَهُمْ حَمْرًا وَكَانُوا لَهُ شِيَا

٣ - ولا نَسَبٌ إِلَّا الشَّرِيَّا إِذَا انْتَحَتْ

فكَانَتْ لَهُمْ نِصْفًا وَكَانُوا لَهُ ثِيَا

٤ - ولا صِدْقٌ إِلَّا لِلرَّجَاءِ الَّذِي سَرَى

فَقَصَّرَ طَوْلَ اللَّيْلِ وَاسْتَقْرَبَ النَّيَا

وَيَصِفُ غَرَبَتَهُ وَتَعَرُّضَهُ لِلْأَهْوَالِ قَائِلًا^(٢) :

٥ - وما أَرَى قَبْلَهَا قِرْنًا أُعَانِقُهُ

إِلَّا وَوَدَّعَ نَفْسًا لَا تُرَاجِعُهُ

ويقول - أيضًا - واصفًا غرْبته واغترابه^(٣) :

٦ - فلا مُؤْنَسٌ إِلَّا شَهيقٌ وَزَفْرَةٌ

ولا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

٧ - وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحَبَّةٍ

وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

ويقول - أيضاً - في غربته واغترابه^(١) :

٨ - فَمَا تَهْتَدِي الْعَيْنُ فِيهَا سَبِيلًا

سِوَى سَبَلِ الْعَبَرَاتِ الْهُمُولِ

٩ - وَلَا يَعْرِفُ الْمَوْتُ فِيهَا طَرِيقًا

إِلَى النَّفْسِ إِلَّا بَعْضَ صَقِيلِ

في المثال الأول من باب قصر الصفة على موصوف إذا ادعى الشاعر أن أحد أبنائه لا مطلع ولا مشرق لهم سوى مهده وحجره ، ولا مغرب لهم إلا ضلوعه وصدره ، فالشاعر هنا يوضح مدى سيطرة الرعب والخوف على أبنائه ، فليس لهم مكان يلوذون إليه ويحميهم من دياجير الظلام والذئاب والأهوال إلا مهد وحجر وضلوع والدهم ، فالشاعر أراد من أسلوب القصر هذا إبراز مدى شدة اغترابهم .

أما المثال الثاني : قصر صفة على موصوف - أيضاً ، فقد قصر صفة الخليل على الهجير الموصوف ليبين تفرد أبنائه واغترابهم ، حيث لم يبلغ أحد مبلغه ، فهم يجوبون القفار وحيدون دون أنيس وصديق حميم لهم سوى الهجير ، الذي تشتد لظاه إذا كانوا لذلك الهجير بمثابة الجمر الذي يزيد من اشتعاله .

أما المثال الثالث : من باب قصر الصفة على الموصوف - أيضاً - فالشاعر يريد أن يوضح لنا ضخامة معاناة أبنائه الذين لا نسب لهم إلا الثريا التي يصبرونها

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٦٥ .

وهم في رحيلهم الدائب ، فهو يريد أن يوضح شدّة اغترابهم ووحدهم ، فهم ليس لهم نسب يربطهم بالبشر وإنما نسبهم متصل بالثريا والنجوم .

المثال الرابع : قصر الصفة (الصدق) على الموصوف (الرجاء الذي يقصر طول الليل ويقرب لهم النوى والبعد) .

والمثال الخامس : من باب قصر موصوف على صفة ، فهو حينما يرى ذلك الوحش الذي يقاتله ما كان منه إلا أن يسلم أمره للموت .

المثال السادس : من قبيل قصر صفة على موصوف ، فلا مؤنس (الصفة) لابن درّاج إلا (الشهيق والزفير الذي يُطلقه ليخفف من أوجاعه وألمه ، وليس هناك أمر يسعده في تلك الفلوات إلا ذرف الدموع ، فابن درّاج ينفي كل شيء يؤنسه ويسعده إلا الشهيق والزفير الملازم له والدموع التي تسيل من أجفانه ليوضح شدة معاناته .

المثال السابع : يقول أن ذلك الفراق لم يكن فراقاً بين أحبة فقط ، وإنما فراق غادرت فيه القلوب الأبدان ، فالشاعر لجأ إلى أسلوب القصر ليوضح شدّة ذلك البين على نفسه الذي لم يبلغه أحد سواه .

المثال الثامن : قصر هداية العين وسبيلها على طرق العبرات وذرف الدموع فهو من باب قصر موصوف على صفة .

المثال التاسع : فالموت لا يعرف الطريق إلى نفس الشاعر إلا بعضب صقيل والقصر من باب قصر موصوف على الصفة .

- التنغيم الإيقاعي الانفعالي :

« التنغيم ثري بإمكاناته التعبيرية عن المواقف الانفعالية المختلفة من دهشة واستنكار وتعجب ، أو بكلمات أخرى ، ويُعد التنغيم بمثابة المرآة التعبيرية اللغوية التي تعكس الحالة الشخصية »^(١) .

فالحالة النفسية أو الانفعالية هي التي تجعل الشاعر « يرفع الصوت ويخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة كالنفي أو التهكم أو الاستفهام »^(٢) . فمن التنغيم الانفعالي عند ابن درّاج استخدام الاستفهام كقوله مستفهماً عن إمكانية الإجابة له وتنزيله المنزلة التي يستحقها^(٣) :

أبا الأصْبَغِ المعْنَى هل أنت مُصْرَخِي ؟

وهل أنت لي مُعْنٍ ؟ وهل أنت لي مُعَلٍ ؟

وهل مَلِكُ الإِنْعَامِ والجُودِ عَائِدٌ

بإِحْسَانٍ ما يُؤْلِي على حُسْنٍ ما أُبْلَى ؟

وهل لِرِياضِ المُلْكِ في نَفْحَةِ الصَّبَا ؟

وهل لِسَمَاءِ المَجْدِ في كَوَكَبِ النُّبْلِ ؟

وَحَتَّى متى أُعْطِيَ الزَّمَانُ مَقَادَتِي ؟

وقد قَبَضْتُ كَفِّي على قائِمِ النُّصْلِ

فقلوه : (هل أنت مصرخي ؟ وهل أنت لي معن ؟ وهل أنت لي معل ؟ وهل ملك ؟ وهل لرياض ملك ؟ وهل لسماء المجد ؟ نلاحظ فيه تنغيم إيقاعي انفعالي ، ولكن ازدادت حدة هذا الانفعال حينما قال : حتى متى أعطى الزمان مقادتي ؟

(١) علم الأصوات ، د. محمد أحمد محمود ، ص ٢١٣ .

(٢) مدخل إلى علم اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، ص ١٠٦ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٠ .

فتصعدت النعمة لأنها هنا مرتبطة بمعنى الدهشة والاستغراب، وكأنَّ التساؤل هنا يمتد ليبحث وينقب عن قوة جبارة تستطيع أن توقف هذا الرحيل الدائم والاعتراب الدائم، ثم إن تكراره لحرف الحاء : (حول - يحول - رحيل) يعطي البيت إيقاعاً موسيقياً مبرزاً مدى معاناة الشاعر .

ويستفهم ابن درّاج عن إمكانية نجاتهم من أهوال تلك الرحلة البحرية ، يقول^(١) :

ألا هل إلى الدنيا معادٌ وهل لنا
سوى البحرِ قبرٌ وسوى الماءِ أكفانٌ؟
وهبنا ربنا معلّم الأرض هل لنا
من الأرض مأوى أو من الإنس عرفان؟

فالاستفهام هنا يظهر حالة الشاعر النفسية ومن معه، إذ لا يمل من تكرار السؤال ألا هل وهل لنا - هل لنا من الأرض ؟ فتظهر لنا نغمة حزينة يدثرها اليأس من النجاة، فيكون البحر قبراً لهم ، والماء أكفاناً لهم، وإن نجوا من تلك الرحلة هل سيكون لهم في الأرض مأوى يأويهم وخيراً يجدونه من الناس . ويتساءل ابن درّاج عن وقت انتهاء حياة الغربة والاعتراب . يقول^(٢) :

فهل حَوْلٌ يحولُ بلا رحيل؟
ولو شيئاً نراه في المنام

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

فنغمة الاستفهام نغمة حزينة تبرز حالة الشاعر القلقة، وتظهر هذه النغمة إذا وقفنا على لفظة «رحيل» لإثبات معاني الحزن «حول - يحول - رحيل» ويتساءل ابن درّاج عن زمن نهاية هذا العذاب والألم قائلاً^(١) :

بِسِيرٍ يَقُولُ الصَّفا الصُّمُّ مِنْهُ

أما للحوادثِ قلبٌ رحيمٌ ؟

أما يستقالُ الزمانُ الكئودُ ؟

أم يُستَكْفُ العذابُ الأليمُ ؟

ولإظهار عمق المأساة المحتبسة في قلب الشاعر على الاستفهام «أما للحوادثِ قلبٌ رحيمٌ ؟ أما يستقالُ الزمانُ الكئودُ ؟ أم يستكفُ العذابُ الأليمُ ؟» الذي أكسب تلك الأبيات إيقاعاً تنغيمياً حزيناً ينبثق من قلب يعاني العذاب والألم . ويقول أيضاً^(٢) :

أَيَغْرُبُ عَنْدَكَ نَجْمٌ اغْتَرَايَ ؟

ومطلعهُ لك في الأرضِ بادٍ

ويتساءل ابن درّاج عن زمن انتهاء اغترابه باستفهام نلمس فيه عمق الكآبة التي يعيشها الشاعر جراء ذلك الاغتراب كما أن هذا الاستفهام أكسب البيت إيقاعاً حزيناً ، كما استخدم ابن درّاج أيضاً النداء ليعبر عن تلك الحالة الانفعالية التي تكسب البيت إيقاعاً تنغيمياً كقول ابن درّاج مخاطباً كل غريب شريد عن وطنه^(٣) :

ويا غريباً شريداً عن موطنِهِ

لَتَهْنِكَ الْأَرْضُ أَفَّا وَأَوْطَانَا

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

ويا مَرُوعَ الضُّحَى يُزْجِي ظَعَانَهُ

عَرَّسَ بِجَوْزِ الْفَلا أَمَّنَّا وَإِمَانًا

ولإظهار شدة اغترابه وغربته لجأ الشاعر إلى هيكل تنغمي مرتفع تمثّل في حرف النداء والمنادى اللذين يرتفع الصوت عند النداء بهما ليوضح شدة إحساسه بالضياع والتشرّد حتى إنّ الفياضي والأوطان قد عرفته . ويستخدم الشاعر النداء ليعبر عن شوقه لأبنائه في غربته . يقول^(١) :

ويا طُولَ ظَمْئِي لِحَمْسٍ وَعَشْرٍ

طَرِيدَ الْحِياضِ بَعِيدَ الْإِضَاءِ^(٢)

فالنداء هنا يحمل معاني الشوق والحنين ؛ ولذا ظهر الإيقاع التنغمي للبيت مرتفعاً يتناسب مع الحالة الشعورية التي تحيط بالشاعر . ويستخدم النداء ليعبر عن ضيقه وحزنه ، يقول^(٣) :

فَيَا ضَيْقَ ذَرْعِي لَهُم بِالزَّفِيرِ

عَلَى ضَيْقِ ذَرْعِي بِضَيْقِ الشَّتَاءِ

النداء جاء ب - (يا) وهو للبعيد وأفاد تعظيم ذلك الضيق في نفسه ، فالشاعر يعايش حالة شعور بضيق ، وهم وهو بحاجة إلى صوت مرتفع لإخراج ذلك الهم الذي تكتظ به نفسه .

ويقول مادحاً ممدوحه بأنه آواه بعد غربته فيستخدم النداء ، يقول^(٤) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٦ .

(٢) الإضاء : هو الغدير .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

يَا مُوسِعَ الرَّاجِينَ إِفْضَالًا وَيَا

مَأْوَى الْغَرِيبِ وَكَافِلَ الْيَتَامِ

النداء جاء هنا لتعظيم مكانة ذلك الممدوح الذي زاد في إفضاله بإيواء للغريب، فجاء هذا النداء لإبراز خصال ممدوحه .

ويقول متعجباً من صروف الزمان^(١) :

فَيَا عَجَبًا لَصُرُوفِ الزَّمَانِ

شُهُودًا لَنَا وَهِيَ فِينَا خُصُومٌ !

يتعجب الشاعر من ذلك الزمان الشاهد على غربته وعذابه ، وهو في الوقت نفسه خصم عنيد له، فجاء بالنداء للتعجب ليواكب الحالة النفسية للشاعر .

ومن التنغيم الانفعالي الذي استخدمه الشاعر — أيضاً — تكرار (إن) التي تفيد الشرط ، كقوله مؤكداً شدة اغتراب أبنائه وغربتهم^(٢) :

فَإِنْ أَقْوَتْ مَعَانِي الْعِزِّ مِنْهُمْ

فَكَمْ عَمِرَتْ بِهِمْ يَدٌ خَلَاءُ

وَإِنْ ضَاقَتْ بِهِمْ أَرْضٌ فَأَرْضٌ

فَمَا بَكَتْ لِمِثْلِهِمُ السَّمَاءُ

وَإِنْ نَسِيَ الرَّدَى مِنْهُمْ ذِمَاءُ

فَأَغْذَرَ زَاهِقٌ عَنْهُ الذَّمَاءُ

يؤكد الشاعر هنا شدة اغتراب أبنائه وغربتهم ، فهم قد عمروا في البعد وفي الخلاء حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت وبكت عليهم السماء ، فجاء بـ (أن) ليؤكد الحالة النفسية والمعاناة التي تحملوها في تلك البعد ، وفي ذلك الخلاء .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

ومن الإيقاع التنغمي الذي استخدمه ابن درّاج أسلوب القسم ، كقوله^(١) :

وَلَا غَسْفَنَ اللَّيْلَ غَيْرَ مُشِيعٍ
وَلَا رُكْبَنَ الْهَوْلِ غَيْرَ مُذَلِّلٍ
وَلَا سَطُونٌ عَلَى الزَّمَانِ بَعَزَمَتِي
وَلَا نُحَيْنٌ عَلَى الْخُطُوبِ بِكَلْكَلِي
وَلَا رُمَيْنٌ مُقَاتِلَ الثُّوبِ الَّتِي
وَلَعْتُ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ بِمَقْتَلِي

وإذا ما نظرنا إلى الأبيات السابقة لوجدنا هنا نغمة إيقاعية عالية تناسب الحالة الانفعالية أو الشعورية للشاعر، فالشاعر يريد أن يتغلب على كل الصعاب التي تواجهه في غربته ورحيله ، فهو يُقَسِّم أن يسير في الليل ويركب الصعاب ، ولسوف يسطو على الزمان بعزيمة قوية غير مترددة؛ ليتغلب على تلك الخطوب ويقا تل النوى والبعد الذي كان يتربص به ليقتله .

وهكذا نجد لتنغم « أشكال محددة ، فالهيكل التنغمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية غير الهيكل التنغمي لجملة الإثبات ، وهن يختلفن من حيث التنغم عن الجملة المؤكدة ، فلكل جملة من هذه صيغة تنغمية خاصة فأوها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاتها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض^(٢) . تواكب حالة التوتر والقلق الذي يعاينه ابن درّاج .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، ص ٢٢٦ .

- كم الخبرية :

واستخدمها ابن درّاج ليخبرنا عن كثرة غربته واغترابه، مما جعله يفعل ويكررها، لِيَجَسَّدَ هذا التّكرار تناغمًا صوتيًا يعبر عن نفسية الشّاعر ، ومن ذلك قوله مخبرًا عن كثرة الأهوال والصعاب^(١) :

فَكَمْ غَالٍ مِنْ أَجْسَامِهَا غَوْلُ قَفْرَةٍ
وَحَرَمٍ مِنْ أَلْبَابِهَا الْخَارِمِ

وَكَمْ عَجَزَتْ عَنَّا ذَوَاتُ قَوَائِمِ
فَعُجِّنَا بِعُوجِ مَا لَهُنَّ قَوَائِمِ

ويقول - أيضًا - عن كثرة الصعاب في رحيلهم^(٢) :

وَكَمْ وَجَّهُوا وَجْهًا لِبَارِقَةِ الطُّبَى
وَكَمْ وَطَّئُوا نَحْرًا لِنَافِذَةِ النَّخْرِ

وَكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ الْمَنَايَا كَمَا هَوَتْ
فَرَأَسُ أُسْدِ الْغَابِ لِلنَّابِ وَالظُّفْرِ

وَكَمْ بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ رَاعٍ وَحَافِظٍ
وُجُوهَ الْمَنَايَا السُّودِ وَالْحَدَقِ الْحُمْرِ

وَكَمْ زَفَرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ
أَنَارَتْ بِنَارِ السَّرِّ فِي عِلْمِ الْجَهْرِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

ويقول - أيضاً^(١) :

فَكَمْ حَمَلَتْ مِنْ حُرِّ قَلْبِ مُوَلِّهِ
يُئَلِّغُ عَنْهُ النِّجْمُ قَلْبًا مُوَلِّهَا
وَكَمْ ضَمَّ ذَاكَ اللَّيْلُ مِنْ أُمَّ شَادِنِ
أَضَلَّتْهُ فِي جَوْفِ الْفَلَا وَأَضَلَّهَا
ويقول واصفاً ومخبراً عن كثرة هموم أبنائه^(٢) :

وَكَمْ فَاضَتْ مَدَامِعُهُمْ فَمَدَّتْ
عُبابَ الْبَحْرِ بِالمَاءِ الرِّوَاءِ
وَكَمْ خَاضُوا كَهَمَّهُمْ بُحُورًا
وَكَمْ عَدِمُوا الثَّرَى عَدَمَ الثَّرَاءِ

خصائص شعره :

يقول إحسان عباس : «إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغُزَال ، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعلُّقها والتوائها ؛ لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي ، وحاول أن يسبق كل من تقدمه في المعاني والصياغة مازجاً كل ذلك بجلبة ابن هانئ، مطيلاً إطالة ابن الرومي ، معتمداً في أكثر شعره على الكدِّ والمصابرة والنحت ، ولقد أصاب ابن شهيد حين وصفه بشدة الأسر في الشعر والصبر على حوك الكلام ، والاقتدار على البديع إذا قورن بمن تقدمه من الأندلسيين، وبطول النفس في قصائده وبخاصة الوصف ، وبتعقب المعاني والتلاعب بها وترديدها ، وبالغموض»^(٣) .

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ، د. إحسان عباس ، ص ٢٣٥ .

ومن خصائص شعره - أيضاً - بروز السمة المحلية في شعره كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد هيكمل، ونقصد بالسمة المحلية « أن الشعر واضح التأثير بالطابع الإقليمي ومؤثراته ، كما هو شأن الشعر الحقيقي شرقاً أم غرباً »^(١) . وابن درّاج قد تفرّد بين هؤلاء جميعاً باتّضح اللون المحلي في شعره بشكلٍ لا يحتاج إلى تلمس أو بحث ، فهو في شعره لون واضح في أكثر من جانب ، ويبرز في أكثر من ناحية ، ومن هنا اعتبر سمة من سماته ، وأضيفت تلك السمة إلى سمات الشعر الأندلسي التي لا تفرق بينه وبين الشعر المشرقي ، منذ أن اتضحت في شعر ابن درّاج »^(٢) .

ومن شواهد هذه السمة أبيات الشّاعر التي يصور فيها رحلة بحرية بأهوالها وصعابها ومدى ووقع تلك الأهوال على من معه من النساء والأطفال ، حتى أنهم ليقولون بين تلك الأمواج القوية المتلاطمة والظلام الحالك : هل لهم عودة إلى الدنيا ؟ يقول ابن درّاج^(٣) :

يُرَدِّدْنَ فِي الْأَحْشَاءِ حَزَّ مَصَائِبِ
تَزِيدُ ظِلَامًا لَيْلَهَا وَهِيَ نِيرَانُ
إِذَا غِيضَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ
بِإِدْمَعِ عُيُونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنَّا الرِّيحُ جَرَى بِنَا
زَفِيرٌ إِلَى ذِكْرِ الْأَحْبَةِ حَنَانُ
يُقْلِنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالْدُّجَى

(١) التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ، د. حسن النوش ، ص ٤٨٩ - دار الجيل ،

بيروت، طبعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م . وانظر الأدب الأندلسي د. أحمد هيكمل . ص ٣٢٢ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكمل ، ص ٣٢٦ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص ٧٤ .

تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا
سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ ؟
وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
مِنَ الْأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عِرْفَانُ

ومن أبرز خصائصه الفنية - أيضاً - بروز السمة الثقافية الدينية بشكل ملحوظ في شعره ، فكثيراً ما يذكر شخصيات دينية في شعره ليجعلها أنموذجاً حياً يمثل غربته واغترابه ومواجهته للصعاب والأهوال ، فيذكر على سبيل المثال قصة عصا موسى **u** ، وغربة سيدنا يوسف **u** ، وسنذكر على سبيل المثال قوله^(١) :

وَقَدْ أَمِنَ التَّشْرِيبَ إِخْوَةَ يُوسُفَ
وَأَذْرَكَهُمْ لِلَّهِ عَفْوَ وَغُفْرَانُ

ويقول^(٢) :

سَرَتْ مِنْ عَصَا مُوسَى إِلَيْهِ قَرَابَةٌ
فَطَبُّ بَفْلَقِ الْبَحْرِ وَالصَّخْرِ عَالَمُ

ويقول في كثرة عدد أبنائه^(٣) :

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

فَلِلَّهِ مِنْ أَعْدَادِ أَتْجُمِ يُوسُفَ
تَحْمَلُهَا مِنْهَا أَقْلٌ مِنَ الْعَشْرِ
ويقول أيضاً^(١) :

إِذَا ازْدَحَمُوا فِي ضَنْكِ شَرِبِي تَمَثَّلُوا
بِأَسْبَاطِ مُوسَى حَوْلَ مُنْفَجِرِ الصَّخْرِ
وَلَوْ بَعَصَا مُوسَى أَفْجَرُ شُرْبَهُمْ
وَلَكِنْ بِذُلِّ الْفَقْرِ فِي عِزَّةِ الْوَفْرِ
ويقول أيضاً^(٢) :

أَخُو ظَمًا يَمُصُّ حَشَاهُ سَبْعُ
وَأَرْبَعَةٌ وَكُلُّهُمْ ظَمَاءُ
كَأَتْجُمِ يُوسُفَ عَدَدًا وَلَكِنْ
بِرُؤْيَا هَذِهِ بَرِحَ الْخَفَاءُ
خُطُوبُ خَاطِبَتِهِمْ مِنْ دَوَاهُ
يَمُوتُ الْحَزْمُ فِيهَا وَالِدَّهَاءُ
تَرَاءَتْ بِالْكَوَاكِبِ وَهِيَ ظَهْرُ
وَأَذِنَ فِيهِ بِالشَّمْسِ الْعِشَاءُ
فَهَلْ نَظَرِي تَخَفِّي أَوْ بِصَدْرِي
وَضَاقَ الْبَحْرُ عَنْهَا وَالْفَضَاءُ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

وَكُلُّهُمْ كَيُوسُفَ إِذْ فَادَاهُ
مِنَ الْقَتْلِ التَّغَرُّبُ وَالْجَلَاءُ
ويقول في رغبته في جمع شمله^(١) :

وَيُجْمَعُ شَمْلُ الْوَصْلِ مِنْ فُرْقَةِ الْقَلَى
وَيُرْفَعُ بَنْدُ الْوَصْلِ مِنْ مَصْرَعِ النَّكْسِ
كَجَمْعِ (سُلَيْمَانَ) النَّبِيِّ بِصَهْرِكُمْ
ذَوِي يَمَنِ وَالشَّامِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ
وَتَأْلِيفِ (ذِي الْقَرَيْنَيْنِ) إِذْ هُدِيَتْ لَهُ

كَرِيمَةَ (دَارَا) دَعْوَةَ الرُّومِ وَالْفُرسِ
وكذلك ظهور السمة الثقافية التاريخية؛ إذ يعتمد الشاعر إلى ذكر بعض القبائل
المندثرة، كقول ابن درّاج^(٢) :

كَأَنَّ وَقَدْ آنَسْتُ مِنْ (هُودٍ) هُدًى
وَلَقِيتُ (يَعْرُبَ) فِي الْقُيُولِ وَ(حَمِيرًا)
وَأَصَبْتُ فِي (سَبَأٍ) مُورَثَ مُلْكِهِ
يَسْبِي الْمُلُوكَ ، وَلَا يَدُبُّ لَهَا الضَّرَا
فَكَأَنَّمَا تَابَعْتُ (تُبَّعَ) رَافِعًا

أَعْلَامُهُ مَلَكًا يَدِينُ لَهُ الْوَرَى

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

ويقول في خاتمة بعض قصائده^(١) :

وَهَنِيئًا لَطِيئٍ وَلِهَمَّ دَا
نَ وَلَخَمٍ وَكِنْدَةٍ وَمُرَادٍ

ويقول - أيضًا^(٢) :

وَإِذَا الدُّهُورُ تَسَاجَلَتْ أَلْفَيْتُمْ
يَا آلَ تَبَّعٍ لِلدُّهُورِ دُهُورًا

ويقول - أيضًا^(٣) :

وَأَعْقَبَ طُولُ الْحَرْبِ أَبْنَاءَ (قِيلَةٍ)
زَكَاةً وَرُحْمًا فِيهِ أَمْنٌ وَإِيمَانُ
وَحَنَتْ لِدَاعِي الصُّلْحِ بَكْرٌ وَتَغَلَّبَ
وَشَفَعَتِ الْأَرْحَامَ عَبَسٌ وَذُبْيَانُ

هذه هي أهم السمات الفنية التي تميز بها ابن درّاج ، والتي آثرنا
بذكرها هنا لما لها من علاقة بموضوعنا (الاغتراب) من حيث اتصالها بالحالة
النفسية للشاعر ، وإن كانت هناك سمات أخرى كثقافة الشاعر اللغوية
والحربية ، وذكره لأسماء القادة والمعارك الأندلسية ، وغيرها لضيق المقام هنا ،
ولأن الدراسة ليست بصدد دراسة ديوان الشاعر كاملاً ، وإنما اتخذت منهجاً
لتتبع قضية (الاغتراب والغربة) في شعره .

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

الخاتمة

لقد حاول هذا البحث أن يستنطق الاغتراب في شعر ابن درّاج ، وحياته من خلال الدراسة الموضوعية والفنية، والتي اعتمدت في دراستها للشّعر على المنهج التحليلي التكاملي الجامع لمحاسن المناهج الأخرى ، كما اعتمدت - أيضاً - على الجانب النفسي الذي حاول جاهداً تفسير هذه الظاهرة (الاغتراب) في شعر القسطلبي .

وقد أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج تتلخص في المقدمة التي أبرزت أهمية الموضوع، والتي ترى أن هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن أن يغفل عنها، خاصة إذا وجدت عند شاعر فحل طالما قورن بشعراء فحول كالمثني وغيره ؛ ولهذا عمدت المقدمة إلى إبراز أهم المؤثرات والعوامل التي جعلت من ذلك الشّاعر مغترباً كبيراً مهضوم الحقوق من خلال الحديث عن نسبه وحياته. ثم التمهيد الذي وضّح معنى الغربة والاعتراب بالرجوع إلى السديم المعجمي ، ومن خلال البحث في بعض المراجع التراثية والحديثة التي تطرقت إلى توضيح هذا المعنى من خلال عدة مفاهيم قد تم التركيز عليها ، كالمفهوم النفسي للغربة والاعتراب ، والمفهوم الإسلامي لها. ومن خلال ذلك العرض وجدت ارتباط المعنى المعجمي لمصطلح الغربة والاعتراب بالمعاني التي توصل إليها في تلك المفاهيم ، مع وجود اختلاف للأسباب والعوامل التي دعت إلى الغربة والاعتراب .

كما كشف التمهيد عن علاقة الاغتراب بالتجربة الذاتية للمبدع فتطرق التمهيد إلى تجلية عدة آراء وقام بمناقشتها ، وانتهت تلك المناقشة إلى أن قدرة الشّاعر الشعرية ، ومدى قدرته على الاستفادة من تجارب اغترابه وعدمه هي التي تحدد تأثير الاغتراب فيه وعدمه، فإذا كان الشّاعر يمتلك قدرات شعرية عالية واستطاع أن يستفيد من تجارب اغترابه التي يسقطها في شعره من حين إلى آخر وفي أي موضوع شعري يريد أن يتطرق إليه ،

فلاشك أن ذلك سيكسب شعره قوةً وجمالاً وتأثيراً. وبذلك يكون الاغتراب عاملاً من عوامل بناء شعر يمتاز بالقوة والجودة والسبك ، لا عاملاً هادماً له.

ولتعزيز هذا الرأي تطرق التمهيد إلى كشف بعض جوانب الاغتراب والغربة عند شعراء كانوا نموذجاً ناطقاً لهذه الغربة قبل ابن درّاج فلم يزد شعرهم إلا جمالاً وقوةً .

وفي الفصل الأول كشفت الدراسة الموضوعية عن أهم الموضوعات التي تدور في فلك الاغتراب والغربة عند ابن درّاج ، والتي انعكست في الاغتراب النفسي والغربة بأنواعها والمتمثلة في : الغربة السياسية ، والغربة المكانية ، والغربة الاجتماعية التي شملت غربة الناس ، وغربة الأصدقاء ، وغربة الأهل والأقرباء .

فعبّر الشاعر فيها عن همومه وقلقه وألمه ، ومدى إحساسه باليأس والذل والضياع ، فخرجت تلك المشاعر وذلك الانفعال النفسي من قوقعة الكتمان لما يخترنه في قلبه من الآم فاض بها الكيل ؛ فخرجت لتوضح لنا عمق اغترابه متمثلة في قصائد شعرية تثير الشجن والألم ، خاصة أن الشاعر لم يكتف بتصوير همومه واغترابه فقط ، بل كان إحساسه أعمق من ذلك بكثير ؛ إذ عمّد إلى وصف اغتراب أبنائه وهمومهم ومعاناتهم ، ولعلّ هذا الوصف أو الإحساس الأسري من أهم ما تميّز به ابن درّاج عن غيره من شعراء عصر الطوائف .

وفي الفصل الثاني أبرزت الدراسة الفنية فيه عن خصائص البناء الفني لقصيدة الاغتراب ، وعلاقة أجزاء القصيدة بعضها ببعض ابتداءً من المقدمة والتخلص والخاتمة ، التي انعكست عليها معطيات الاغتراب لنقر فيها إلى استجابة ابن درّاج لإحساسه وشعوره ، الذي تمتد خيوطه في تلك الأجزاء لتظهر لنا ملامح الوحدة الفنية في قصيدة الاغتراب ، التي غلب عليها الاضطراب والقلق الذي ظهرت إشعاعاته بين الفينة والأخرى عن طريق استخدامه لبعض الدوال والسياقات المعنوية التي تبرز ذلك القلق .

كما كشفت الدراسة عن تأثر الصورة الشعرية بالاغتراب ، إذ ظهرت تلك الصور مُصورةً اغتراب الشاعر وغربته من خلال التشخيص الذي شخص وجسّد فيه تلك المعاناة في صور حية ناطقة ، ومن خلال التشبيه و الكناية والتقابل الإيحائي للصور التي ساهمت في تجلية اغتراب الشاعر وغربته .

كما أسفرت دراسة المعجم الشعري للشاعر عن مدى عمق التجربة ، ومدى انفعاله ، مما دفعه دفعاً لتكرار بعض الدوال التي ساهمت بشكل كبير في تصوير اغترابه ، والإفصاح عما يكنُّ به قلبه من معاني الحزن والأسى والقلق الذي فاض به الكيل ؛ ليصاغ في تلك الكلمات التي جسّدت معاناته ورغباته التي لم يتمكن من تحقيقها .

كما كشفت الدراسة الموسيقية لقصيدة الاغتراب اهتمام الشاعر بالجانب الموسيقي ، الذي عكس بدوره - أيضاً - جانباً من جوانب معاناة الشاعر وهمومه مع إعطاء إيقاع صوتي حزين يكشف عن حالة الحزن والألم، عن طريق استخدام بعض السياقات المعنوية واللغوية واللفظية التي شملت التردد والتصدير والتكرار والقافية والتصرّيع والتجنيس والجرس الذي قبل الجنس والازدواج والوزن والتضاد والمقابلة ومراعاة النظير والمبالغة وجموع التكسير ، واستخدام أسلوب القصر وبعض أساليب التنغيم الإيقاعي الانفعالي التي عكست تلك الحالة (الاغتراب) المصاحبة للشاعر .

كما ذيلت الدراسة بذكر بعض الخصائص الشعرية التي تميّز بها الشاعر ابن درّاج كبروز السّمة المحلية في شعره، وتوظيفه للموروث الديني والتاريخي ، وغيرها من الثقافات التي ظهرت في شعره ، وقد اكتفينا بالإشارة إليها لكونها بحاجة إلى دراسة مستقلة تبرز عمق هذه الثقافة ودورها في الفاعل، سواء من الناحية التاريخية أو الحربية، والنظر إلى أهمية الشعر ودوره في هذا المجال، ومدى قدرته في متابعة الأحداث ورصدها .

وبعد فهذه هي أهم النتائج التي تم التوصل إليها ، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت ، والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع الخاصة :

أولاً : المعاجم :

- ١ - تاج العروس ، للزبيدي .
- ٢ - تهذيب اللغة ، للأزهري ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة، ١٩٦٤م .
- ٣ - الصحاح ، للجوهري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة، ١٩٥٦م .
- ٤ - كتاب العين ، للخليل الفراهيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، (د.ط).
- ٥ - معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل، بيروت ، (د.ط).
- ٦ - معجم لسان العرب ، لابن منظور، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ط).
- ٧ - المعجم الوجيز ، المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت - لبنان ، (د.ط).

ثانياً : المصادر والمراجع الأدبية :

- ١ - أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصبهاني ، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم ، د/ صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م .
- ٢ - أعمال الأعلام لابن الخطيب تحقيق : أ / ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت، ١٩٥٦م .
- ٣ - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري تحقيق أ/ ليفي بروفنسال، دار المكشوف بيروت (د.ط).
- ٤ - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، د/ مصطفى سوييف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، عام ١٩٧٠م .

- ٥ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط ، د/ أحمد هيكل ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة عشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ م.
- ٦ - الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، د/ معروف الرصافي ، بغداد ، ١٩٥٦ م.
- ٧ - الأطلال في الشعر العربي ، دراسة جمالية ، محمد عبد الواحد حجازي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية .
- ٨ - ابن الرومي ، شاعر الغربة النفسية ، فوزي عطوي ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م .
- ٩ - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، /عبد القادر القط ، مكتبة الشباب ، عام ١٩٧٨ م.
- ١٠ - الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، د/ عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، بغداد ، الطبعة الثانية ، عام ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م / .
- ١١ - الاغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٨ م .
- ١٢ - الاغتراب في شعر المتنبي ، د/ صالح زامل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .
- ١٣ - الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، محمود هياجنة ، دراسة نصية ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، عمان ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
- ١٤ - بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة: محمد الولي ، ومحمد العمري ، الدار البيضاء ، دار توييقال ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦ م .
- ١٥ - تاريخ آداب العرب ، الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ١٤٢٥ هـ — / ٢٠٠٤ م ، راجعه الدكتور / درويش الجويدي .

- ١٦ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د/ إحسان عباس ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن، ١٩٩٧م.
- ١٧ - تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، لشوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ١٨ - التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي د.حسن النوش -دار لجيل بيروت طبعة ١٤١٢- ١٩٩٢.
- ١٩ - التفسير النفسي للأدب ، د/ عز الدين إسماعيل ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، (د.ت).
- ٢٠ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، للحميدي ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة، ١٩٥٢ م .
- ٢١ - الحنين والغربة في الشعر العربي ، د/ ماهر فهمي، (ت. ت) .
- ٢٢ - دراسات أدبية ، د/ أحمد هيكمل ، الطبعة الأولى ، دار المعارف، القاهرة، عام ١٩٨٠م.
- ٢٣ - دراسات في سيكولوجية الاغتراب، لعبد اللطيف خليفة ، دار غريب ، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م .
- ٢٤ - دراسات في الشعر والمسرح ، د/ مصطفى بدوي ، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .
- ٢٥ - ديوان ابن درّاج ، تحقيق : محمود مكي ، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ .
- ٢٦ - ديوان أبي تمام ، لحيي الدين الخياط ، (د.ت).
- ٢٧ - ديوان أبي فراس الحمداني ، دار الكتاب العربي ، د/ خليل الدويهي ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .
- ٢٨ - ديوان امرئ القيس ، تحقيق: مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م .

- ٢٩ - ديوان جميل بثينة ، د/ إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
- ٣٠ - ديوان الشريف الرضي ، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ٣١ - ديوان عنتر ابن شداد ، تحقيق: محمد عناني ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م .
- ٣٢ - ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر ، بيروت، (د.ت) .
- ٣٣ - ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق: محمد عاشور ، دار المعارف ، القاهرة، (د.ت) .
- ٣٤ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام ، تحقيق: د/ إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- ٣٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق: أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦م .
- ٣٦ - الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د/ أشرف علي دغرور ، مكتبة فضاء الشرق ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م .
- ٣٧ - في الأدب الأندلسي ، لد/ جودة الركابي ، دار المعارف، (د.ت) .
- ٣٨ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة، القاهرة، ١٩١٩م .
- ٣٩ - قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د/ شفيع السيد ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د.ت).
- ٤٠ - قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د/أشرف محمود نجا، (د.ت) .
- ٤١ - كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ، لصالح هلال والسيد الجليمي ، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

- ٤٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن دحية ، تحقيق: إبراهيم البياري ، د/حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤م .
- ٤٣ - من النص إلى النص المترابط ، مدخل إلى جماليات الإبداع ، د/ سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م .
- ٤٤ - موسيقى الشعر ، د/ شكري عياد ، دار المعرفة ، القاهرة، (د.ت) .
- ٤٥ - نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة، ١٩٤٩م .
- ٤٦ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور الثعالبي ، شرح وتحقيق: د/مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ — / ١٩٨٣م بيروت ، لبنان .

ثالثاً : المصادر والمراجع البلاغية والنقدية :

- ١ - أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد الفضالي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ٢ - إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩١٩م.
- ٣ - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ، بيروت، الطبعة الثالثة، (د.ت) .
- ٤ - البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، تحقيق : أحمد بدوي ، وحامد عبد الحميد، مكتبة مصطفى الباي ، مصر ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- ٥ - البديع تأصيل وتجديد ، د/ منير سلطان ، دار المعارف الإسكندرية ، عام ١٩٨٦م .
- ٦ - حلية المحاضرة ، الحاتمي ، تحقيق: د/ جعفر الكتاني ، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٩٧م.

- ٧ - دلائل الإعجاز ، لعبد القادر الجرجاني ، تعليق: محمود شاكر ، مكتبة الخفاجي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ .
- ٨ - دراسات في النقد الأدبي عند العرب في المغرب و الأندلس ، د/ عمر محمد عبدالواحد ، دار الأندلس ، حائل ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ٩ - شعر حسين سرحان - دراسة نقدية ، د. أحمد عبدالله صالح المحسن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ١٠ - الصُّورة الفنية في النقد الشعري ، دراسة في النظرية والتطبيق ، د/ عبد القادر الرباعي ، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
- ١١ - الصُّورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د/ جابر أحمد عصفور ، دار المعارف، القاهرة ١٩١٩م .
- ١٢ - علم البيان ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ١٣ - علم المعاني ، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٤ - علم البديع ، دراسة فنية وموضوعية بمسائل البديع ، د/ بسيوني فيود ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، دار المعالم الثقافية ، الإحساء للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٥ - العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق ، تحقيق : د/ النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- ١٦ - عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : د/ عبد العزيز المانع ، توزيع مكتبة الخانجي ، بالقاهرة .
- ١٧ - في النقد التطبيقي والمقارن ، د/ محمد غنيمي هلال، فخصة مصر للطبع والنشر ، (د.ت).
- ١٨ - المثل السائر لابن الأثير ، تحقيق : د/ أحمد الحوفي ، ظ د/ بدوي طبانة ، دار فخصة مصر للطبع والنشر، (د.ت) .

- ١٩ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجني ، تحقيق : محمد ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م .
- ٢٠ - مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، د/ محمد محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبة، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ٢١ - المنتقى من دراسات المستشرقين ، فرانس تشيز ، جمعها : صلاح الدين المنجد ، الجزء الأول، (د.ت) .
- ٢٢ - الشعر لأبي الفرج ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، (د.ت).
- ٢٣ - النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال، (د.ط) ، (د.ت) .
- ٢٤ - النقد الأدبي ، أحمد أمين ، النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م .

رابعاً : المراجع اللغوية :

- ١ - الأصوات اللغوية ، د/ إبراهيم أنيس ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٢م .
- ٢ - بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، الدار البيضاء ، دار توبيقال ، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م .
- ٣ - شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل (العروض والقافية) ، تحقيق : د/ محمود مصطفى ، دار الكتب العلمية ، لبنان، (د.ت) .
- ٤ - علم الأصوات ، د/ محمد أحمد محمود ، دار أشبيلية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- ٥ - علم العروض والقافية ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- ٦ - فن التقطيع الشعري والقافية ، د/ صفاء خلوصي ، الطبعة الخامسة ، مزينة ومنقحة ، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٧٧ م .
- ٧ - اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب، ١٩٩٤ م .
- ٨ - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د/ رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

المصادر والمراجع العامة :

- ١ - الأسرة ومشكلاتها، د/محمود حسن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت عام ١٩٨١ م.
- ٢ - أنيس المسافر ، د/ أبي عمر الندوي ، دار الأرقم ، الطبعة الأولى ، عام ١٤١٥ هـ .
- ٣ - الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدى، تحقيق: عبد الرحمن البدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ م .
- ٤ - رياض الصالحين، لحي الدين النووي، تحقيق: سعيد بن نصر محمد، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الرابعة، عام، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
- ٥ - شرح صحيح مسلم ، للنووي، (د.ت) .
- ٦ - الشعور اختيار ينبع من الذات ، د/ جاري مكاي ، و د/ دون دنكامير ، مكتبة جرير ، (د.ت).
- ٧ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، دار مصر للطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

- ٨ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف : محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- ٩ - فجر الأندلس ، لحسين مؤنس ، دار الرشد ، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ — / ٢٠٠٥م.
- ١٠ - معالم تاريخ المغرب والأندلس ، لحسين مؤنس ، دار الرشاد، الطبعة السادسة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

خامساً : الدوريات و الموسوعات :

- ١ - بنية التراث الروحي والاجتماعي في مريثة طليطلة ، لحسين خرويش ص ، ٨٨
المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، دمشق ع (٦٨) عام ١٩٩٩م .

فهارس البحث

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	الصفحة
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ . . . ﴾	البقرة	٨٥/٨٤ ١٧
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ ﴾	البقرة	١٧٧ ١٨
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	النساء	١٠٠ ١٨
﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾	المائدة	٣٣ ١٨
﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾	الأعراف	٢٢ ٢٨٤
﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾	القصص	٢٤ ٢٩١
﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾	ص	٢٠ ٢٧٥
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾	المزمل	١٤ ٢٨٢
﴿كَأَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾	القيامة	٢٦ ٢٧٤
﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾	التوبة	١١٨ ٢٩٢

ثانياً : فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث
١٩	« إِنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها »
١٩	« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »
١٥٦	« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل »
١٥٦	« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان »
١٥٦	« سبعة يظلمهم الله في ظله »
٤٥	« السفر قطعة من العذاب »
١٨	« كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »
١٥٦	« المؤمن للمؤمن كالبنيان »

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوعات
ب	ملخص البحث باللغة العربية
ج	ملخص البحث باللغة الإنجليزية.....
د	شكر وتقدير.....
١	المقدمة.....
١١	تمهيد :
١٢	أولاً : توضيح معنى الغربة والاعتراب.....
٢١	ثانياً : علاقة الاعتراب بالذات المبدعة.....
٢٩	ثالثاً : الغربة قبل ابن درّاج.....
	الفصل الأول : ألوان الغربة والاعتراب في حياة ابن درّاج وشعره . دراسة
٤١	موضوعية.....
٤٢	أولاً : الاعتراب النفسي في حياة ابن درّاج وشعره.....
٩٣	ثانياً : الغربة السياسية.....
١٣٦	ثالثاً : الغربة المكانية.....
١٤٨	رابعاً : الغربة الاجتماعية.....
١٤٨	١ - غربة الناس.....
١٥٦	٢ _ غربة الأصدقاء.....
١٦٣	٢ - الغربة عند الأسرة والأقرباء.....
	الفصل الثاني : ألوان الغربة والاعتراب في حياة ابن درّاج وشعره . دراسة

١٩٧	 فنية
١٩٨	 أولاً : البناء الفني
٢٩١	 ثانياً: المعجم الشعري في شعر الغربة والاغتراب
٢٩٩	 ثالثاً: الصُّورة الشعرية
٣٢٣	 رابعاً : الموسيقى
٣٧٩	 الخاتمة
٣٨٢	 المصادر والمراجع
٣٩٠	 فهرس الآيات القرآنية
٣٩١	 فهرس الأحاديث
٣٩٢	 فهرس الموضوعات